تشيسواف ميووش

# العقل المُعتَقَل



ترجمة

عبير مرعي

منشورات الجمل

تشيسواف ميووش: العقل المُعتَقَل

تشيسواف ميووش

# العقل المُعتَقَل

ترجمة

عبير مرعي

منشورات الجمل

ولد تشيسواف ميووش عام ١٩١١ في ليتوانيا، ودرس في ويلنو وباريس، وبدأ بالنشر في بدايات عشرينياته. عندما تم غزو بولندا عام ١٩٣٩، أصبح السيد ميووش ناشطاً في الحكومة السرية في وارسو، عمل ككاتب ومحرر للمطبوعات الثورية. انضم في عام ١٩٤٦ إلى السلك الدبلوماسي البولندي. عيّن في السفارة البولندية في واشنطن حتى عام ١٩٥٠، ثم نقل إلى السفارة البولندية في باريس حيث استلم عمل السكرتير الأول للشؤون الثقافية. في عام ١٩٥١ انشق السيد ميووش عن الحكومة البولندية وذهب إلى المنفى، أولاً في فرنسا، ثم في الولايات المتحدة الأمريكية. كان أستاذ الأدب واللغات السلافية في جامعة كاليفورنيا في بيركلي، حيث عاش مع زوجته وولديه. تضم كتبه دواوين شعرية عدة، ومختارات عدة من المقالات، وعملين من القصص، وسيرة ذاتية. استلم السيد ميووش في عام ١٩٧٦ زمالة غوغنهايم للشعر والشعر المترجم، وفي ١٩٧٨ جائزة نيوشتاد الدولية للشعر، وعام ١٩٨٠ جائزة نوبل للشعر. توفي عام ٢٠٠٤.


تشيسواف ميووش: العقل المُعتَقَل، ترجمة: عبير مرعي

الطبعة الأولى ٢٠١٨



كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية

محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٨



تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Czeslaw Milosz: Zniewolony umysl



©1951, 1953, Czeslaw Mitosz ©renewed ©1981, Czeslaw Milosz

All rights reserved



This publication has been supported by the

©POLAND Translation Program

BOOK INSTITUTE

©POLAND

© *Al-Kamel Verlag 2018*

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

عندما يكون شخصٌ ما، وبكلّ صدق، على صواب بنسبة ٥٥٪ فإن هذا أمر جيد جداً ولا داعيَ للجدل بشأنه. وإن كان شخص ما على صواب بنسبة ٦٠٪ فهذا أمر رائع وحظ كبير، فليشكر الرب عليه. لكن ماذا يمكن القول عن نسبة ٧٥٪ من الصواب؟ يقول الحكماء إنّه أمر مثير للريبة. حسناً، ماذا عن نسبة ١٠٠٪ من الصواب؟ أيّاً كان من يقول عن نفسه إنّه على صواب بنسبة ١٠٠٪ فهو متعصّب وسفّاح وأسوأ أنواع الأوغاد.

**يهودي قديم من غاليسيا**

# مقدّمة

مثل كثيرٍ من أبناء جيلي، كنت أتمنّى لو أنّ حياتي كانت أقل تعقيداً. غير أن مكان وتاريخ ميلاد أي إنسان هما أمران لا حيلة له بهما. لم يحظَ الجزءُ الذي أنتمي إليه من أوروبا، في زمننا، بكثير من الحظ. لا يمكن لكثير من سكان دول البلطيق وبولندا وتشيكوسلوفاكيا أو هنغاريا ورومانيا، أن يلخّصوا ببضع كلمات قصةَ حياتهم. كانت حيواتهم قد تعقّدت بسبب لعنة الأحداث التاريخية.

بدأت الحرب العالمية الثانية من بلادي. كنت أعيش في وارسو في ذلك الحين، وكنت قد تلقّيت دراستي في مدرسة كاثوليكية متشدّدة، ودرست الحقوق في إحدى الجامعات البولندية، وتابعت دراساتي في باريس. كان الأدب هو أكثر ما أثار اهتمامي في حياتي. نشرت مجلّدين من شعر الطليعة[1]، وبعض الترجمات من الشعر الفرنسي.

عايشت خمس سنوات من الاحتلال النازي. اليوم، وعندما أنظر إلى الماضي، لا أندم على هذه السنوات في وارسو، والتي كانت باعتقادي أكثر بقعة معذّبة في كل أوروبا المروعة. لو أنّني اخترت في ذلك الزمن الهجرة، لكانت حياتي بالتأكيد قد اتخذت مساراً مختلفاً. غير أنّ معرفتي

---

(١) Avant-garde (م).

بالجرائم التي شهدتها أوروبا في القرن العشرين ستكون غير مباشرة في هذه الحالة، وستكون أقل تركيزاً مما هي عليه الآن.

في عصر أحد أيام كانون الثاني/ يناير عام ١٩٤٥ كنت واقفاً في مدخل كوخ أحد الفلاحين؛ وقد حطّت للتو بضع قذائف من العيار الصغير في شوارع القرية. ثم شاهدت طابوراً من الرجال يتقدّم ببطء في الأراضي المنخفضة بين التلال المغطّاة بالثلوج. كانت تلك أول كتيبة من الجيش الأحمر. كانت تقودها امرأة شابة، تنتعل جزمة لبادية وتحمل بندقية رشاشة. ومثل كل مواطني بلدي، كنت قد تحرّرت إذاً من سيطرة برلين - بعبارة أخرى، وقعت تحت هيمنة موسكو.

حتى تلك اللحظة، لم تكن لدي أي ميول سياسية مهمة، وكنت أكثر من مستعد لأحبس نفسي بعيداً عن وقائع الحياة. غير أن العالم الواقعي لن يتركني منعزلاً طويلاً. جعلتني مجريات الأمور في بولندا أميل باتجاه الأفكار اليسارية. كان من الممكن تحديد وجهة نظري بشكل سلبي أكثر ما هو إيجابي: لم أحب المجموعات اليمينية، والتي يتضمن برنامجها السياسي، بشكل رئيس، معاداة السامية. كنت أثناء الاحتلال النازي، مثل زملائي، أكتب في المنشورات السرية، والتي كانت أعدادها هائلة في بولندا بشكل خاص. قادتني خبرتي في تلك السنوات إلى نتيجة مفادها أنه بعد هزيمة هتلر فإن الناس المخلصين للبرنامج الاشتراكي هم فقط من سيكون بمقدورهم القضاء على ظلم وإجحاف الماضي، وإعادة بناء اقتصاد دول أوروبا الوسطى والشرقية. لم تكن مشاعري تجاه روسيا ودودةً جداً. لم يحب البولنديون والروس بعضهم بعضاً أبداً، ولم أكن استثناء عن القاعدة العامة. الاستثناءات كانت هؤلاء الذين صاروا من مريدي ستالين قبل الحرب أو أثناءها، ومنهم بعض أصدقائي.

هذه إذاً كانت حالتي العقلية وأنا أراقب الفتاة الروسية برشاشها

تقترب باتجاهي. بالنسبة إليها كنت واحداً من ملايين الأوروبيين الذين يجب «تحريرهم وتثقيفهم». بل ربما كنت فرداً من الطبقة البرجوازية... لكن ذلك كان بعيد الاحتمال، باعتبار أن أفرول العمل البالي الذي أرتديه كان كل ما أملك في العالم.

بعد بضع سنوات، كان الملحق الثقافي في سفارة وارسو في واشنطن مشغولاً بالتحضير لحفلات موسيقية ومعارض عن الفن البولندي؛ قيل إنّه ليس شيوعياً. اشتغلت بين عامي ١٩٤٥ و١٩٥١ كاتباً مستقلاً في بولندا في البداية، ثم ملحقاً ثقافياً، أولاً في واشنطن ولاحقاً في باريس، وفي النهاية انشققت عن حكومة وارسو.

قد يسأل قارئ، «كيف يمكن لك أن تكون موظفاً دبلوماسياً في تلك الحكومة إن لم تكن عضواً في الحزب؟»، يكمن الجواب في مسألتين؛ أولاً: في حقيقة أن التغيير السياسي تطوّر في كل واحدة من الديمقراطيات الشعبية بدرجات مختلفة (يمكن لـ جان ماساريك في تشيكوسلوفاكيا أن يكون ليس مجرد ملحق عادي فحسب، بل وزيراً للخارجية)؛ وثانياً: في حقيقة إن الكتّاب في الديمقراطيات الشعبية ينتمون إلى الطبقة الجديدة المميزة. كان يُعتقد أن تعيين الكتّاب في مناصب دبلوماسية سوف يخلق انطباعاً جيداً في الخارج. قد يتابع قارئي الكلام، «نعم، يمكنني رؤية ذلك. لكن ماذا عنك أنت، لماذا وافقت على الخدمة؟ من أجل المال؟» كلا. أنا لست قدّيساً، لكن الذين يعرفونني يدركون أن احتياجاتي متواضعة، وأنّني لست مسرفاً في متعي، ما عدا في حبّ الكتب. وافقت على الخدمة ليس لأسباب مادية، بل من خلال الاقتناع.

ندخل هنا إلى المشاكل التي تشكّل موضوع هذا الكتاب. إن عالم اليوم ممزق إرباً بسبب نزاع كبير؛ وليس نزاعاً فقط، بل معركة شرسة

للسيطرة على العالم. لا يزال كثير من الناس يرفضون الاقتناع بأنّ ثمة طرفين فقط، وبأن الخيار الوحيد يكمن بين الالتزام التام بإحدى المنظومتين أو الالتزام التام بالأخرى. يمكن لك أن تقول عن مثل هؤلاء الناس إنّهم غير عمليين إن شئت؛ لكن سيكون من الخطأ التعامل مع آمالهم بازدراء. هؤلاء الذين ظنوا أنّه ربما كان بإمكانهم النجاح، بينما هم لا يزالون داخل الكتلة الشرقية، في البقاء متحررين من هيمنة الفكر التقليدي المطلقة والحفاظ على بعض درجات حرية التفكير، قد هُزموا. هُزم قادة الفلاحين، وهُزم ماساريك، وهُزم الاشتراكيون الذين حاولوا التعاون، وهُزم رايك في هنغاريا، وغومولكا في بولندا.

لغتي الأم، أو العمل بلغتي الأم، هو بالنسبة إليّ أهم شيء في الحياة. وبلادي، حيث يمكن لما كتبته أن يُطبع ويصل إلى الجمهور، تقع ضمن الإمبراطورية الشرقية. كانت كل غايتي وهدفي الحفاظ على حرية التفكير ضمن مجالي الخاص؛ سعيت بوعي ومعرفة تامّة إلى تسخير إمكاناتي لتحقيق هذا الهدف. خدمت في الخارج لأنّني بهذه الطريقة أرتاح من الضغط المباشر، ويمكن للمواد التي أرسلها إلى ناشريّ أن تتمتع بجرأة أكبر من تلك التي يمكن لزملائي العمل بها في الوطن. لم أرغب في أن أصبح مهاجراً وبالتالي أتخلى عن كامل فرصة أن يكون لي يد في ما يحدث في بلادي. كان سيأتي الوقت الذي سأُجبر فيه على الاعتراف بأنّني قد هُزمت.

لفهم مجريات الأحداث في أوروبا الشرقية والوسطى خلال السنوات الأولى التي تلت الحرب، يجب إدراك أنّ الظروف الاجتماعية ما قبل الحرب تطلّبت إصلاحات شاملة. ويجب الفهم أبعد من ذلك أن الحكم النازي قد سبب تفكّكاً عميقاً لنظام إدارة الأمور القائم. في مثل هذه الظروف، كان الأمل الوحيد هو تأسيس نظام اجتماعي يجب أن يكون جديداً، لكن ليس نسخة عن النظام الروسي. وهكذا فإنّ ما خُطط له في

موسكو ليكون خطوة على الطريق إلى العبودية، قد قُبل طواعيةً في البلدان المعنية التي اعتبرت أنه بهذه الطريقة سيكون هناك تقدّم حقيقي. تمسك الناس بالوهم عندما لم يكن هناك أي شيء آخر للتمسك به.

يمتلك 'النهج' وهو الـ ديامات ـ أي المادية الجدلية[1] كما قُدمت من قبل لينين وستالين ـ جاذبيةً مغناطيسية قويّة على الناس في الوقت الحاضر. تكلّم الشيوعيون في الديمقراطيات الشعبية، عن «إيمان جديد»، وقارنوا نموّه بنمو المسيحية في الإمبراطورية الرومانية. تأسست في فرنسا مجموعة من القساوسة ـ العمال، مارسوا الأعمال العادية في المصانع وجلبوا الإنجيل إلى جماهير العمال أثناء مشاركتهم بشكل كامل في ظروف حياتهم. تخلّى عدد كبير من هؤلاء الناس عن الكاثوليكية واعتنقوا الشيوعية. يوضح هذا المثال شدّة الصراع العقائدي الذي يحدث اليوم. ولنتذكر أنه في الديمقراطيات الشعبية فإن غسيل الدماغ يُطبّق من قبل كامل سلطة الدولة.

واصلت الجدال على مدى سنوات عديدة مع أصدقائي الذين استسلموا تدريجياً إلى التأثير السحري لـ **الإيمان الجديد**. واستمر الجدل داخل عقلي أيضاً ـ والحقيقة أنه كان أكثر من جدل، باعتبار أن تلك الكلمة لا تعبّر عن الضغط العاطفي الذي عانيته. وبينما كانت المراكز العصبية الأساسية للبلاد تقع بالتدريج تحت سيطرة موسكو، أُجبرت على التخلّي عن معتقداتي الفلسفية واحدة تلو الأخرى، حتى أحافظ على نفسي من الإلقاء بها في هاوية الجحيم. الجحيم بالنسبة إليّ كان المنفى، وهو الأسوأ من بين كل المصائب، لأنه يعني العقم والخمود.

وجدت نفسي في النهاية قد وصلت إلى النقطة التي يجب فيها اتخاذ

---

(١) الديالكتيكية. (م)

خيار نهائي. كان ذلك عندما بدأ تطبيق «الواقعية الاشتراكية» في بولندا. لم يكن هذا الأمر مجرّد نظرية جمالية، كما قد يظن بعضهم، حيث يُجبر الكتاب والرسّامون والموسيقيون والمنتجون المسرحيون على الالتزام. على العكس، إنّه يشمل ضمناً كامل العقيدة اللينينية ـ الستالينية. إن لم يُجبر الكتّاب والرسامون على أن يكونوا أعضاء في الحزب، فذلك لأنّ مثل هذه الخطوة غير ضرورية، ما داموا يتصرّفون بما يتوافق مع «الواقعية الاشتراكية»، فهم تلقائياً، وبشكل حتمي، يدرجون ضمن أتباع ستالين. «الواقعية الاشتراكية» هي شيء أكثر من مجرد مسألة ذوق، من تفضيل نوع من الموسيقى أو الرسم على نوع آخر. إنّها تهتم بالمعتقدات التي تكمن في أساس الوجود البشري. في مجال الأدب تحرّم ما هو في أي عصر مهمة الكاتب الجوهرية؛ أن ينظر إلى العالم من وجهة نظره الخاصة المستقلة، وأن يقول الحقيقة كما يراها، وهكذا يرصد ويتابع عن كثب ما هو في مصلحة المجتمع ككل. إنّها تعِظ بسلوك لائق من الشك في ما يتعلق بنظام أخلاق رسمي مجرد، إلا أنها تحتكر إنتاج الحكم على القيم معتمدة على مصلحة الديكتاتورية. غرقت معاناةُ البشر في ضجيج الأبواق: الأوركسترا في معسكر الاعتقال؛ وأنا كشاعر، كان مكاني قد رُسم لي بين الصفوف الأولى لعازفي الكمان.

انظر إذاً، وبشكل حيادي، إلى مشكلتي. في وطني بولندا هناك أصدقائي وأقاربي والمسارح التي كانت تُنتج ترجماتي لمسرحيات شكسبير، والناشرون الجاهزون لطباعة ما أكتبه. وفوق كل هذا، بلدي أنا ولغتي الأم. وما يكون الشاعر الذي لم يعد لديه لغة؟ كل هذه الأشياء كانت لي، إن وافقتُ على دفع الثمن: الطاعة.

يمكن فهم اللحظة الحقيقية التي قرّرت فيها الانشقاق عن الكتلة الشرقية، من وجهة نظر سيكولوجية، بأكثر من طريقة واحدة. من الخارج، من السهل التفكير بمثل هذا القرار كنتيجة أوليّة لشخص يكرهُ

الاستبداد. لكن في الحقيقة، ربما يكون قد انبثقَ من دوافع عدة، لا تتساوى كلها في السمو. لم ينبع قراري من عمل العقل الواعي، لكن من تقزّز وتمرّد المعدة. يمكن للإنسان أن يقنع نفسه، بكل أنواع الأسباب المنطقية، بأنه سوف يفيد صحته بشكل جم إن ابتلع ضفادع حية؛ وهكذا، وقد اقتنع منطقياً، سوف يبتلع الضفدع الأول، ثم الثاني؛ لكن عند الثالث فإن معدته سوف تثور. وبالطريقة ذاتها، فإن التأثير المتزايد للعقيدة على آلية تفكيري تصاعدَ في مواجهة مقاومة طبيعتي بأكملها.

قرار رفض أي تواطؤ مع استبداد الشرق ـ هل يكفي هذا لإرضاء ضمير الإنسان؟ لا أظن ذلك. ربحت حريتي؛ لكن يجب ألاّ أنسى أنني كنت في كل يوم مهدداً بفقدانها ثانية. لأنه في الغرب يختبر المرء أيضاً الضغط ليكون متكيفاً ـ متكيفاً مع نظام معاكس للنظام الذي هربت منه. الفرق هو أنه في الغرب يمكن للمرء مقاومة مثل هذا الضغط من دون أن يتهم أنه مذنب بخطيئة أخلاقية.

يأخذ كتابي القارئ إلى عالم مسكون بمثقفي وارسو وبراغ وبوخارست وبودابست. وهو عالم مألوف بالنسبة إليّ، لكن قد يبدو له غريباً وربما شاذاً. أنا أحاول أن أشرح كيف يعمل العقل البشري في الديمقراطيات الشعبية. وإن كان بمقدوري كتابة هذا الكتاب، فذلك لأنّ النظام الذي اخترعته موسكو بدا، ولا يزال يبدو بالنسبة إليّ، غريباً بشكل لا نهائي. أي حضارة بالمطلق، إن نظرَ إليها المرء بافتراض بساطة ساذجة (كما نظر سويفت إلى الحضارة الإنكليزية في أيامه)، سوف تقدّم عدداً من الخصائص الغريبة يقبلها المرء كشيء طبيعي تماماً لأنها مألوفة. لكن لا يبدو هذا الأمر أكثر وضوحاً في أي مكان آخر مثلما هو في الحضارة الجديدة للشرق، والتي شكّلت حياة ثمانمائة مليون إنسان. نحن كما أظن، بالكاد بدأنا في فهمها، وفي السنوات القادمة سوف تُخصص آلاف الكتب لدراسة هذه الظاهرة المذهلة الفظيعة.

هذا الكتاب هو في الوقت ذاته ميدان معركة، حيث أعطيت فيه شكلاً لمعارَكي مع العقيدة التي نبذتها. وهو لذلك يوضح طريقتي في الكتابة؛ أعطيت العدو أسلحته، وتابعت نقاشاته، وحتى إنّني في بعض الأوقات قلّدت طريقته في فهم الأمور. بكلمات أخرى، أسعى إلى إعادة خلق المراحل التي يفسح فيها العقل المجال للإكراه من الخارج، وتعقّب الطريق الذي جرى اقتياد الناس فيه في الديمقراطيات الشعبية نحو الإيمان القويم.

## الفصل ١

# قرص مورتي - بينغ

لم يدرك سكان دول أوروبية عدة حتى نحو منتصف القرن العشرين فقط، وبشعور غير مستحبّ بشكل عام، أن كتب الفلسفة المعقّدة والعويصة يمكن أن تؤثر في مصيرهم بشكل مباشر. قوّتهم وعملهم وحياتهم الخاصة بدأت كلها بالاعتماد على هذا القرار أو ذاك من مبادئ مثيرة للجدل كانوا حتى ذلك الوقت لا يُعيرونها أدنى اهتمام. كان الفيلسوف في نظرهم دائماً نوعاً من حالم لا يؤثر شطحه في الواقع. شطب الإنسان العادي الفلسفة من حياته على أنها غير عملية وغير ذات فائدة بالمطلق، على الرغم من أنه كان معرّضاً لها فيما مضى. لذلك كان يمكن للقسط الأكبر من العمل الفكري الماركسي أن يعبر كمجرد تنويع آخر على هواية عقيمة. أدركت قلة من الأفراد فقط الأسباب والنتائج المحتملة لهذه اللامبالاة العامة.

في عام ١٩٣٢ ظهر كتابٌ مثير للاهتمام في وارسو. كان رواية من مجلدين عنوانها: شره. مؤلّفها هو ستانيسلاف إغناسي فيتكيفيتش، وهو رسام وكاتب وفيلسوف شيّد نظاماً فلسفياً مشابهاً لفلسفة ليبنيتز التي سمّاها الـ مونادولوجي[1]. وكما في روايته السابقة: وداعاً للخريف،

(١) فيلسوف وعالم رياضيات ألماني، اعتبر أن العالم مؤلّف من كائنات وحيدة الخلية مستقلة، سمّاها موناد. (م)

كانت لغته صعبةً مليئة بكلمات مُستحدثة. وصف وحشي لمشاهد جنسية متناوبة مع صفحات كاملة من مناقشات لـ هوسرل وكارناب وفلاسفة معاصرين آخرين. بالإضافة لذلك، لا يمكن للمرء أن يعرف إن كان المؤلف جاداً أم هزلياً؛ وبدا الموضوع كأنه عبارة عن فانتازيا خالصة.

تقع أحداث الكتاب في أوروبا، وبشكل خاص في بولندا، في المستقبل القريب أو حتى في الزمن الحاضر، وذلك يعني في الثلاثينيات أو الأربعينيات أو الخمسينيات. الفئة الاجتماعية التي يصفها هي من الموسيقيين والرسامين والفلاسفة والأرستقراطيين والضباط من الرتب العليا. كان كل الكتاب عبارة عن دراسة للتفسّخ والانحلال: الجنون والموسيقى الناشزة؛ الانحرافات الجنسية؛ الاستخدام واسع الانتشار للمخدرات؛ الفكر المعطل؛ الاعتناق الزائف للكاثوليكية؛ وشخصيات معقّدة مضطربة العقل. سيطر هذا الانحلال في وقت قيل فيه إن الحضارة الغربية مهددة بجيش من الشرق، جيش سينو ـ منغولي كان يسيطر على كل المناطق الممتدة من المحيط الهادئ حتى بحر البلطيق.

إن أبطال فيتكيفيتش غير سعداء كونهم لا يمتلكون أي إيمان ولا يشعرون بأي معنى في عملهم. امتدّ هذا الجو من الانحطاط واللاجدوى على كامل البلاد. وظهرت في ذلك الوقت أعداد كبيرة من الباعة المتجولين يبيعون أقراص دواء مورتي ـ بينغ. ومورتي ـ بينغ هو فيلسوف منغولي نجح في إنتاج وسائل عضوية لنقل «فلسفة الحياة». «فلسفة الحياة» هذه التي اخترعها مورتي ـ بينغ، والتي تشكّل قوة الجيش السينو ـ منغولي، كانت محتواة في أقراص دواء بصيغة شديدة التكثيف. أي إنسان يستخدم هذه الأقراص يتغيّر كلياً. يصبح رائق المزاج وسعيداً. تبدو المشاكل التي كان يواجهها حتى ذلك الحين فجأة وكأنها صارت سطحية وغير مهمة. يبتسم بتسامح لهؤلاء الذين ما زالت تقلقهم. تأثيرها الأكبر كان في كل التساؤلات التي تتعلّق بالصعوبات الوجودية المستعصية على

الحل. يصبح الإنسان الذي يبتلع قرص مورتي ـ بينغ محصّناً ضد أي شأن ميتافيزيقي. الشطط الذي يقع فيه الفن عندما يبحث الناس عبثاً عن وسائل لإشباع جوعهم الروحي لم يكن إلا حماقات عفا عليها الزمن بالنسبة إليه. لا يعود يعتبر أن اقتراب الجيش السينو ـ منغولي مأساة تهدّد حضارته. يعيش بين مواطنيه كفرد وافر الصحة محاط بالمجانين. تزايد عدد الناس الذين بدأوا يتعاطون علاج مورتي ـ بينغ، وهدوءهم الناتج عنه تعارض بحدة مع توتر محيطهم.

في الختام، وببضع كلمات: أدّى نشوب الحرب إلى التقاء جيوش الغرب مع جيوش الشرق. في اللحظة الحاسمة، تماماً قبل المعركة الكبرى، استسلم قائد جيش الغرب للعدو، وفي المقابل فقد قطع رأسه، وإن تم ذلك بكامل الاحترام. احتل جيش الشرق البلاد، وبدأت حياة جديدة، حياة مورتي ـ بينغ. دخل الآن أبطال الرواية، والذين كانوا سابقاً معذبين بـ «نهم» الفلسفة، في خدمة المجتمع الجديد. بدلاً من كتابة الموسيقى الناشزة للأيام الماضية، ألّفوا الألحان العسكرية والأناشيد. بدلاً من رسم اللوحات التجريدية كما كانوا سابقاً، تحولوا إلى رسم صور مفيدة للمجتمع. لكن بما أنه لم يكن بإمكانهم التخلّص من شخصياتهم السابقة تماماً، فقد أصيبوا بفصام الشخصية.

كثير بالنسبة للرواية. عبر المؤلف عن قناعاته بأن الدين والفلسفة والفن تعيش أيامها الأخيرة. ومع ذلك فقد وجد الحياة من دونها عديمة الجدوى. في أيلول/ سبتمبر ١٩٣٩ وقد علم أن الجيش الأحمر قد عبر حدود بولندا، انتحر عن طريق شرب فيرونال وقطع معصميه.

اليوم تحققت رؤيا فيتكيفيتش بأدق تفاصيلها في كافة أنحاء قسم كبيرٍ من القارة الأوروبية. ربما غروب الشمس، ورائحة الأرض، والمتع اليومية الصغيرة، والنسيان الذي يجلبه ذلك العمل يمكن أن يخفف

بعض الشيء التوتر الذي خلقته عملية الإنجاز هذه. لكن تحت هذا النشاط والحركة للحياة اليومية كَمَنَ وعي مطّرد لخيار نهائي يجب اتخاذه. على المرء إما أن يموت (جسدياً أو روحياً)، أو الخيار الآخر هو أن يولد من جديد وفق طريقة مقرّرة، وعلى وجه التحديد بأخذ أقراص مورتي - بينغ. مال الناس في الغرب غالباً إلى وصف مجموع البلدان التي تحوّلت إلى **الإيمان الجديد** بأوصاف تتعلق بالقوة والإكراه. وهذا خاطئ. كان هناك توق عام للانسجام والسعادة يكمن أعمق من الخوف العادي ومن الرغبة في الهرب من البؤس والهلاك الجسدي. يمثل مصير أشخاص غير متماسكين ومن غير الديالكتيكيين مثل فيتكيفيتش إنذاراً لكثير من المثقفين. كان يرى في كل ما حوله، في شوارع المدينة، الظلال المذعورة لمنفيين داخليين، عنيدين وغير مشاركين، تتآكل بفعل الكراهية.

لفهم وضع الكاتب في بلد من بلدان الديمقراطيات الشعبية على المرء أن يسعى لاكتشاف أسباب نشاطه وأن يتساءل عن كيفية احتفاظه بتوازنه. مهما قيل، فقد قدّم **الإيمان الجديد** إمكانيات عظيمة لحياة فعالة وإيجابية. كانت أقراص مورتي - بينغ أكثر إغراءً للمثقف منها للفلاح أو العامل. كان **الإيمان الجديد** بالنسبة للمثقف شمعة دار حولها مثل فراشة. وفي النهاية، رمى نفسه في اللهب من أجل مجْدِ البشرية. علينا ألا نستخفَّ بهذه الرغبة في التضحية بالذات. سال الدم بغزارة في أوروبا خلال الحروب الدينية، وكل من اعتنق **الإيمان الجديد** كان يسدد قسطه من هذا التقليد الأوروبي. نحن معنيون هنا بأسئلة أكثر أهمية من مجرد الإكراه.

سأحاول أن أفهم التوق عميق الأغوار لهؤلاء البشر وأن أتكلم عنهم كما لو أنه يمكن للمرء حقاً أن يحلل بدقة ماهية الدم الدافئ واللحم بحد ذاتهما بالنسبة للإنسان. إن كان عليَّ أن أصف الأسباب التي تدفع

بشخص ما ليصبح ثائراً فلن أكون لا طليق اللسان ولا مقيداً بما فيه الكفاية. أعترف أنني أكن كثيراً من الإعجاب للذين يحاربون الشر، سواء كان خيارهم للغايات وللوسائل صحيحاً أم خاطئاً. ومع ذلك فإنني سوف ألفت النظر إلى المثقفين الذين كيّفوا أنفسهم، وكذلك حقيقة أنه تم تكييفهم ولم يكونوا ثوريين أصليين بطريقة لا تنتقص من حميتهم وحماسهم الجديد المكتسب.

هناك، كما أعتقد، بضعة مفاهيم رئيسة يمكن أن تقودنا لفهم لماذا قبلوا أقراص مورتي - بينغ.

## الفضاء

تميّز المجتمع الذي صوّره فيتكيفيتش بحقيقة أن الدين توقف فيه عن الوجود كقوة. وحقيقي أن الدين فقد سيطرته منذ أمد بعيد على عقول الناس ليس في الديمقراطيات الشعبية فقط، بل كذلك في كل مكان آخر. ما دامت أفضل عقول مجتمع ما مشغولة بأسئلة لاهوتية، فإنه من الممكن الحديث عن دين معين كطريقة للتفكير للكائن الاجتماعي ككل. كل المسائل الأكثر أهمية للناس أُشير إليها وتمت مناقشتها في وقتها. لكن هذا الأمر ينتمي إلى حقبة محتضرة. لقد وصلنا عبر مراحل سهلة إلى النقص في وجود نظام عام للأفكار يمكن أن يوحّد الفلاح الذي يقطع قشه، والطالب الذي يركن إلى المنطق الشكلي، والميكانيكي الذي يعمل في مصنع سياراتٍ. برز من هذا النقص الشعور المؤلم بالانفصال أو الاستلاب الذي اضطهد «مبدعي الثقافة». جرى استبدال الدين بالفلسفة، والتي بدورها تاهت في عوالم تزداد بعداً عن الإنسان العادي. إن مناقشات أبطال فيتكيفيتش حول هوسرل يمكن لها بشق النفس أن تهم قارئاً بمستوى تعليم أفضل من المتوسط، في حين بقي الفلاحون مرتبطين بالكنيسة عاطفياً وتقليدياً. أصبحت الموسيقى والرسم والشعر

شيئاً غريباً بالكامل بالنسبة للغالبية العظمى من الناس. تطورت نظرية تقول بأن الفن يجب أن يكون بديلاً عن الدين: «مشاعر ميتافيزيقية» سوف يُعبّر عنها في «صيغة نقية مضغوطة»؛ وصيغة مثل هذه سرعان ما سيطرت على المضمون.

إن الانتماء إلى الجماهير هو أعظم رغبة بالنسبة إلى المثقف «المنسلخ». بسبب مثل هذه الرغبة القوية، وفي محاولة لإشباعها، تحول كثير منهم، الذين كانوا فيما مضى ينظرون إلى ألمانيا أو إيطاليا للاستلهام، إلى **الإيمان الجديد**. في الحقيقة فإن البرنامج الشمولي اليميني المتطرف كان بائساً بامتياز. الجائزة الوحيدة التي قدّمها أتت من *الدفء* الجمعي: حشود، وجوه حمراء، أفواه مفتوحة بالصياح، عروض عسكرية، أذرع تلوح بعصي؛ لكن القليل من الرضا العقلي. لا المذاهب العنصرية، ولا كره الأجانب، ولا تمجيد التقاليد الوطنية للمرء يمكن أن يطمس الشعور بأن البرنامج بأكمله قد ارتُجل للتعامل مع المشاكل الراهنة. إلا أن مورتي ـ بينغ كان مختلفاً. إنه يرسي أساسات علمية. وفي الوقت ذاته، يتخلّص من كل بقايا الماضي. لم يعد هناك مصداقية للفلسفة ما بعد الكانطية بسبب نأيها عن حياة البشر؛ صُمم الفن لهؤلاء الذين، وبسبب كونهم لا يؤمنون بأي دين، لا يجرؤون على الاعتراف أن السعي إلى «المطلق» عبر تجاور الألوان والأصوات هو تفكير جبان وغير مقنع؛ والعقلية نصف السحرية ونصف الدينية للفلاحين ـ وهذه تم استبدالها بنظام *أحادي*، وبلغة أحادية للأفكار. يمكن الآن لسائق الشاحنة وعامل المصعد في شركة مطبوعات قراءة الكلاسيكيات الماركسية نفسها التي يقرأها المدير وهيئة الكتّاب. يمكن للعامل المياوم وللمؤرخ الوصول إلى تفاهم على هذا الأساس من القراءة المشتركة. من الواضح أن الفروقات التي يمكن أن توجد بينهما في المستوى العقلي ليست أصغر من تلك التي كانت تفرّق اللاهوتي عن حدّاد القرية في العصور الوسطى.

إلا أن المبادئ الجوهرية عالمية؛ الانشقاق الروحي العظيم قد جرى محوه. وخدت المادية الدياليكتيكية الجميع، وصاغت الفلسفة (مثل الدياليكتيكية) مرة أخرى أنماط الحياة. بُدئ بالإشارة إليها بالاحترام الذي يدخره المرء للقوة التي تعتمد عليها الأشياء المهمة: خبز وحليب لأطفاله، سعادته الخاصة وأمانه. صار المثقف مرة أخرى *مفيداً*. هذا المثقف الذي ربما كان يقوم بتفكيره وكتابته في أوقات فراغه القليلة بعيداً عن عمله المأجور في البنك أو مكتب البريد، وجد الآن مكانه المناسب على الأرض. أُعيد الآن إلى المجتمع، في حين أن رجال الأعمال والأرستقراطيين والتجار الذين كانوا يعتبرونه فيما مضى شخصاً متخبطاً غير ضار أصبحوا هم المطرودين. الحقيقة أنه سيكون من دواعي سرورهم إن وجدوا عملاً كعمال في غرف تعليق المعاطف وأن يمسكوا معطف موظف سابق قالوا عنه، في زمن قبل الحرب، «يبدو أنه يكتب». ومع ذلك علينا ألا نبالغ في تبسيط حالة إرضاء الطموح الشخصي؛ إنها لا تتجاوز كونها الإشارات المرئية الخارجية للمنفعة الاجتماعية، رموزاً للتقدير تقوّي مشاعر المثقفين بـ *الانتماء*.

## العبث

على الرغم من أنه يندر الكلام عن دوافع ميتافيزيقية يمكن أن تقود إلى تغيير كامل لخيارات الناس السياسية، إلا أن مثل هذه الدوافع موجودة وتُمكن ملاحظتها لدى البشر الأكثر ذكاء وحساسية. دعونا نتخيّل يوماً ربيعياً في مدينة تقع في بلد ما يشبه ذاك الذي تم وصفه في رواية فيتكيفيتش. أحد أبطاله يتمشى. تعذبه فكرة حول ماذا يمكن أن نسمي حالة *امتصاص* العبث. ما هي المميزات الخاصة لحيوات الناس الذين يعبرهم، للهرج الذي لا معنى له، والضحك، والسعي وراء المال، والنزعات الحيوانية الغبية؟ يمكن له باستخدام القليل من الذكاء تصنيف

العابرين وفق أنماط؛ يمكن له أن يخمن حالتهم الاجتماعية، وعاداتهم ومناصبهم. يمكن للحظة خاطفة أن تكشف طفولتهم وشبابهم وشيخوختهم، ثم يختفون. إن دراسة نفسية دقيقة لشخص عابر بعينه بمقارنته مع شخص آخر هي دراسة لا معنى لها. إن دخول المرء إلى داخل عقول هؤلاء الناس، يمكنه من اكتشاف هراء أكبر. إنهم غير مدركين بالمطلق لحقيقة أن لا شيء يخصهم وحدهم، وأن كل شيء هو جزء من تشكيلهم التاريخي؛ مناصبهم وثيابهم وإيماءاتهم وتعابيرهم ومعتقداتهم وأفكارهم. إنهم قوة العطالة الجسدية، ضحايا الوهم بأن كل إنسان موجود كفرد مستقل. يا ليتهم كانوا على الأقل أرواحاً، كما علمتنا الكنيسة، أو مونادات وفق ليبنيتز! إلا أن هذه المعتقدات اختفت. ما تبقّى هو نفور من النظرة إلى الحياة كجزيئات صغيرة، من العقلية التي تعزل كل ظاهرة، مثل الأكل، والشرب، واللبس، وكسب المال، والزنا. وما الذي يكمن أبعد من هذه الأشياء؟ هل يجب على مثل هذه الحالة أن تستمر؟ ولمَ عليها الاستمرار؟ مثل هذه الأسئلة مرادفة تقريباً لما يعرف بكراهية البرجوازية.

ليبزغ إنسان جديد، إنسان يغيّر العالم بدلاً من الاستسلام له. فليبتكر صيغة تاريخية، بدلاً من الرضوخ لعبوديته. وهكذا فقط يستطيع أن يخلص عبثية وجوده الجسدي. لا بد أن الإنسان خلق ليفهم هذا الشيء، بالقوة وبالمعاناة. ولماذا يجب ألا يعاني؟ عليه أن يعاني. لمَ لا يتم استخدامه كسماد، طالما بقي شريراً وغبياً؟ إن كان على المثقف أن يعرف عناء التفكير، لمَ عليه أن يجنّب الآخرين هذا الألم؟ لمَ عليه أن يحمي هؤلاء الذين هم حتى الآن يشربون ويقهقهون ويطلقون النكات التافهة، ويجدون الحياة جميلة؟

تلمع عينا المثقف بالبهجة على اضطهاد البورجوازية، وعلى عقلية البورجوازي. إنها مكافأة دسمة مقابل الخزي الذي شعر به عندما كان

عليه أن يكون جزءاً من الطبقة الوسطى، وعندما كان يبدو أن ليس هناك مهربٌ من حلقة الولادة والموت. لديه الآن لحظات من الشمل المطلق عندما يرى الإنتيليجينسيا، غير المعتادة على التفكير القاسي الصارم، وقد علقت في صنارة الثورة. إن الفلاحين، الذين يطمرون الذهب المكنوز ويستمعون إلى إذاعات أجنبية عبر الحدود على أمل أن الحرب سوف تجنّبهم المزارع التعاونية، لن يكونوا حلفاء له بالتأكيد. ومع ذلك فهو طيب القلب وجيد؛ إنه صديق للبشرية. ليس البشرية كما هي، لكن كما ينبغي أن تكون. إنه لا يختلف عن المحقق في العصور الوسطى؛ لكن في حين يعذّب الثاني الجسد معتقداً أنه بذلك ينقذ روح الفرد، يعمل مثقف **الإيمان الجديد** لخلاص الوجود البشري ككل.

## الضرورة

ميزته الرئيسة هي خوفه من التفكير بنفسه. ليس مجرد خوفه من الوصول إلى نتائج خطيرة. إنه يجسّد الخوف من العقم، ما دعاه ماركس 'بؤس الفلسفة'. دعونا نعترف أن الإنسان ليس أكثر من أداة في أوركسترا يديرها ملهم التاريخ. في هذا السياق فقط يكون للنوتات التي ينتجها أي مغزى. وإلا فإن أعظم عزف انفرادي يقوم به يصبح ببساطة لهواً راقياً.

لسنا معنيين بالسؤال حول كيف يجد المرء الشجاعة لمعارضة الغالبية. ما يعنينا بدل ذلك سؤال أكثر تأثيراً: هل يمكن للمرء أن يكتب بشكل جيد خارج هذا المجرى الوحيد الحقيقي الذي تنبع حيويته من تناغمه مع القوانين التاريخية وديناميكية الحياة؟ قد تكون أشعار ريلكه ممتازة، لكن إن كانت كذلك فإن هذا يعني أنه لا بد من وجود سبب ما لها في أيامه. لا يمكن أبداً للشعر التأملي، مثل شعره، أن يظهر في ديمقراطية شعبية، ليس الأمر بسبب صعوبة نشره فقط، لكن لأن دافع الكاتب لكتابته سوف يدمر من جذوره ذاتها. الشروط الموضوعية لمثل

هذا الشعر قد اختفت، والمثقف الذي أتحدث عنه ليس ذاك الذي يؤمن بالكتابة من أجل وضعها في أدراج المكتب. إنه يشتم ويبأس بسبب الرقابة ويطالب بثقة النشر. بل إنه، في الوقت ذاته، مرتاب بعمق من الأدب غير المرخّص. حتى رخصة النشر التي تلقاها هو نفسه لا تعني أن المحرر يقدّر المزايا الفنية لكتابه، وكذلك لا تعني أنه يتوقع أن يمتلك شعبية عند الجمهور. هذه الرخصة هي ببساطة إشارة إلى أن الكاتب الذي ينالها يعكس تحول الواقعية بدقة علمية. تقوم المادية الديالكتيكية وفق النسخة الستالينية بعكس وتوجيه هذا التحول على حد سواء. إنها تخلق ظروفاً اجتماعية وسياسية حيث يتوقف الإنسان عن التفكير والكتابة بطريقة تخالف الطريقة الضرورية. إنه يقبل هذه الـ «يجب» لأن لا شيء يستحق الوجود خارج حدودها. تكمن هنا مخالب الديالكتيكية. لا يستسلم الكاتب لهذه الـ «يجب» لمجرد خوفه على حياته الخاصة. إنه يخاف على شيء أغلى من ذلك بكثير؛ على أهمية عمله. يعتقد أن كل سبل الفلسفة تؤدي إلى درجة ما من هوس الكتابة. إن أي شخص يقع في قبضة مخالب الديالكتيكية مجبر على الاعتراف بأن تفكير الفلاسفة المستقلين، غير المدعومين بإشادة السلطات، هو محض هراء. إن كان الأمر كذلك، فإن مجمل جهود المرء يجب أن توجّه باتجاه اتباع الخط، وليس هناك نقطة ما حيث يمكن له أن يتوقف.

لا يقارن ضغط ماكينة السلطة مع ضغط نقاش مفحم. حضرت فعاليات مؤتمرات الفنانين في بولندا حيث نوقشت نظريات الواقعية الاشتراكية أول مرة. كان تصرف الحضور تجاه المتحدثين الذين يقدمون التقارير المطلوبة عدائياً بلا ريب. اعتبر كل شخص أن الواقعية الاشتراكية هي نظرية مفروضة سيكون لها، مع سيطرة الفن الروسي، نتائج يرثى لها. فشلت محاولات تحريض النقاش. بقي المستمعون صامتين. ومع ذلك، عادة ما يبدأ أحد الفنانين الجريئين بهجوم، مليء بتهكّم مكبوت،

مع صمت وتأييد ضمني واضح من كل الحضور. سوف يُسحق حتماً بواسطة حجج أهم بالإضافة إلى تهديدات عملية ضد المستقبل المهني لفرد غير منضبط. نظراً لظروف النقاش المقنع بالإضافة إلى مثل هذه التهديدات، سوف يحدث التحوّل المطلوب. هذا أمر مؤكد رياضياً.

لم تكن وجوه المستمعين في مثل تلك المؤتمرات مقروءة تماماً، لأن فن إخفاء مشاعر المرء كان قد اكتمل إلى حد كبير. ومع ذلك يمكن للمرء أن يدرك الموجات المتلاحقة للمشاعر: الغضب، الخوف، الذهول، الارتياب، وأخيراً الاكتراث. تولد لديّ الانطباع بأنني أشارك في مظاهرة للتنويم المغناطيسي الجماعي. يمكن لهؤلاء الناس أن يضحكوا ويلقوا النكات فيما بعد في الكوريدورات. إلا أن الرمح كان قد ضرب حيث يجب، ومن الآن فصاعداً سوف يحملونه معهم دائماً أينما ذهبوا. هل كنت أعتقد أن ديالكتيكية المتحدثين كانت مفحمة؟ أجل، طالما لم يكن هناك نقاش جوهري للمنهجية. لا أحد بين هؤلاء الحضور كان جاهزاً لمثل هذا النقاش. من المحتمل أن يكون النقاش حول هيغل، الذي لم يكن جمهور قرّائه من الرسامين والكتّاب. علاوة على ذلك، حتى لو رغب أحدهم في بدئه، فسوف يتم إسكاته، لأن مثل هذا النقاش مسموح به ـ وحتى عندها بخوف ـ في الدوائر العليا للحزب فقط.

تكشف مؤتمرات الفنانين تلك التفاوت بين أسلحة الديالكتيكيين وأسلحة خصومهم. تشبه المقارنة بينهما المقارنة بين جندي مشاة ودبابة. ليس أن كل ديالكتيكي ذكي جداً أو أنه تلقى تعليماً رفيعاً، لكنه يغني كل بياناته بأفكار متراكمة للمعلمين والمعلقين عليهم. إن كانت كل جملة يتحدث بها مكثفة وغنية وفعالة، فإن ذلك ليس بسبب جدارته الخاصة، إنما مرد ذلك إلى الكلاسيكيات التي درسها. مستمعوه عزّل. يمكن لهم بالتأكيد اللجوء إلى الحجج الناتجة عن مراقبتهم للحياة، غير أن مثل هذه

الحجج سيئة بقدر سوء أي شك في المنهجية الأساسية. إن الديالكتيكي يلمع أمام جمهوره في لقاءات لا تعد ولا تحصى للمنظمات المهنية والمجموعات الشبابية في النوادي والمصانع ومباني المكاتب وأكواخ القرى عبر كامل مساحة أوروبا المهتدية إلى **الإيمان الجديد**. ومما لا شك فيه أنه يخرج بالنصر في مثل تلك اللقاءات.

لا عجب إن شك الكاتب أو الرسام في الحكمة من المقاومة. لو أنه كان واثقاً من أن الفن المعارض للخط الرسمي يمكن أن يمتلك قيمة دائمة، فإنه على الأرجح لن يتردد. سوف يكسب عيشه من خلال بعض الأعمال الأكثر وضاعة ضمن اختصاصه، ويكتب أو يرسم في أوقات فراغه، ولا يقلق أبداً حول نشر أو عرض عمله. لكنه من ناحية ثانية يؤمن أنه في معظم الحالات فإن مثل هذا العمل يمتلك سوية فنية رديئة، وهو في هذا ليس مخطئاً تماماً. كما قلنا سابقاً، اختفت الآن الشروط الموضوعية التي عرفها من قبل. إن الشروط الموضوعية الضرورية لمعرفة قيمة عمل فني ما، كما نعلم، ظاهرة معقدة جداً، تتضمّن جمهور الشخص المعني، وإمكانية التواصل معه، والجو العام، وفوق كل ذلك التحرر من الرقابة الذاتية اللاإرادية. «لا يمكنني الكتابة كما أشتهي»، اعترف لي شاعر بولندي شاب. «لتيار أفكاري الخاص كثير من الروافد، إلى درجة أنني ما إن أكاد أنجح في كبح أحدها، حتى يفيض ثانٍ أو ثالث أو رابع. ما إن أصل إلى منتصف جملة حتى أجد نفسي وقد أخضعتها للنقد الماركسي. أتخيل ما يمكن لِـ س أو ع من الناس أن يقوله عنها، فأغير النهاية».

يبدو الأمر كمفارقة، إنها هذه العنانة الذاتية هي التي تقنع المثقف بأن ذلك النهج وحده هو الصحيح. كل شيء يُثبت أنه صحيح. جدلية: أنا أتوقع أن المنزل سوف يحترق؛ ثم أصب البنزين فوق الموقد. يحترق المنزل؛ تحقق توقعي. جدلية: أتوقع أن قطعة فنية ما تتعارض مع

الواقعية الاشتراكية سوف تكون عديمة القيمة. فأقوم بوضع الفنان في ظروف حيث يكون مثل هذا العمل عديم القيمة. تحقق توقعي.

دعونا نأخذ الشعر كمثال. من البديهي أن هناك شعراً ذا مغزى سياسي. يُسمح للشعر الغنائي بالوجود ضمن ظروف معينة. يجب أن يكون: ١ ـ هادئاً؛ ٢ ـ خالياً من أي عناصر الأفكار التي يمكن أن تنتهك المبادئ الكونية المقبولة (عملياً، تلك المتعلقة بوصف الطبيعة ومشاعر الفرد تجاه الأصدقاء والعائلة)؛ ٣ ـ مفهوماً. وبما أن الشاعر لا يُسمح له بـ *التفكير* في شعره يميل تلقائياً نحو إنجاز قالبه الشعري بالشكل الأمثل، فيتهم بالتمسّك بالشكليات.

ليس الأدب والرسم وحدهما في الديمقراطيات الشعبية هما ما يثبت للمثقف أن الأشياء لا يمكن أن تكون *مختلفة*. إنه يعزّز هذه القناعة بالأخبار التي تتسرّب من الغرب. عالم الغرب هو عالم رواية فيتكيفيتش. عدد الانحرافات الجمالية والفلسفية لا يحصى. الأتباع يقلّدون الأتباع؛ الماضي يقلّد الماضي. يعيش هذا العالم وكأن الحرب العالمية الثانية لم تحدث قط. جموع المثقفين في أوروبا الشرقية يعرفون جيداً هذه الحياة، إلا أنهم يعرفونها كمرحلة من الماضي لا تستحق الالتفات إليها. حتى لو كانت المشاكل الجديدة ظالمة جداً إلى درجة يمكنها أن تحطم عدداً كبيراً من الناس، لكنها على الأقل معاصرة. ولا شك أن الانضباط العقلي والالتزام بالوضوح صفتان لا تقدران بثمن. يفوت باحثي وفناني الغرب ملاحظة العمل الجيد حقاً. الأسماء الجديدة القليلة المشهورة هي لهؤلاء «الديمقراطيين» ـ مراوغة لطيفة في الكلام لصفة 'غير وثني'. بالمختصر، المكافأة على كل الألم هي اليقين بأن المرء ينتمي إلى العالم الجديد المنتصر، على الرغم من أنه غير مريح بالمرة ولا بهيج كما تريد دعايته للمرء أن يظن.

## النجاح

غلّف الغموض الخطوات السياسية التي كانت تقرّر على أعلى مستوى في المركز البعيد، في موسكو. تكلّم الناس همساً عن شخصيات مشهورة. يمكن أن تختفي أمم بأكملها في مساحات شاسعة من أوراسيا من دون أن تخلّف أثراً. ارتفع عديد الجيوش إلى الملايين. أصبح الرعب مفيداً اجتماعياً وفعالاً. حكم الفلاسفة الدولة؛ ليس الفلاسفة بالمعنى التقليدي للكلمة بكل تأكيد، لكن الديالكتيكيين. تعاظم الاقتناع بأنه سوف يتم إخضاع العالم بأكمله. وطبخت الأكاذيب من بذور الحقيقة، واحتُقر العدو البرجوازي غير المثقف فلسفياً بسبب عدم قدرته الموروثة على التفكير. (هلكت الطبقات التي دانتها قوانين التاريخ لأن عقولها مشلولة). تحركت حدود الإمبراطورية بشكل ثابت ومنتظم باتجاه الغرب. صرفت مبالغ لا مثيل لها على البحوث العلمية. حضّر المرء نفسه لحكم كل الناس على الأرض. هل كل هذا صغيراً جداً؟ بالتأكيد هذا يكفي لخلب لب المثقف. وبينما يلاحظ هذه الأشياء، كانت القدرية التاريخية تتجذّر لديه. وربما كان يعترف بتهكّم في لحظات نادرة من الصدق، «سوف أراهن على هذا الحصان. إنه جيد. سوف يحملني بعيداً».

ومع ذلك فإن المريض يمضي وقتاً صعباً عندما تأتي اللحظة التي عليه فيها أن يبتلع قرص مورتي ـ بينغ في *مجمله*. يصبح حطاماً عصبياً إلى درجة يمكن معها أن يسقط مريضاً بشكل فعلي. يعلم أن هذا يعني فراقاً نهائياً عن نفسه السابقة، وعن روابطه السابقة وعاداته. إن كان كاتباً، لن يمكنه أن يمسك القلم بيده. يبدو العالم بأكمله مظلماً ويائساً. دفع حتى الآن ضريبة صغيرة: يصف في مقالاته ورواياته شرور المجتمع الرأسمالي. لكن في النهاية فإن نقد الرأسمالية ليس صعباً، ويمكن فعل ذلك بصدق. النصابون في البورصة، بارونات الإقطاع، الفنانون

الواهمون، والمحرضون على الحروب القومية، هي شخصيات تصلح بسهولة لقلمه. لكن يجب عليه الآن أن يبدأ بِـ *الموافقة*. (يُعرف هذا في علم المصطلحات الفنية بالانتقال من مرحلة الواقعية النقدية إلى مرحلة الواقعية الاشتراكية. حدث هذا في الديمقراطيات الشعبية المؤسسة حديثاً نحو عام ١٩٥٠). إن العملية التي عليه أن يُجريها على نفسه هي عملية أجراها عدد من أصدقائه من قبله، وهي عملية مؤلمة نوعاً ما. هزّوا رؤوسهم بتعاطف، وهم يعلمون بسير العملية وبنتائجها. «لقد سبق لي أن تجاوزتُ الأزمة»، سيقولون بإخلاص. «لكن انظروا كم يعاني. إنه يجلس طوال اليوم في البيت ورأسه بين يديه».

أصعب شيء ينبغي التغلّب عليه هو شعوره بِـ *الذنب*. إن كل إنسان في البلدان التي أتحدث عنها، وبغضّ النظر عن قناعاته، هو جزء من حضارة قديمة. والداه مرتبطان بقوة بالدين، أو على الأقل ينظران إليه باحترام. يُكرِّس كثير من الاهتمام في المدرسة لنشأته الدينية. إن بعض الآثار العاطفية لهذا التدريب المبكر تبقى بحكم الضرورة لديه. في كل الأحوال، يعتبر أن أي ظلم يلحق بأي شخص آخر، أو الكذب أو القتل أو التشجيع على الكراهية هي شرور، حتى لو كانت تستخدم للوصول إلى غايات أسمى. ومن البديهي أيضاً أنه درس تاريخ بلاده. قرأ شعراءها وفلاسفتها السابقين بمتعة وفخر. وهو فخور بمعركة بلاده على مدى قرن من الزمن للدفاع عن حدودها، وبكفاحها من أجل الاستقلال في الحقبات المظلمة للاحتلال الأجنبي. يشعر بوعي أو بغير وعي بولاء مؤكّد لأجداده بسبب تاريخ من الكدّ والتضحية من جانبهم. علاوة على ذلك، فقد جرى تلقينه منذ طفولته المبكرة أن بلاده تنتمي إلى حضارة مستمدة من روما أكثر من كونها من بيزنطة.

الآن، وقد صار يعلم أن عليه عبور بوابة لن يمكنه العودة منها ثانية أبداً، ينتابه شعور بأنه يفعل *شيئاً خاطئاً*. يقول لنفسه إن عليه أن يقضي

على هذا الشعور اللاعقلاني والطفولي. يمكن له أن يصبح حراً فقط من خلال استئصال جذور ما هو ماضٍ بلا رجعة. ومع ذلك فإن المعركة مستمرة. معركة قاسية ـ معركة بين ملاك وشيطان صحيح، لكن أي منهما الملاك وأيّ هو الشيطان؟ يمتلك أحدهما وجهاً مشرقاً يعرفه منذ طفولته ـ لا شك أنه الملاك. لا، لأن هذا الوجه يحمل ندوباً قبيحة. إنه وجه النظام القديم، وجه أخويات الجامعة البلهاء، والسياسيين المعتوهين الخرفين، وجه أوروبا الغربية المتداعي. هذا هو الموت والانحلال. الوجه الآخر قوي ومستقل، وجه الغد الذي يدعونا. ملائكي؟ هذا مشكوك فيه.

هناك الكثير من الكلام عن حب الوطن، عن أن كل شيء على ما يرام، عن التقدّمية، والتقاليد الوطنية، عن تبجيل الماضي. لكن لم يكن أحد بهذه السذاجة ليأخذ هذا الكلام بجدية. إن ترميم بضع نصب تذكارية تاريخية، أو إعادة تحرير أعمال كتاب سابقين لا يمكن أن يغيّر كشوفاً معينة وحقائق مهمة. أصبحت كل واحدة من الديمقراطيات الشعبية مقاطعة في الإمبراطورية، تحكمها الفرمانات من المركز. استمرّت بالاحتفاظ ببعض الحكم الذاتي، لكن بدرجة كانت تتلاشى باستمرار. ربما تكون حقبة الدول المستقلة قد انتهت إلى الأبد، ربما لم تعد أكثر من نماذج متْحَفية. ومع ذلك فإنّه من المحزن القول وداعاً لأحلام المرء باتحاد فيدرالي لأمم على قدر المساواة، لاتحاد الأمم الأوروبية حيث اختلاف اللغات واختلاف الثقافات سوف يحظى بمنزلة متكافئة. ليس لطيفاً الاستسلام لسيطرة أمة لا تزال متوحشة وبدائية، والإذعان للتفوّق المطلق لتقاليدها ومؤسساتها، ولعلومها وتكنولوجيتها، ولآدابها وفنونها. هل على المرء أن يُعاني كل هذا القدر باسم وحدة الإنسانية؟ سوف تجتاز أمم أوروبا الغربية مرحلة الاندماج هذه لاحقاً، وربما بلطف أكثر. من المحتمل أنهم سيكونون أكثر نجاحاً في الحفاظ على لغتهم وثقافتهم الأصلية. لكن في ذلك الوقت، سوف تكون كل

أوروبا الشرقية قد وصلت إلى مرحلة استخدام اللغة العالمية الوحيدة: الروسية. وسوف تتحقّق مبادئ «ثقافة قومية في الشكل واشتراكية في المحتوى» في ثقافة موحّدة متجانسة. سوف يقوم المركز بصياغة وتشكيل كل شيء، على الرغم من أن كل بلد سوف يحتفظ ببعض الزخارف المحلية كنوع من الفولكلور. سوف تتحقّق المدينة العالمية عندما يسقي أحد أبناء السهوب القرقيزية خيوله في نهر اللوار، أو عندما يزرع أحد الفلاحين الصقليين القطن في الأودية التركمانية. يبتسم الكاتب بعجب من البروباغاندا التي تصرخ من أجل تحرير المستعمرات من قبضة الإمبريالية. أوه، كم يمكن للدياليكتيكي أن يكون ماكراً، كم يمكن له أن يتفنّن في إنجاز غاياته، درجة درجة!

كل هذا أفضل. لكن ماذا عن تباشير 'ربيع الأمم'، وكارل ماركس، ورؤى الإخوة البشرية؟ في النهاية، لا يمكن إنجاز شيء من دون الحكم الحديدي لِ سيد واحد. وماذا عن هذا السيد؟ يصف شاعر بولندي عظيم رحلته إلى الشرق ـ حيث ذهب عام ١٨٢٤ كسجين سياسي للقيصر ـ مقارناً روحَ الأمة الروسية بيرقة في شرنقة. تساءل بقلق ما الذي سينبثق منها عندما تسطع شمس الحرية: «عندها هل سوف تبدأ فراشة زاهية بالطيران، أو ربما عثة، حشرة الليل الداكنة؟» حتى الآن، لا شيء يُنبئ بفراشة بهيجة.

يحوّل الكاتب، وهو في حالة من الغضب واليأس، أفكاره إلى الشيوعيين الغربيين. كم هم حمقى. يمكن له أن يغفر خطابتهم إن كانت إحدى ضرورات البروباغاندا. لكنهم يؤمنون بمعظم ما يصرّحون به عن المركز المقدّس، وهذا لا يُغتفر. لا شيء يمكن مقارنته بالازدراء الذي يشعر به تجاه هؤلاء الحمقى العاطفيين.

مع ذلك، وعلى الرغم من مقاومته ويأسه، فإن الأزمة تقترب. يمكنها أن تأتي في منتصف الليل، أو على مائدة إفطاره، أو في الشارع.

إنها تأتي بتكتكة معدنية مثل صوت تعشيق تروس السيارة .لكن لا مهرب. وهذا الأمر واضح جداً. ليست هناك وسيلة نجاة أخرى على وجه الأرض. يدوم هذا الإلهام ثانيةً واحدة؛ لكن ابتداءً من هذه الثانية وما بعدها، يبدأ المريض بالتعافي. وللمرة الأولى منذ وقت طويل يأكل بتلذّذ، ويتحرّك بهمة ونشاط، ويستعيد لونه. يجلس ويبدأ بكتابة مقال «إيجابي»، متعجّباً من السهولة التي يكتبه بها. في التحليل الأخير، ليس هناك من سبب لإثارة مثل هذه الضجة. كل شيء مرتب ومنظم. لقد تجاوز الأزمة.

لم يخرج مع ذلك من دون أذى. تُظهر الآثار اللاحقة نفسها في شكل نوع معين من الخمود غالباً ما يكون ملموساً في التواء شفتيه. يعبر وجهه عن الحزن المسالم لشخص تذوق الثمرة عن شجرة معرفة الخير والشر، لشخص يعلم أنه يكذب ويشعر بالشفقة على هؤلاء الذين نجوا من المعرفة الكاملة. لقد اجتاز فعلاً الاختبار الذي ما زال بانتظار كثير من الآخرين.

في عام ١٩٤٥، جاء صحافي سوفيتي بارز إلى بولندا. كان عجوزاً محترماً يبدو مثل محام من الطبقة الوسطى. كونه ذكياً للغاية وعديم الضمير نوعاً ما تدل عليهما المثابرة التي حافظ بها على منصبه ـ ومن سنه المتقدمة. بعد عودته إلى وارسو من جولة في عدد من مدن الأقاليم البولندية، سرد ضاحكاً حادثاً وقع في سيليشا. أشاع أحدهم خبراً أن وفداً أجنبياً من الغرب قد وصل. أمسك رجل في الشارع بالصحافي (الذي كان كرشه المستدير وتعابير وجهه الصادقة يحثان على مثل هذا الشكل المفرط من الثقة) وكان يصيح: «لقد وصل الإنكليز». وكان تعليق الصحافي على الحادثة: «هذا تماماً مثل ما حصل في أوكرانيا عام ١٩١٩». كان هذا التكرار للآمال العقيمة يسلّيه وكان يشعر بالإطراء كونه ممثلاً لدولة تحكم بناء على توقعات لا تخطئ؛ لأنه بدأت الأمم أمة

وراء أمة تصبح جزءاً من **الإمبراطورية** وفق الجدول. لست واثقاً أنه لم تكن في ابتسامته شيء من *شفقة المتفوق* التي قد تشعر بها ربة منزل إزاء فأر وقع في مصيدتها.

قد يتوقع كاتب «ما بعد الأزمة» أن يأتي يوم يُرسل فيه في مهمة صحافية مشابهة إلى إحدى الدول الغربية المُكتسبة حديثاً. ومثل هذا الاحتمال ليس مقيتاً تماماً. لمراقبة أناس لا يعرفون شيئاً، وما زال عليهم أن يتعلّموا كل شيء، لا شك أن ذلك يقدم متعة خالصة. يدرك السيد أن المصيدة التي وقع فيها الفأر ليست مكاناً مستحسناً تماماً للعيش. مع ذلك ففي الوقت الراهن سوف يفهم سكان الدول المهتدية حديثاً قليلاً حول وضعهم الجديد. سوف يكونون مبتهجين في البداية برفرفة الرايات الوطنية، وأبواق الفرق الموسيقية للمسيرات، وبلاغات الإصلاحات المنتظَرة طويلاً. وحده فقط، المراقب، سوف يرى المستقبل مثل إله، ويعلم أنه سوف يكون صعباً، بالضرورة صعب، لأنها هكذا هي قوانين التاريخ.

في ختام رواية فيتكيفيتش، أصبح أبطاله الذين استخدموا خدمات مورتي ـ بينغ مصابين بانفصام الشخصية. تعزّز أحداث اليوم رؤيته، حتى في هذا الخصوص. يمكن للمرء أن ينجو من «الأزمة» ويقوم بعمله بشكل تام، يكتب أو يرسم كما ينبغي عليه أن يفعل، إلا أن المعايير الأخلاقية والجمالية القديمة تستمر في الوجود في أحد المستويات الداخلية العميقة. من هذا المكان يظهر صدع داخل الفرد يجلب له كثيراً من المصاعب في حياته اليومية. إنه يُسهل مهمة كشف الأفكار المنحرفة والميول؛ لأنه يمكن لمستخدم قرص مورتي ـ بينغ، بفضل هذه الأقراص، أن يشعر بنفسه حاضرَ البديهة في وجه معارضه. تحضر الحالة القديمة والحالة الجديدة في وقت واحد داخله، وتقدّمان له معاً خدمات طبيب نفسي خبير، حارس على ضمير أخيه.

قد يظن المرء أن الجيل الجديد، الذي تربّى منذ البداية في المجتمع الجديد، سيكون متحرراً من مثل هذا الفصام. لكن هذا لا يمكن إحداثه بسرعة. على المرء أن يجتث الكنيسة بالكامل، وهو أمر صعب ويحتاج إلى الصبر والبراعة. وحتى لو تمكن المرء من إزالة هذه الدعامة الأساسية المبجلة للدوافع اللاعقلانية، سوف تستمر الآداب الوطنية بممارسة تأثيرها الخبيث. على سبيل المثال، تتسم أعمال الشعراء البولنديين العظماء بالعداء لِـ روسيا، وجرعة الفلسفة الكاثوليكية التي يمكن للمرء أن يجدها فيها مفزعة. ومع ذلك فعلى الحكومة أن تنشر أعمال بعض هؤلاء الشعراء، وأن تدرّسها في مدارسها لأنهم من الكلاسيكيين، مبدعي اللغة الأدبية، ويُعتبرون من المبشرين بالثورة. أن يتم وضعهم في الفهرس هذا يعني عدم التفكير بطريقة ديالكتيكية ومن ثم الوقوع في خطيئة «اليسارية». إنها معضلة صعبة، وهي أكثر صعوبة في البلدان المتحوّلة منها في المركز، حيث اندماج الثقافة الوطنية مع مصالح الإنسانية قد تحقّق إلى درجة كبيرة. لذلك فإنه على الأرجح أن انفصام الشخصية كنموذج لن يختفي في المستقبل القريب.

قد يظن أحدهم أن مورتي ـ بينغ هو دواء متعارض مع الطبيعة البشرية. هذه ليست حجة قوية. إن عادة الأزتيك بتقديم قرابين بشرية لآلهتهم، أو ممارسة إماتة شهوات الجسد عند النساك المسيحيين الأوائل بالكاد تبدوان جديرتين بالثناء. أصبحت عبادة الذهب قوة حافزة لا يعلى عليها في وحشيتها. بالنظر من خلال هذا المنظور، فإن مورتي ـ بينغ لا ينتهك طبيعة الجنس البشري.

أما إن كان الشخص الذي يأخذ علاج مورتي ـ بينغ يبلغ درجة نسبية من السلام الداخلي والانسجام فهذه مسألة أخرى. إنه يبلغ درجة معينة من الانسجام، بما يكفي فقط لجعله نشيطاً. وهذا الأمر مفضّل على عذاب تمرد بلا جدوى وأمل لا أساس له. يؤكد الفلاحون، الذين لا

سبيل لتقويمهم فيما يخصّ ارتباطاتهم التافهة بالبرجوازية، أن «التغيير لا بد أن يأتي، *لأن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر*». هذه قناعة مضحكة في النظام الطبيعي للأشياء. تخبرنا طرفة عن سائح أراد أن يصعد إلى الجبال، إلا أن السماء كانت تمطر منذ أسبوع. التقى بجبلي يمشي قرب جدول، وسأله إن كان المطر سيستمر بالانهمار. نظر الجبلي إلى المياه المرتفعة وقال رأيه إنه لن يستمر. وعندما سُئل على أي أساس أصدر تخمينه، قال: «لأن الجدول سوف يفيض في هذه الحالة». تحمل أقراص مورتي ـ بينغ مثل هذه الأحكام السحرية لتكون أطياف حقبة محتضرة. يستبسل «الجديد» للتغلّب على «القديم»، إلا أن «القديم» لا يمكن التخلّص منه دفعة واحدة.

الشيء الوحيد الذي يبدو أنه ينكر كمال مورتي ـ بينغ هو الخمول الذي يولد في الناس، وهو يستمر في الوجود على الرغم من نشاطهم المحموم. من الصعب تحديده، ومع مرور الوقت يميل المرء إلى اعتباره مجرد خداع بصري. لأنه في النهاية فإن الناس يحثّون أنفسهم، ويعملون، ويذهبون إلى المسارح، ويصفقون للمتحدثين، ويتنزهون، ويقعون في الحب، وينجبون الأولاد. ومع ذلك هناك شيء غير سار وغير ملموس في البيئة البشرية في مثل هذه المدن كـ وارسو وبراغ. إن الجو الجماعي الناجم عن استبدال وإعادة تركيب سوائل مختلفة سيئ. إنها هالة من القوة والتعاسة، من الشلل الداخلي والحركة الخارجية. مهما كان ما يمكننا تسميتها، فإن التالي هو مؤكد: لو أن جهنم تضمن للمقيمين فيها أحياء رائعة، وملابس جميلة، وطعاماً طيباً، وكل التسلية الممكنة، لكنها تحكم عليهم بالتنفّس في هذه الهالة إلى الأبد، فإن هذا عقاب كافٍ.

لا يمكن لأي بروباغاندا، سواء كانت مؤيدة أو معارضة، أن تلتقطَ ظاهرة مراوغة ومجهولة بهذا القدر. إنها تفلت من كل الحسابات. لا

يمكن لها الوجود على الورق. هناك اعتراف في المناقشات الهامسة بأن شيئاً من هذا القبيل موجود، ويجب البحث عن تفسير منطقي له. لا شك أن «القديم» الخائف والمضطهد، سوف ينتقم عن طريق سكب سائله الحبري مثل إخطبوط جريح. إلا أن الكائن الاشتراكي، في سعيه نحو مستقبل من الازدهار المضمون، قد أصبح يملك من القوة ما يكفي، بكل تأكيد، للسيطرة على هذا الوضع؛ أو ربما يكون من المبكر جداً كل هذا. عندما يبزغ الجيل الجديد، المتحرر من كل التأثير الخبيث لِ «القديم»، سوف يتغير كل شيء. وحده من راقب الجيل الجديد في المركز يعارض إطلاق مثل هذه التنبؤات. عندها يجب علينا أن نؤجّل آمالنا إلى المستقبل البعيد، إلى الزمن الذي يمكن فيه للمركز ولكل الدول المستقلة أن تزوّد مواطنيها بالبرادات والسيارات، بالخبز الأبيض وبكميات وافية من الزبدة. ربما عندها، أخيراً، سوف يكونون راضين.

لماذا لا تسير المعادلة كما يجب، ما دام أن كل خطوة منطقية؟ هل علينا استخدام هندسة غير إقليدية في مسائل كلاسيكية ومتكيّفة ولدنة مثل الجنس البشري؟ ألا يرضيه التنوّع الطبيعي؟ ماذا يحتاج الإنسان بحقّ الشيطان؟

## الفصل ٢

# التطلّع إلى الغرب

«هل الأمريكيون أغبياء حقاً؟» سُئلت هذا السؤال في وارسو. كان في صوت الرجل الذي طرح السؤال يأس، وكذلك أمل بأنني سوف أعارضه. يكشف هذا السؤال موقف شخص عادي في الديمقراطيات الشعبية تجاه الغرب: إنه اليأس ممزوجاً ببقايا أمل.

خلال السنوات القليلة الماضية، أعطى الغرب هؤلاء الناس عدداً من الأسباب تكفي لجعلهم يشعرون باليأس من الناحية السياسية. أما في ما يخص المثقف فقد كانت هناك أسباب معقّدة أخرى تدخل في اللعبة. قبل أن تدخل دول وسط وشرق أوروبا مجال سيطرة الإمبراطورية، كانت قد عايشت الحرب العالمية الثانية. كانت هذه الحرب مدمرة هناك أكثر بكثير منها في دول أوروبا الغربية. لم تدمّر اقتصادها فقط، بل دمرت كذلك كثيراً من القيم التي كانت تبدو حتى ذلك الحين ثابتة.

يميل الإنسان إلى اعتبار النظام التي يعيش ضمنه *طبيعياً*. البيوت التي يعبرها أثناء ذهابه إلى العمل تبدو وكأنها صخور تنهض من الأرض أكثر من كونها منتجات من صنع يد الإنسان. يعتبر أن العمل الذي يقوم به في مكتبه أو مصنعه أساسي للأداء المتسق للعالم. والثياب التي يرتديها هي تماماً ما يجب أن تكون عليه الثياب، وسوف يضحك على فكرة أنه كان من الممكن على درجة سواء أن يرتدي عباءة رومانية أو درعاً من القرون الوسطى. يحترم وزيراً في الدولة أو مدير بنك ويحسده، ويعتبر أن حيازة كمية كبيرة من المال تضمنُ الأمن والسلام. لا يمكن له أن يصدّق أنه قد

يأتي يوم يظهر فيه فارس في شارع يعرفه جيداً، حيث تنام القطط ويلعب الأولاد، ويبدأ بالتقاط العابرين بأنشوطته. وهو معتاد على تلبية حاجاته الفيزيولوجية التي تعتبر خاصة بكل التكتم الممكن، من دون أن يدري أن مثل هذا الضرب من السلوك ليس عاماً في كل المجتمعات البشرية. وبكلمة مختصرة، يتصرف مثل تشارلي شابلن في فيلم *حمى الذهب*، يتخبّط في كوخ توازنه متزعزع على حافة الهاوية.

مشواره الأول في شارع مفروش بركام من بقايا زجاج النوافذ التي دمرتها القنابل يهز إيمانه بِـ «طبيعية» عالمه. تبعثر الرياح الأوراق من المكاتب التي تم إخلاؤها بسرعة. أوراق معنونة بِـ «خاص» أو «سري للغاية» تستحضر صوراً لخزنات ومفاتيح ومؤتمرات وسعاة بريد وسكرتيرات. والآن تذروها الرياح في الشارع لتصبح بمتناول يد أي أحد لقراءتها؛ ومع ذلك لا يقرؤها أحد، لأن ما يهم كل شخص هو إيجاد رغيف خبز على وجه السرعة. وبشكل غريب بما يكفي، يمضي العالم قدماً على الرغم من أن المكاتب والملفات السرية فقدت أي معنى. وإلى الأمام في الشارع، يتوقف أمام منزل شطرته قذيفة إلى نصفين، خصوصية منازل الناس ـ روائح العائلة، ودفء الحياة المشتركة، والأثاث الذي يحفظ ذكريات الحب والكره ـ تُفتح أمام أنظار العامة. البيت بحد ذاته، لم يعد صخرة إنما ركاماً من الجص والإسمنت والقرميد؛ وفي الطابق الثالث ثمة بانيو أبيض وحيد تشطف مياهه المنهمرة كل ذكريات أولئك الذين استحموا فيه ذات مرة. ملاّكه السابقون المحترمون ذوو المناصب أصبحوا الآن معوزين يبحثون في الحقول عن حبات بطاطا منسية. وهكذا، وبين عشية وضحاها، فقد المال قيمته وأصبح كومة من ورق مطبوع لا معنى له. يعبر خلال مشواره إلى جانب فتى صغير يغرز عوداً في كومة أنقاض مدخنة ويصفر أغنية عن القائد العظيم الذي سوف يحفظ الأمة من كل الأعداء. بقيت الأغنية، إلا أن قائد الأمس قد أصبح ينتمي إلى ماضٍ منقرض.

يجد نفسه أنّه يكتسب عادات جديدة بسرعة. لو أنه في ما مضى اصطدم بجثة في الشارع كان سيستدعي الشرطة. كان الناس سوف يتجمّعون، وسوف يسفر عن ذلك كثير من الأحاديث والتعليقات. يعلم الآن أن عليه تجنّب الجسد الداكن الملقى إلى جانب الطريق، وأن يمتنع عن إلقاء أية أسئلة غير ضرورية. لا شك أن للشخص الذي أطلق النار أسبابه؛ ربما كان ينفّذ عقوبة سرية.

لم يعتد المواطن الأوروبي العادي التفكير في مدينته التي يعيش فيها على أن تكون مقسّمة إلى مناطق معيشة منفصلة، إلا أن مرسوماً واحداً يجبره على هذا النموذج الجديد في الحياة والتفكير. يخصص الحي السكني (أ) فجأة لمجموعة عرقية معينة، و(ب) لمجموعة ثانية، (ج) لثالثة. وعندما يقترب الموعد النهائي لإعادة التوطين، تمتلئ الشوارع بطوابير طويلة من سيارات النقل والعربات وعجلات اليد، وأناس يحملون صرراً وأسرّة وأدوات طهي وصناديق وأقفاص طيور. وعندما تنتهي كل التنقلات، قد يجد ٢٠٠٠ شخص أنفسهم يسكنون في مبنى كان يؤوي ٢٠٠ سابقاً، إلا أن كل إنسان يجد نفسه في النهاية في المنطقة الملائمة. ثم سوف تشيّد أسوار عالية حول الحي (ج)، وتحمّل يومياً أعداد معينة من الرجال والنساء والأطفال في سيارات شحن ويُرحّلون إلى مصانع مشيدة خصيصاً حيث يتم ذبحهم بطريقة علمية وإحراق جثثهم.

وحتى الفارس مع الأنشوطة يظهر على شكل شاحنة عسكرية صغيرة تنتظر على زاوية الشارع. والرجل الذي يعبر قرب تلك الزاوية يواجه ببندقية مصوبة، يرفع يديه، فيدفع إلى داخل الشاحنة، ويختفي منذ تلك اللحظة عن عائلته وأصدقائه. ربما يُرسل إلى معسكر اعتقال، أو قد يواجه الإعدام رمياً بالرصاص، شفتاه مختومتان بشريط لاصق تحسباً من أن يصرخ ضد الدولة؛ لكنه في كل الأحوال قد استُخدم كإنذار لأقرانه من الرجال. ربما قد ينجو أحدهم من مثل هذا المصير بالبقاء داخل المنزل. إلا أن ربّ العائلة عليه الخروج لتأمين الخبز والحساء لزوجته

وأولاده؛ وسوف يقلقون في كل ليلة إن كان سيعود أم لا. بما أن مثل هذه الأوضاع تستمر لسنوات، يبدأ كل إنسان بالتدريج بالنظر إلى المدينة كغابة، وإلى مصير رجل القرن العشرين كمصير مطابق لرجل كهف يعيش وسط وحوش ضارية.

كان يُعتقد سابقاً، بشكل بديهي، أن الرجال يحملون اسمهم الأول واسم عائلتهم طوال حياتهم؛ والآن يثبت أنه من الحكمة أكثر تغيير هذه الأسماء لعدة أسباب والتعود على حفظها مع سيرة الحياة المبتكرة الجديدة. وكنتيجة لذلك، تدبّ الفوضى في السجلات المدنية للدولة بشكل كبير. ويتوقف كل فرد عن الاهتمام بالشكليات، وهكذا يصبح الزواج على سبيل المثال ليس أكثر من العيش المشترك معاً.

اعتاد المواطنون المحترمون على اعتبار النهب جريمة. واليوم، صار سارقو المصارف أبطالاً لأن المال الذي سرقوه سيتوجه إلى العمل السري. عادة هم شبان صغار، ما زالوا في حضن أمهاتهم، إلا أن مظهرهم خادع. لا يقدّم قتل رجل أي مشكلة أخلاقية بالنسبة لهم.

المجاورة مع الموت تقضي على الخجل. يتغير الرجال والنساء ما إن يعرفوا أن تاريخ إعدامهم قد حدده رجل صغير سمين ينتعل جزمة ملمعة ويحمل سوطاً. يتجامعون في العلن، على القطعة الصغيرة من الأرض المحاطة بالأسلاك الشائكة؛ بيتهم الأخير في هذه الدنيا. شبان وفتيات في عمر المراهقة، على وشك الانطلاق إلى المتاريس للقتال ضد دبابات بالمسدسات وزجاجات البنزين، يرغبون في الاستمتاع بشبابهم والتخلي عن احترامهم لمعايير الحشمة والأدب.

أي عالم هو «الطبيعي»؟ هل هو الذي كان موجود سابقاً أم عالم الحرب؟ كلاهما طبيعي، إن كان الاثنان يقعان ضمن حقل خبرة الفرد. كل المفاهيم التي يعيش بها الناس هي نتاج تكوينهم التاريخي الذي وجدوا أنفسهم به. الانسيابية والتغيير المستمر هما من خصائص الظواهر. والإنسان طيّع جداً وهو كائن يمكن للمرء أن يتخيل أن يأتي يوم يجد فيه

مواطناً يحترم نفسه يزحف على أطرافه الأربعة، وهو يلبس متباهياً ذيلاً من الريش الملوّن كعلامة على مطابقته النظام الذي يعيش فيه.

لا يمكن لإنسان الشرق أن يأخذ الأمريكيين بجدية لأنهم لم يختبروا أبداً التجارب التي تعلم البشر كم هي نسبية أحكامهم وعادات تفكيرهم. إن نتاج قصور مخيلتهم مرعب. ولأنهم ولدوا وتربّوا في نظام اجتماعي معين وفي نظام معين للقيم، فهم يعتقدون أن أي نظام آخر يجب أن يكون «غير طبيعي»، وأنه لا يمكن له الاستمرار لأنه يتعارض مع الطبيعة البشرية. لكن حتى هم يمكن لهم ذات يوم أن يعرفوا الحرائق والجوع والسيف. وعلى الأرجح هذا ما سوف يحدث؛ إذ من الصعب التصديق أنه عندما يكون نصف العالم يعيش في كوارث مرعبة، فإن النصف الآخر يمكن له أن يستمر في الحياة على طريقة القرن التاسع عشر، ويعرف المحنة التي يعيش فيها أقرانه البعيدون من الأفلام والجرائد فقط. تعلمنا الأمثلة الحديثة أن هذا لا يمكن أن يحدث. أحد سكان وارسو أو بودابست الذي تفرج ذات مرة على فيلم إخباري في السينما عن قصف إسبانيا أو حرق شانغهاي، أدرك في النهاية كم هي هذه المشاهد وغيرها كثير من الكوارث يمكن أن يحدث في الواقع. يقرأ حكايات محزنة حول البوليس السري السوفيتي، حتى يأتي اليوم الذي يجد نفسه فيه مضطراً للتعامل معه. وسوف يستنتج من ملاحظاته الخلاصة التالية: *إن وجد شيء في مكان ما، فإنه سوف يوجد في كل مكان آخر.* ولذلك ليس لديه إيمان جدير بالذكر بالازدهار المؤقت لِ أمريكا. يشك بأن سنوات ٤٥ ـ ١٩٣٣ في أوروبا نموذج سابق لما سوف يحصل في كل مكان آخر. مدرسة قاسية، حيث عوقب الجهل ليس بعلامات سيئة إنما بالموت، علمته أن يفكر اجتماعياً وتاريخياً. إلا أنها لم تحرره من المشاعر غير العقلانية. إنه يميل إلى الإيمان بنظريات تتوقع حدوث تغيّرات عنيفة في دول الغرب، لأنه يجد أنه من الظلم أن يتمكنوا من النجاة من المعاناة التي اضطر هو إلى احتمالها.

المنظومة الفكرية الوحيدة المتاحة له هي المادية الديالكتيكية، وهي تجذبه لأنها تتكلم بلغة مفهومة في ضوء خبرته. النظام «الطبيعي» الخادع للدول الغربية مصيره الانهيار نتيجة للأزمات، وذلك بحسب المادية الديالكتيكية (وفق النسخة الستالينية منها). كلما حدثت أزمة تحتمي الطبقات الحاكمة بالفاشية كضمان أمني ضد ثورة البروليتاريا. الفاشية تعني الحرب، وغرف الغاز، وأفران حرق الجثث. صحيح أن الأزمة المتوقعة في أمريكا لحظة تسريح الجيش لم تحصل؛ صحيح أن إنكلترا أنجزت نظام ضمان اجتماعي وتأمين طبي إلى درجة لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت؛ وصحيح كذلك أن هستريا معاداة الشيوعية في الولايات المتحدة، مهما كان السبب الذي ألهمها، قد حرضها على نحو واسع الخوف من قوة معادية مسلحة. مع ذلك لا تزال هذه مجرد تعديلات على صيغة تم إثباتها من نواح أخرى. إن كان العالم مقسماً بين الفاشية والشيوعية، فيجب أن تخسر الفاشية بكل تأكيد باعتبارها الملاذ الأخير للبرجوازية. تحكم البرجوازية من خلال الديماغوجية، والتي تعني في الممارسة أن المناصب البارزة تُملأ بأشخاص غير مسؤولين يرتكبون الحماقات في لحظات اتخاذ القرار. ومثل هذه الحماقات تماماً كانت سياسة هتلر عديمة الرحمة تجاه الأوروبيين الشرقيين، وكذلك توريط موسيليني إيطاليا في الحرب.

لا يحتاج الإنسان أن يكون ستالينياً ليفهم ذلك. على العكس، بمعرفته كم هي غير مضمونة أية منافع تأتي من النظام الناشئ في المركز، سوف يكون أكثر من مسرور لرؤية نيزك عملاق يمحو ذلك السبب في بؤسه عن وجه الأرض. إلا أنه مع ذلك مجرد رجل. يزن فرصه ويستنتج أنه من غير الحكمة أن يوالي الجهة الملعونة من قبل الكيان نفسه الذي أخذ مكان الرب في هذا القرن، أي: التاريخ. تحاول البروباغندا التي يخضع لها بكل الوسائل الممكنة أن تثبت أن النازية والأمريكية متطابقتان من حيث إنهما نتاج للظروف الاقتصادية ذاتها.

يصدق هذه البروباغندا أقل بقليل فقط مما يصدق الأمريكي العادي الصحافيين الذي يؤكدون له أن الستالينية والهتلرية وجهان لعملة واحدة.

حتى لو بلغ أعلى درجات السلم الوظيفي ويمكن له بذلك الوصول إلى معلومات عن الغرب، فإنه غير قادر على الرغم من ذلك أن يزن القوة والضعف النسبيين لنصف العالم ذاك. إن الأداة البصرية التي يرى من خلالها معقّدة التركيب جداً فهي تشمل حقول الرؤية المحددة سلفاً فقط. بالنظر من خلالها، يرى ما يتوقّع رؤيته فقط. على سبيل المثال، بسبب اعتياده العيش في مجتمع حيث القانون موجود حصراً كأداة بيد الحزب الحاكم، وحيث المعيار الوحيد للعمل البشري هو مدى فعاليته، يجد أنه من الصعب تخيل نظام حيث كل مواطن فيه يشعر بنفسه مقيداً بعقوبات القانون. ربما تكون هذه العقوبات قد وُضعت لحماية مصالح المجموعات التي تحظى بالامتياز، إلا أنها تبقى حتى بعد تغيّر هذه المصالح؛ وليس من السهولة تغيير القوانين القديمة بأخرى جديدة. يجد كل مواطن نفسه مقيداً بشبكة من القوانين تقع أصولها في ماضٍ بعيد. وكنتيجة لذلك، تصبح آلية الحياة الجماعية غير عملية إلى درجة أن كل من يحاول أن يكون فعّالاً بصدق يكافح من دون جدوى لتحرير نفسه من قيودها.

المقيم في وسط أو شرق أوروبا غير قادر على فهم المماطلة والقرارات السخيفة والحملات السياسية والاتهامات المتبادلة واستطلاعات الرأي والديماغوجية، والتي يعتبرها من الصفات المميزة للغرب. لكن في الوقت ذاته، فإن هذه العوائق تضمن للمواطن العادي درجة معينة من الأمان. بديهي أن الإمساك برجل في الشارع وترحيله إلى معسكر اعتقال وسيلة ممتازة للتعامل مع فرد أثار استياء الحكومة؛ إلا أن هذه الوسيلة صعبة التطبيق في البلدان التي تعتبر المجرم هو فقط الذي ارتكب فعلاً معرّفاً بشكل واضح وصريح كفعل يستوجب العقوبة وفق فقرة معينة في القانون. تتشابه قوانين الجرائم لدى النازية والشيوعية في

أنها تمحي الحدود بين الأفعال الجزائية والأخرى غير الجزائية؛ الأولى، عن طريق تعريف الجريمة بأنها أي فعل موجه ضد مصالح الأمة الألمانية؛ الثانية، كأي فعل موجه ضد مصالح ديكتاتورية البروليتاريا. ماذا يمكن لرجل من الشرق أن يسمي «الشكليات الميتة للبرجوازية» التي، ومن ناحية أخرى، تؤمن ضمانة بأن رب العائلة سوف يعود إلى منزله للعشاء بدلاً من يأخذ رحلة إلى منطقة حيث يمكن للدببة القطبية أن تعيش أما الإنسان فلا.

وليس من السهل في الدول التي يحكمها القانون أن تتبنى استعمال التعذيب العلمي حيث يعترف كل من يخضع له بدرجة متساوية من الحماس إن كان بريئاً أم مذنباً. تحاول البروباغندا أن تقنع المواطنين في الديمقراطيات الشعبية بأن القانون في الغرب ليس أكثر من وهم خاضع لمصالح الطبقات الحاكمة. ربما يكون وهماً، إلا أنه ليس خاضعاً تماماً لرغبات الحكّام. في الحقيقة إن رغبوا في إدانة رجل ما، فعليهم بذل جهد كبير لإثبات أنه مذنب؛ يقف محامو دفاعه خلف كل التفاصيل الفنية للقانون؛ تستمر القضية فترة طويلة من خلال استئنافات متعددة وغيرها. ترتكب الجرائم بالتأكيد تحت غطائه، لكن حتى الآن فإن القانون الغربي يخدم لتقييد أيدي الحكام كما المحكومين وقد يكون ذلك مصدراً إما للقوة أو الضعف، حسب قناعات كل امرئ.

الأمريكيون، المدركون لطبيعة قوانينهم، يقارنون الديمقراطية بطوف خشبي حائر يحاول كل شخص أن يجذف به في اتجاه مختلف. هناك كثير من الضجيج والإساءات المتبادلة، ومن الصعوبة بمكان أن تدفع الجميع كي يجذفوا معاً. بالمقارنة مع مثل هذا الطوف الخشبي، فإن سفينة الدولة الشمولية ذات الصفوف الثلاثة من المجذايف، والتي تتقدم بمجاذيفها الممدودة، تبدو لا تقهر. لكن في مناسبات معينة، فإن سفينة الشمولية تتحطّم على صخور يمكن للطوف الخشبي المربك أن يبحر حولها ويعبرها بأمان.

إن التطورات الجديدة في الغرب لا يمكن تحقيقها بسهولة في الديمقراطيات الشعبية. في دول غربية بعينها، وخصوصاً الولايات المتحدة، حدث شيء ما لا يمكن مقارنته بالقرون السابقة: نهضت حضارة جديدة شعبية وسوقية وربما كريهة من ناحية ما بالنسبة للناس «الحضاريين»، ولكنها ضمنت لجماهيرها حصة من واردات إنتاجها. صحيح أن ما أفرح هذه الجماهير في كثير من الأحيان هو رخيص وسطحي، وأنهم يشترونه بكثير من العمل الشاق، ومع ذلك فإن فتاة تعمل في مصنع، وتشتري الموديلات الرخيصة المنتجة لعامة الناس من الفساتين التي ترتديها نجمات السينما، وتركب سيارة، وإن كانت قديمة، إلا أنها ملكها، وتتفرج على أفلام الكاوبوي، وتمتلك ثلاجة في المنزل، هي تعيش ضمن مستوى معين من الحضارة *مشترك* مع آخرين. في حين أن امرأة في مزرعة تعاونية قرب لينينغراد لا يمكن لها التنبؤ بأن يأتي يوم يمكن حتى لابنة حفيدتها أن تعيش بمستوى يقارب مثل هذا المعدل.

ما يشار إليه على أنه «غباء» الجماهير الأمريكية، التي ترضى بمزايا مادية صرفة لهذه الحضارة الجديدة، هو مثير للسخط بشكل استثنائي بالنسبة إلى المثقف الشرقي. لقد ترعرع في بلد فيه فارق واضح لا لبس فيه بين «الإنتيليجينسيا» و«الشعب»، وهو يبحث قبل أي شيء آخر عن أفكار مُبدعة من قبل «الإنتيليجينسيا»، العنصر الذي يشكّل الخميرة التقليدية لأي تغيير ثوري. عندما يلتقي بمجتمع ما حيث «الإنتيليجينسيا»، كما هي معروفة في وسط وشرق أوروبا غير موجودة، يجد صعوبة كبيرة في ترجمة ملاحظاته إلى مصطلحات مفاهيمية. الأفكار التي يكتشفها هي أفكار بالية تجاوزتها التنمية الاقتصادية والتقنية. الحل العملي التجريبي البحت للمشاكل وعدم إمكانية ابتلاع ولو جرعة صغيرة من التجريد (في حين أن البرجوازية الألمانية، على سبيل المثال، لديها هذه الإمكانية بوفرة) يُدخل مجاهيل في حساباته. إن اعتبر أحد هذه

الخصائص إشارات على «التخلّف» بالمقارنة مع أوروبا، إذاً عليه أن يعترف بأن «الغباء» الذي ينتج تكنولوجيا تفوق بكثير تلك التي في أوروبا ليس بالمجمل مصدر ضعف.

في الحقيقة، إن كان الدافع وراء تحسين وإتقان الاكتشافات الجديدة ووضعها قيد الاستعمال لم يفقد زخمه، فالفضل يكمن عند الغرب. انتهى الجهد الذي بذلته اليابان للتغلب على الغرب بالفشل؛ وهزمت اليابان بعقلية السلام وفرّقت داخلياً من قبل الولايات المتحدة أيام روزفلت. دخلت روسيا السباق الآن بعد أن بدأت تقلد النماذج الغربية في السيارات والطائرات والمحركات النفاثة وأجهزة التلفزيون والقنبلة الذرية والغواصات، وأشياء مثل الرادارات والبنسيلين. بدأ الجيل الأصغر من أوروبا الشرقية، والذي تربى على عبادة روسيا، بالاعتقاد أنها تحتل المكان الأكبر في حقل العلوم والتكنولوجيا. يعتبر الأشخاص الأكبر سناً أن مثل هذه القناعة سخيفة؛ لكن بالأخذ بعين الاعتبار مواردها الطبيعية غير المستغلة بعد، والاقتصاد الموجه والإمكانية اللاحقة في تخصيص مبالغ غير محدودة من المال للأبحاث العلمية والتجارب، فإنهم يشعرون بأنها ربما تكون في طريقها إلى التفوّق والسيادة.

يبدو أن الأهداف العملية المجردة للعلم الروسي المعاصر تدحض هذه الفرضيات، لأنه كما نعرف، فإن أعظم الاكتشافات قد تم إنجازها في سياق عمل طويل نزيه من جانب العديد من العلماء، وغالباً ما كانت لا تحمل أية نتائج ملموسة مباشرة. ويبدو أنها مدحوضة كذلك بسبب إصرار البروباغاندا على نسب معظم الاكتشافات إلى الروس على الرغم من أنهم يقلدون التركيب الأمريكي، من الجسور إلى المحركات، بأدق التفاصيل. مثل هذه البروباغاندا، والتي تضغط غالباً إلى درجة السخافة، لا تُظهر درجة كبيرة من الثقة بالنفس. ومثل هذه الحوادث كبيع آلة سويدية للديمقراطيات الشعبية تحت سمة صنع في روسيا يفند مزاعمها

المتبجحة. ومع ذلك فإن جهود هذه البروباغاندا لتدمير مُركّب النقص الروسي ولرفع «المعنويات التكنولوجية» هو برهان على أهمية الأماكن المركزية في السباق العلمي. من يدري إلى أي نتائج يمكن أن يؤدي مثل هذا الحشد في العزيمة؟ ربما كان كل ما تحتاجه روسيا هو الوقت.

دعونا نعترف، وكذلك ستفعل أوروبا الوسطى والشرقية، أنه في *الوقت الحالي* فإن تفوق الغرب في الإنتاج المحتمل والتكنولوجيا واستبدال عمل الإنسان بالآلة (ما يعني المحو التدريجي للتمييز بين العمل الذهني والعمل البدني) لا يرقى إليه الشك. إلا أن المثقف الشرقي يسأل، ما الذي يجري في عقول الجماهير الغربية؟ أليست أرواحهم نائمة، وعندما تأتي اليقظة، ألن تأخذ شكل الستالينية؟ أليست المسيحية تحتضر في الغرب، ويُجرد ناسها من كل إيمان؟ أليس هناك فراغ في عقولهم؟ ألا يملؤون هذا الفراغ بالشوفينية، والقصص البوليسية، والأفلام التافهة فنياً؟ حسناً إذاً، ماذا يمكن للغرب أن يقدم لنا؟ التحرر *من شيء ما* هو موضوع مهم جداً، إلا أنه ليس كافٍ. إنه أقل بكثير من التحرّر لأجل *شيء ما*.

بينما تُطرح مثل هذه الأسئلة، أو فعلياً تُواجه مع آخرين، تتذمر المجتمعات الأمريكية (خصوصاً الأبناء المثقفين لعائلات الطبقة الوسطى أو الأقل منها) من الفقر الروحي للجماهير. ومع ذلك فهم لا يدركون أن **الإمبراطورية** التي يشتهونها هي خليط من الفقر المادي ونقص التكنولوجيا، بالإضافة إلى الستالينية. وكذلك لا يدركون كم قد تكون رائعة محاولة تخيل مزيج من الرخاء الاقتصادي والتكنولوجيا، بالإضافة إلى الستالينية. تتم إعادة بناء إنسان **الإمبراطورية** الجديد تحت شعار الكفاح ضد الفقر (التي تشمل الإقناع والإخضاع في وقت واحد)، وتَقدم التكنولوجيا (التي تهدم وتعيد البناء في وقت واحد). إن غاب هذان الدافعان القويان، ما الذي يمكن أن يحدث؟ سوف يشك المرء في أن

عجلات تلك الآلة العملاقة سوف تدور في الفراغ. إن مرحلة التحقق الكامل للشيوعية هي «قدس الأقداس». إنها الجنة. لا يجرؤ المرء على توجيه عينيه نحوها. ومع ذلك إن جرؤ المرء على تصور ذلك الفردوس، سوف يجده لا يخالف كثيراً الولايات المتحدة في فترات العمالة الكاملة. سوف يجد (مع افتراض التخفيف من وطأة الخوف، وهو أمر مستبعد) أن الجماهير تحيا جسدياً مستفيدة من الإنجازات المادية لحضارتها. إلا أن تطورها الروحي سوف يقابل عقبة لا تقهر في العقيدة التي تعتبر أن هدفها هو تحرير الإنسان من الاهتمامات المادية تجاه شيء يُعرّف بحد ذاته على أنه هراء.

هذه اعتبارات طوباوية يمكن للشيوعيين الغربيين تجنبها، إلا أنه لا يمكن لإخوتهم الشرقيين فعل ذلك. أتذكر قول أحدهم: «لا أريد أن أعيش لأرى الشيوعية تتحقق، سيكون الأمر على الأرجح مملاً للغاية». عندما يتم إنجاز مهمة إعادة التثقيف العظيمة، ويحطم تماماً «الكائن الغيبي» البغيض داخل الإنسان، ما الذي سيبقى؟ من المشكوك فيه فيما إذا كانت محاكاة الحزب للطقس المسيحي، وما يشبه الشعائر الجماهيرية التي تُؤدى أمام صور القادة يمكن أن تعطي الناس الرضا التام.

بشكل أكثر مما يتخيل الغرب، يتطلع المثقفون الشرقيون إلى الغرب من أجل *شيء ما*. وهم لا يبحثون عنه في البروباغاندا الغربية. هذا *الشيء* الذي يبحثون عنه هو كاتب عظيم جديد، أو فلسفة اجتماعية جديدة، أو حركة فنية جديدة، أو اكتشاف علمي، أو مبادئ جديدة في الرسم والموسيقى. وهم نادراً ما يجدون هذا *الشيء*. أصبح الناس في الشرق بالفعل معتادين على التفكير في أمور الفن والمجتمع على نطاق تنظيمي وجماهيري. الأشكال الوحيدة في الثقافة التي تحقق مثل هذا المقياس في الغرب هي الأفلام السينمائية والكتب الأكثر مبيعاً[1] والمجلات

---

(١) بيست سيللرز. (م)

المصورة. ليس هناك مفكر غربي واحد يأخذ معظم وسائل الترفيه الجماهيري هذه بجدية؛ بينما في الشرق، حيث يأخذ كل شيء بعداً جماعياً، فإنهم يأخذون على عاتقهم شرف كونهم الممثل الوحيد لِـ «ثقافة الغرب المنحطة». من السهولة السخرية من معظم الأفلام والروايات والمقالات (إن لم نقل شيئاً حول حقيقة أن من كتب مثل هذا النقد قد نال أجراً جيداً وهذا يحرره من الالتزام الأكثر إيلاماً بالكتابة بحماس عن المركز). من ثم فهي النشاط المفضل لمعظم صحافيي الشرق، ولهذه الكتابة النقدية تأثير كبير على العامة.

الحياة الثقافية الحقيقية للغرب مختلفة تماماً. لكن حتى هنا فإن المثقف الشرقي يصطدم بمظاهر خادعة، لأنه يجد كلاً من التقليد والابتكار، الانحطاط والحيوية، عملاً متوسط الجودة تتم الإشادة به وعملاً عظيماً لا يُميز بشكل جيد. التيارات الاجتماعية والفكرية، التي يعرفها من رحلاته إلى الغرب قبل الحرب، مستمرة في الوجود وتثير نفاد صبره كمنتجات مرحلة تجاوزها. ومع ذلك فهي لا تزال. المظاهر التي تستحوذ على اهتمامه، لا القوى الخلاقة الجديدة التي تطلق قذائف وسط غابة من الأشجار الميتة.

اللوم الأخطر الذي يُرفع في وجه الثقافة الغربية أنها حصرية ومن المتعذر على الجمهور بلوغها. هذا اللوم مستمر إلى حد كبير. حبست الموسيقى والرسم والشعر نفسها في أبراج عاجية، وأصبحت عرضة للعديد من الأمراض الأسلوبية. ومع ذلك، وفي الوقت نفسه، فإن صلتها مع الحياة اليومية للناس أقوى إلى حد بعيد مما تبدو من النظرة الأولى. على سبيل المثال، الرسم الطليعي الذي هو «صعب» للغاية و«مبهم»، يصل إلى عدد هائل من الناس من خلال تأثيره على صناعة الإعلان وتصميم الملابس والتجهيزات المسرحية والديكورات الداخلية، والأهم من كل ذلك ربما، شكل الآلات المستخدمة عالمياً. بالمقارنة مع هذا، فإن أسلوب «الإمبراطورية السوفيتية»، الذي يعتمد على الرسم

على لوحات ضخمة لمجموعات من كبار الشخصيات يقفون في وضعيات مختلفة، منفصل تماماً عن الحياة اليومية. عن طريق تدمير كل التجريب في الفن، يقيد المركز فنه التطبيقي (إن كان بإمكان المرء الحديث عن وجوده أساساً) في محاكاة خرقاء للفن التطبيقي الغربي الذي هو، على الرغم من كل شيء، متجدد باستمرار تحت تأثير الرسم التجريبي. عندما تسود عبادة القبح في الرسم أو النحت أو أي جرأة تمر مثل التشكيلية، عندها فإن الفنون التطبيقية، المقطوعة من جذورها، لا بد أن تثبت عقمها. الخلفية المتعددة الألوان للحياة الغربية معرضة لقانون التناضح. لا يملك المواطن الغربي العادي أية فكرة عن أن رساماً في عليّة، أو موسيقياً غير مشهور، أو كاتب أشعار «مبهمة»، هو ساحر يشكل كل هذه الأشياء التي يثمنها عالياً في الحياة. لا يعطي المسؤولون الحكوميون أهمية كبيرة لمثل هذه المسائل لأنهم يعتبرونها مضيعة للوقت. وبما أنه ليس اقتصاداً موجهاً، فإن الحكومة الغربية لا تسارع إلى تقديم العون للناس الذين يعملون في مختلف أنواع الفنون. يستمرون في العمل، كل يسعى خلف وهمه الخاص، ويموتون أحياناً من الجوع؛ بينما بالقرب منهم، هناك أثرياء لا يعرفون ماذا يفعلون بأموالهم، ينفقونها على أحدث نزوات نفوسهم الغارقة في الظلام.

يثير نظام سير الأمور هذا أي شخص من الشرق. في بلاده، يتم استغلال أي شخص يتكشف عن موهبة. أما في الغرب، فإن الرجل نفسه لديه فرصة ضئيلة في النجاح. هدر الاقتصاد الغربي الموهبة إلى درجة غير معقولة؛ والقلة التي نجحت تدين بنجاحها غالباً إلى الحظ المحض أكثر من القدرة الذاتية. في بلدان **الإيمان الجديد**، فإن نظير هذا الهدر يكمن في حقيقة أن القدرة على متابعة الخط السياسي هي المعيار الانتقائي حيث يحصل في كثير من الأحيان من هو دون المتوسط على أكبر شهرة. ومع ذلك، فإن الفنان أو الباحث في الشرق يكسب عيشه بسهوله أكثر من زميله الغربي. حتى لو كان الضغط الناتج عن تطبيق

«النهج» يثقل عاتق المرء، إلا أنه لا يجب الاستهانة بتعويضاته المادية. كثير من الموسيقيين والرسامين والكتاب الذين حصلوا على فرصة الهرب إلى الغرب لم يفعلوا ذلك لأنهم شعروا أنه من الأفضل لهم التأليف الموسيقي أو الرسم أو الكتابة بطريقة أو أخرى، من أن يقوموا بالتعليم أو العمل في مصنع، من دون أن يتبقى لهم الوقت الكافي ولا الطاقة لصقل براعتهم. العديد من هؤلاء الذين كانوا في الخارج عادوا إلى بلدانهم لهذا السبب بشكل رئيس.

انتشر الخوف من عدم الاكتراث الذي يتعامل به النظام الاقتصادي للغرب مع فنانيه وباحثيه بشكل واسع بين المثقفين الشرقيين. قالوا إنه من الأفضل التعامل مع شيطان ذكي من التعامل مع أخرق لطيف. يفهم الشيطان الذكي مصالحهم المشتركة ويدعهم يعيشون من القلم أو فرشاة الرسم أو إزميل النحت، مهتماً برعاية عملائه وتنظيم طلبياته. لا يفهم الأخرق طيب القلب هذه المصالح، لا يعطي شيئاً ولا يطلب شيئاً؛ وهذا في الممارسة يعادل قسوة مهذبة.

يعتبر الناس في الشرق بشكل بديهي أن الموارد الرئيسة للإنتاج يجب أن تملكها الدولة، وأنها يجب أن تنظم وفقاً لاقتصاد موجَّه، وأن عائداتها يجب أن تستخدم في غايات الصحة والثقافة والعلوم والفنون. من السذاجة البحث عن أنصار للرأسمالية في أوساطهم. هذا *الشيء* الذي يبحث عنه هؤلاء في الغرب ليس حتماً الشعارات البائتة للثورة الفرنسية أو حرب الاستقلال الأمريكية. إنهم يضحكون على الجدل حول أحقية الأفراد المستقلين بملكية المعامل والمناجم. إن بحثهم عن هذا الـ شيء ينبثق بشكل أو بآخر من فهم واضح لحقيقة أن الإيمان الجديد عاجز عن إرضاء الحاجات الروحية للبشرية، لأن جهوده في هذا الاتجاه تحولت وباطراد عنيد إلى كاريكاتير. إن أُجبروا على صياغة ما يبحثون عنه، فإنهم بلا شك سوف يجيبون بأنهم يريدون نظاماً باقتصاد اشتراكي، إلا أنه نظام لا يضطر فيه الإنسان إلى النضال بيأس في هذا العناق الثعباني لِ

**النهج**. وبالتالي هم يبحثون عن إشارة ما تدل على أن القيم الثقافية الحقيقية يمكن أن تنهض خارج نطاق **النهج**. إلا أنها يجب أن تكون قيماً دائمة، موجهة إلى المستقبل، وهي بالتالي ليست من منتجات المفاهيم التي عفا عنها الزمن. أي شيء أقل سوف يخدم بدرجة رئيسة **النهج**. يعلم الناس في بلدان **الإيمان الجديد** أنه يمكن في الغرب *فقط* أن تظهر أعمال تحمل بذور الأمل في المستقبل. ربما اكتشافات لا تقلّ أهمية عن تلك التي توصل إليها ماركس أو داروين تكون قد أُنجزت بالفعل في غرف عمل فلاسفة منعزلين. لكن كيف يمكن للمرء أن يجدهم؟

المثقف الشرقي ناقد لاذع لكل شيء يمكن أن ينفذ إليه من الغرب. لقد خُدع مرات عديدة لذلك فهو لا يحتاج إلى مواساة رخيصة سوف تثبت في نهاية المطاف كل أنواع الإحباط. خلفته الحرب شَكوكاً وذا مهارة عالية في كشف الخزي والادعاء. نبذ الكثير من الكتب التي كان يحبها قبل الحرب، وكذلك الكثير من النزعات في الرسم والموسيقى، لأنها لم تصمد أمام اختبار التجربة .يجب على عمل الفكر الإنساني أن يصمد أمام اختبار الواقع الوحشي المجرد. إن لم يتمكن من ذلك، فهو عديم القيمة. ربما هذه الأشياء وحدها فقط هي الجديرة حيث يمكن أن تحافظ على صحتها في نظر إنسان مهدد بالموت المباشر.

رجل يستلقي تحت مدفع رشاش في مدينة تحت الحرب. ينظر إلى الإسفلت ويرى منظراً مسلياً جداً: حصى الرصف تقف بشكل عمودي مثل أشواك القنفذ. الطلقات التي تصيب أطرافها تقتلعها وتميلها. مثل هذه اللحظات في وعي الإنسان *تحاكم* كل الشعراء والفلاسفة. لنفترض أيضاً أن شاعراً معيناً كان بطل المقاهي الأدبية، وأينما ذهب ينظر إليه بفضول ورهبة. ومع ذلك فإن قصائده، والتي تعود إلى الأذهان في مثل هذه اللحظات، تبدو فجأة عقيمة ورفيعة الثقافة. إن رؤية الحصى هي بلا أدنى شك حقيقة واقعية، والقصيدة المعتمدة على تجربة مجردة مشابهة يمكن لها أن تتجاوز منتصرة يوم قيامة الإنسان من الأوهام. يحدث داخل

المثقفين الذين عايشوا وحشية الحرب في أوروبا الشرقية ما يمكن أن ندعوه: *التخلص من الكماليات العاطفية*. تدفعهم روايات التحليل النفسي إلى الضحك. يعتبرون الأدب الجنسي، على الرغم من شعبيته في الغرب، مجرد هراء. تضجرهم محاكاة اللوحات التجريدية. إنهم جائعون، إلا أنهم يريدون الخبز، وليس المقبلات.

أيقظت الواقعية الجدلية تجاوباً فيهم لأنها *عملية*. سوف يتبنون بمحض إرادتهم أدباً أو فناً مولوداً خارج نطاق النهج، لكن بشرط أن يكون عملياً وقوياً وصحياً. لو أنهم يجدونه فقط! من المذهل أن أي شيء في الغرب قوي بما فيه الكفاية بالنسبة لأذواقهم، فهو يثير أسئلة عن التركيبة الاجتماعية ومعتقدات الجمهور. تكون هذه الكتب أحياناً ستالينية، ولكنها في الغالب معادية للستالينية. قرأ معظمهم كتاب: ***ظلمة في عز الظهيرة*** لِـ كوستللر[1]، وقلة منهم سمعوا بِـ كتاب: ***١٩٨٤*** لِـ أورويل؛ لأنه من الصعوبة الحصول عليه ومن الخطر امتلاكه، إنه معروف من قبل أعضاء معينين في قلب الحزب فقط. فَتَنَهَّمَ أورويل من خلال نفاذ بصيرته في تفاصيل يدركونها جيداً، ومن خلال استعماله الهجاء السويفتي[2]. مثل هذا الأسلوب في الكتابة محظور من قبل الإيمان الجديد؛ لأن الرمزية، بسبب طبيعة التشعبات في المعاني، سوف تتجاوز إلى ما وراء وصفات الواقعية الاشتراكية ومطالب الرقيب. حتى أولئك الذين يعرفون أورويل من خلال الإشاعة فقط يتعجبون كيف أن كاتباً لم يعش قط في روسيا يمكن أن يصف حياتها من الداخل بمثل هذا الوصف الممتاز. حقيقة أن هناك كتاباً في الغرب يفهمون طريقة عمل الآلة المركبة غير العادية التي هم أنفسهم جزء منها صعقتهم وبرهنت عكس فرضية «غباء» الغرب.

---

(١) أديب هنغاري إنكليزي انشق عن الشيوعية. والكتاب المذكور كتب عام ١٩٤٠. (م)

(٢) نسبة إلى الكاتب الإنكليزي جوناثان سويفت. (م)

عادة، ما هو قوي في الغرب هو سلبي محض. نقده لِـ **الإيمان الجديد** دقيق في الغالب، لكن على الرغم من هذا فهو لا يشير إلى أي مخرج، ولا يقدم أي شيء لاستبدال **النهج**. صحيح أنه يمكن للمرء القول إنه يقدم إنساناً يعيش من دون أن يخجل من أفكاره الخاصة ويقدر على الحركة من دون الركائز المدعمة بإشادة رسمية من السلطات. بالنسبة إلى المثقف الشرقي، هذا غير كافٍ. لا يهزم المرء مسيحاً بالجدل المنطقي.

الدين المسيحي الذي قيّد أو حتى أبيد في بلدان **الإيمان الجديد** دائماً ما كان يستدعي مقداراً كبيراً (وإن كان غير صحي) من الاهتمام. هل يستغل المسيحيون الغربيون بشكل ملائم الفرصة المتاحة لهم بالحرية؟ يُجبر المرء على الوصول إلى استنتاج أنهم لا يفعلون ذلك. أصبح الدين شيئاً من طبيعة العرف الرمزي، مثلما نجده في فولكلور مختلف الأمم. ربما يلزم بعض الضغط إن كان على المسيحية أن تولد من جديد. الحماسة الدينية للمسيحيين في الديمقراطيات الشعبية تشير إلى قدر كبير منه. يتساءل المرء فحسب إن لم تكن حماستهم هذه تشبه تقوّى فأر وقع في المصيدة، وإن لم تكن قد وصلت متأخرة قليلاً.

تقضي الأوامر الرسمية بإظهار الرعب العظيم للغرب. كل شيء هناك شيطاني: القطارات تتأخر دائماً، والمخازن فارغة، لا يملك أحد المال، والناس يلبسون ملابس رديئة، والتكنولوجيا التي يشيد الجميع بها لا قيمة فعلية لها. إن سمعت باسم كاتب أو موسيقي أو رسام غربي عليك أن تضحك بتهكّم، لأن الكفاح ضد «العالمية»[1] هو أحد الواجبات الأساسية لكل مواطن. تُعرّف «العالمية» على أنها الإعجاب بالثقافة (البرجوازية) للغرب. اختُرع هذا المصطلح في موسكو، وهو ليس جديداً

(١) لم يكن مصطلح «العولمة» قيد الاستخدام في ذلك الوقت. (م)

في تاريخ روسيا. قبل مئة سنة، تكلّم المؤرخون القيصريون بنفور عن «الغرب المتفسخ». في هذا الغرب المتفسخ نفسه كان ماركس وأنغلز يكتبان في ذلك الوقت، ومن هذا الغرب ما ثبت لاحقاً ضرورة استيراد ليس كتاباتهم فقط بل اكتشافات أخرى أيضاً. في الممارسة، اتخذ الكفاح ضد العالمية في الديمقراطيات الشعبية شكل وصفات مفصّلة تشير إلى أيٍّ الكتاب الغربيين من الماضي (أولئك التقدميون في زمانهم) تمكن ترجمتهم، وأي اللوحات أو الأعمال الموسيقية (التي تم إبداعها عادة قبل ١٨٧٠) «صحية»، إلخ.

بغضّ النظر كم يمكن أن تسبّب هذه الأوامر التفصيلية من مشاكل للمحررين والناشرين والمخرجين الموسيقيين، فإن «الكفاح ضد العالمية» لم يكن من دون مبررات منطقية بالمطلق. دافعه في المركز واضح وجلي: ميزان المقارنة الواسع جداً كان متضارباً مع الصحة الأخلاقيةُ للمواطنين. في الديمقراطيات الشعبية، التي كانت عرضة للتأثير الغربي على مدى قرون، هي مسألة تخلص من عادات سيئة. يمكن لك أن تقطع مدخناً عن عادته عن طريق حرمانه من سجائره.

في محاولة لإقناع نفسه أن المركز ليس مخطئاً بالمطلق في مقارعة «العالمية»، يناقش المثقف هكذا: انتشر دين روما بشكل أو بآخر في معظم المنطقة التي يُزعم أن الحضارة الأوروبية نهضت فيها. البلدان التي تشكل اليوم الأقاليم الغربية من الإمبراطورية[1] كانت، وعلى مدى قرون، المحيط الشرقي لتلك الحضارة. نمو أوروبا المعاصرة، بتطوّرها المتزامن في التجارة والصناعة، يعمّق الصدع بين «أوروبا» و«تخومها الشرقية النائية». إن سُئل مواطن من آيوا أن يحدد ماذا يعني بكلمة «أوروبا» سوف يسمي على الأرجح فرنسا وهولندا وإيطاليا وألمانيا. ولن

(١) الإمبراطورية السوفيتية. (م)

يذهب أبعد من ذلك إلى الشرق، وسوف يتخيّل أن سكان تلك المنطقة عبارة عن قبائل متخلّفة غير جديرة بالثقة.

من الجائز أن هذا الرجل من آيوا هو نموذج عن «تخلّف تاريخي»، وأن أفكاره ناتجة عن مفاهيم لم تعد تتوافق مع الحقائق. ومع ذلك، فإن آراءه تقليدية، وهي في الحقيقة تعكس التحركات السياسية الأمريكية التي لا ترى في احتلال روسيا «التخوم الشرقية النائية» كخسارة يمكن أن تؤدي إلى عواقب خطيرة. لكن في النهاية فإنه في أوروبا الغربية تراكمت الثروة والنفوذ خلال قرون وظهرت هذه النماذج الثقافية التي انتشرت لاحقاً إلى الشرق. (على سبيل المثال، بُنيت القصور والكنائس البولندية على يد معماريين إيطاليين؛ الفن الشعبي البولندي صيغ على الطراز الباروكي؛ الشعر البولندي تبع بإعجاب القصائد الفرنسية؛ إلخ). كانت بلدان وسط وشرق أوروبا تقليدياً مناطق «علاقات هزيلة» شبه مستعمرة. سلوك الغرب تجاههم كان بالعموم يتسم بالاستعلاء، ولا يختلف كثيراً عن الآراء التبسيطية لمواطن آيوا.

إن المواطن البولندي أو التشيكي أو الهنغاري الذي يتمتع بتعليم متوسط يعلم كثيراً عن فرنسا وبلجيكا وهولندا. في حين أن الفرنسي أو البلجيكي أو الهولندي الذي يتمتع بثقافة متوسطة يعلم القليل فقط عن بولندا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا. يجد مواطن أوروبا الشرقية هذه الطريقة في سير الأمور غير منطقية، ويشعر بالتضامن بطريقة ما مع الروسي الذي لديه جولات قديمة غير سارة لتسوية الحسابات مع الغرب. على الرغم من سخطه من عقدة النقص الروسية، والتي قادتها إلى المطالبة بالولاء المستمر والتأكيد على تفوّقها الذي لا يرقى إليه الشك، فإن ازدراء الغرب لِـ أوروبا الوسطى والشرقية يزعجه أكثر بكثير، لأنه يبدو أنه ينبثق من نقص في تقدير تغير الحجوم والتوازن الذي حصل في القرن العشرين. لهذه الدول عدد كبير من السكان يتيح لها إمكانية لا لبس فيها

أن تؤقلم نفسها مع ضرورات التكنولوجيا المعاصرة. إنهم أغنياء بالموارد الطبيعية، ومناجمهم وصناعاتهم الثقيلة تتطور بسرعة. لم يعد عمالهم يشبهون المهاجرين اليائسين، الذين انطلقوا إلى الغرب للبحث عن لقمة العيش، وأجبروا لذلك على القبول بأدنى نوع من العمل اليدوي. يمكن لتقنييهم وباحثيهم التنافس بنجاح مع زملائهم الغربيين. لا يشكو كتابهم وموسيقيوهم من أي نقص في الموهبة.

والأكثر من ذلك، ومن كل وجهات النظر الممكنة، تبدو هذه الدول أهم جزء على الإطلاق، ليس في أوروبا وحدها، بل في كل العالم: إن افترضنا أن الإيمان الجديد سوف ينتشر في كل العالم، عندها ستكون أهم منطقة لهذه التجربة خارج روسيا نفسها. وإن افترضنا أن المركز سوف يخسر، عندها فإن نماذج الاقتصاد والثقافة التي سوف تظهر نتيجة لذلك في هذه البلدان سوف تكون جديدة بكل تأكيد، لأنه ليس هناك شيء في التاريخ يقول بالعودة إلى الوضع الراهن. عندها ألا يكون مبرراً للمرء التحقق من هذه العبادة للموديلات الغربية التي كانت سائدة للغاية بين الحلقات المثقفة في «التخوم الشرقية النائية»؟ لماذا يجري في براغ ووارسو تقليد رسام فرنسي معاصر، ولد في بلد يعيش على أمجاد الماضي؟ لماذا يجب أداء مسرحيات إنكليزية، كتبت لجمهور مختلف تماماً، في هذه العواصم الشرقية؟ على المرء أن يكسر هذه العادة بتقليد ما كان حتمياً عندما كانت عواصم فرنسا أو بلجيكا أو إنكلترا تستثمر في المناجم والسكك الحديدة والمعامل لِ «التخوم الشرقية»، وتدفع كتبها وأفلامها وأسلوب حياتها إليهم. ومثلما تقف الصناعة المؤممة اليوم على قدميها، كذلك على الثقافات الأوروبية الشرقية أن تتعلم أن تقوم بالاعتماد على قواها الخاصة.

للأسف، في محاولة تحرير نفسها من سحر الغرب، أصبحت الآداب والعلوم والفن في تلك التخوم معتمدة كلياً على الحاضرة

الجديدة. ما كان سابقاً تلقائياً وطوعياً في المحاكاة والتقليد صار الآن إلزامياً. أية محاولة ليجد المرء طريقه الخاص صارت تتهم بِـ التيتوية[1]. أية محاولة لأن يصل المرء إلى ماضيه الوطني الخاص ممكنة فقط إلى المدى الذي يكون فيه هذا الماضي يوازي تطور الأمة الروسية. يمكن للمرء بالتأكيد التوجه نحو الفلكلور، وإلى المسرحيات الواقعية للقرن التاسع عشر. لكن، على سبيل المثال، لِـ بولندا تقاليد في الدراما الرومانسية لا تصلح لأن تكون تمثيلية واقعية. كذلك تمتلك تقليداً في الإنتاج المسرحي يعرف باسم «المسرح التذكاري». الاستمرار في مثل هذه التقاليد سوف يوحي ببدعة خطيرة. إن الكفاح ضد «العالمية» ما هو في الحقيقة إلا فعل إفراغ إنبيق وملئه بسائل مختلف. في الماضي، تم خلق مادة استثنائية في هذا الإنبيق عن طريق التفاعل بين العناصر الوطنية والمستوردة. اليوم تظهر العناصر المستوردة في أنقى صيغة، لأن غالبية العاملين في المخبر حرصاء على الحفاظ على الاحترام اللازم للمعادلة.

في القرن الأخير، دان المؤرخون الوطنيون الروس «الغرب المتفسّخ» لأنه كان متحرراً، ولأن الأفكار التي تنبثق منه تهدد الحكومات الأوتوقراطية. ولم يكن هؤلاء المدافعون عن العرش هم الذين انتقدوه بلا رحمة فقط. ما على المرء إلا أن يقرأ كتاب تولستوي: ***ما هو الفن؟*** ليأخذ صورة عن الازدراء للحذلقة الغربية التي كانت تقليدية جداً بالنسبة للروس. اعتبر تولستوي أن مسرحيات شكسبير عبارة عن مجموعة من الجرائم الدموية، واللوحات الفرنسية (كانت هذه مرحلة ازدهار الانطباعية) عبارة عن مجرد تلطيخ ألوان منحط. بعد الثورة، عندما اختلف النظام الاجتماعي لِـ روسيا عن الغرب ثانية، لم يكن من الصعوبة بمكان توسيع هذه السابقة بعدد كبير من الحجج. ألا تكمن قوة روسيا

---

(١) نسبة إلى «تيتو» رئيس يوغسلافيا الذي طبّق شيوعية مستقلة عن الاتحاد السوفييتي. (م)

في تشكيكها بالغرب؛ وألم يكن حتى المؤرخون القيصريون يعملون من أجل الثورة عن طريق تشجيع الثقة بالنفس الروسية والإيمان بالدعوة المميزة للأمة؟ مدركين قواهم الكامنة حتى الآن، بدأ «**الحيثيون**»، كما دعا الشاعر الروسي العظيم بلوك أمته، بالتقدم أخيراً. لذلك بدا أن الأمم التي تقع بين بحر البلطيق والبحر المتوسط سوف تحسن الصنيع بمحاكاة الثقة بالنفس الروسية وبتحرير نفسها من العادة السيئة بالتقليد الببغائي للغرب.

يدرك المثقف بالطبع أنه هو نفسه «مواطن عالمي» منذ أن نظر إلى الغرب باحثاً عن *شيء ما*. ومع ذلك فهذا لا يعني أنه يتذمر من الأوامر التي طردت رسم الشوارع الباريسي، أو القصص البوليسية الأمريكية، من بلاده. كثير من الظواهر الثقافية التي تثير حماس «النخبة» في البلدان الغربية يجدها كريهة. إن سُئل إن كان يجب تقديم مسرحية تي إس إليوت: «*حفلة الكوكتيل*» في بلده الأم، فإنه سيجيب بـ «لا» بلا أدنى شك؛ في حين أنه يجد «*الأرض اليباب*» للكاتب ذاته قطعة شعرية مثيرة للاهتمام. المكتسب الجديد الذي لا يرغب الناس في بلدان وسط وشرق أوروبا في التخلي عنه هو الشعور بالمسؤولية تجاه ما يحصل عليه العامة من المحررين والمنتجين. على سبيل المثال، إن اعتبر أحدهم أن مسرحية ما سيئة، فعليه ألا يقدمها حتى لو كانت تعتبر ناجحة مادياً. (تخيل فقط عمال براغ أو وارسو يتفرجون على *حفلة الكوكتيل*!)، من ناحية أخرى، فإن حظرَ عمل سترافينسكي: «*طقوس الربيع*» سخيف بكل تأكيد. إنّ «عالمية» المثقف الذي أصفه هنا معتدلة جداً. إنه يفرق بين ما يستحق احترامه في الغرب وما يدين بنجاحه إلى شعبية رخيصة جذابة لذوق النخبة المريبة.

إن تفوق المدرسة الواقعية الروسية في الرسم (*بيرودوايزنيكي*) على الانطباعية الفرنسية تم إثباته في موسكو. للأسف، استخدمت العين في تقدير الرسم، لا يمكن للخطابات المدروسة بعناية أن تحول لوحة زيتية

بشعة إلى عمل فني عظيم؛ من البديهي أنه أمر مستنكر! في كل خطوة، سواء كانت في الميدان الجمالي أو الأخلاقي، يواجه المرء بالتناقض حيث تبرز غرابة وشذوذ الإنسان مقابل النظريات الأكثر حصافة. من المنطقي أن ولداً تربى بإحساس بالمسؤولية سوف يبلّغ عن والده إن لاحَظ أن تصرفاته تعاكس مصلحة النظام الاجتماعي الذي يتوقف عليه رفاه وسعادة البشرية جمعاء. ومع ذلك فإن القرف الذي يثيره مثل هذا التصرف عند كثير من الناس يتعذر تفسيره، تماماً مثل تفضيلهم مانيه على رسام روسي واقعي من القرن التاسع عشر.

إن التهور الذي ينفذ فيه الروس عملياتهم العقلية في الديمقراطيات الشعبية يصل إلى نسبة خطيرة. المنطق الثابت الذي يأمر المرء بتخطي حقيقة ما عندما يتعارض المفهوم مع الواقع سوف يقود في النهاية بلا ريب إلى أخطاء مكلفة. انبثقت حرب هتلر على «الفن المنحط» من البذرة نفسها مثل الأخلاقيات الجديدة لحزبه التي نظمت ذبح «الأعراق الوضيعة»؛ وفي هذه الأفكار بالتحديد كمنت أسباب هزيمته. بمعرفته أن المركز يطلب أن يكون هذا العلم أو الفن متطابقاً مع النهج بدلاً من البحث عن الحقيقة الموضوعية والجمال، توصل المثقف إلى نتيجة أنه ليست حكمة الغرب هي التي سوف تؤدي إلى انهيار الإمبراطورية، لكن بالأحرى هو الاختلال الذي يقودنا النهج إليه.

بإعلانه أن قانون الوراثة المندلي[1] خاطئ، استخدم المركز ثلاث مجموعات من الحجج تقريباً: ١) إنه يناقض التفسير الدياليكتيكي لنظرية داروين حول الاصطفاء الطبيعي للأجناس الحية؛ لأنه يضغط عناصر نظريته التي هي انعكاس للظروف الاجتماعية في زمن داروين، وتحديداً، الكفاح عديم الرحمة من أجل الوجود في ظل مجتمع

---

(١) نسبة إلى العالم مندل. (م)

رأسمالي. (في مكان الكفاح من أجل الوجود عند أجناس معينة، يمكن استبدال التعاون عند هذه الأجناس). ٢) لا يسفر عن نتائج عميلة مرضية في مجال الزراعة. ٣) يمكن أن يكون بمثابة أساس لنظريات عنصرية، نظراً لأن الفرد يمكن أن يكون «أفضل» أو «أسوأ» تبعاً لمورثاته. كل هذه الحجج تظهر الرغبة في أن تكون الواقعية هي كل ما يمكن أن يتمناه الإنسان. ومع ذلك ماذا سيحدث لو أن علم الوراثة المندلي ثبت اتساقه مع المراقبة العلمية؟ مهما ارتفع تصفيقه للمتحدثين الذين يدمرون علم الوراثة الغربي، فإن المثقف الشرقي تخامره الظنون بأنه الساذج المغفل في خدعة عظيمة تشبه خدعات الباحثين الألمان الذين أثبتوا علمياً أي شيء احتاجته النازية في أوقات معينة.

شكّل هذا خطوة في طريق الشك حول الطريقة الدياليكتيكية نفسها. ألا تقوم أحياناً على تفسير إشارات في الطبيعة والتاريخ وضعها المفسر بنفسه هناك بكل عناية؟ الدياليكتيكية هي بالتعريف «منطق التناقض» القابل للتطبيق، وفق الحكماء، على تلك الحالات حيث المنطق الشكلي غير كافٍ، تحديداً ما يخص الظواهر في الحركة. لأن المفاهيم البشرية بالإضافة إلى الظواهر المراقبة من قبل الإنسان هي في حالة حركة، «التناقضات المحتواة في المفاهيم ما هي إلا انعكاسات أو ترجمات إلى لغة الفكر، لهذه التناقضات المحتواة في الظواهر».

حسناً؛ وماذا عن المثال الذي استشهد به بليخانوف[1] لإثبات قصور المنطق الشكلي؟ أشار أحدهم إلى شاب بدأت لحيته للتو بالنمو وطالب بجواب على سؤال إن كان يملك أم لا يملك لحية. لا يمكن القول إنه لا يملك لحية، لأنه يملك بداية لها. ولا يمكن القول إنه يملك واحدة، لأنها ليست لحية بعد. باختصار، اللحية تتكون؛ إنها في حالة حركة؛

(١) مؤسس الماركسية الروسية. (م)

إنها عبارة عن كمية معينة من شعر شخص سوف تصبح يوماً ما كمية تسمى لحية. «إلى الجحيم» سوف يدمدم مثقفنا، «هذه ليست أكثر من تمارين حاخامية من القرن السابع عشر». لا يبالي الشعر الذي ينمو على ذقن شاب بالمطلق بما يمكن أن نسميه. ليس ثمة «تحول» هنا من «الكمية إلى النوعية»، كما يمكن للإيمان الإعلان بورع. تظهر مشكلة «لحية أم لا لحية» من اللغة التي نستخدمها، من نظامنا في التصنيف. ما هذا الغرور الذي لا حدود له أن ننسب إلى ظاهرة التناقضات التي نتخبط بها بسبب مفاهيمنا الخرقاء.

لكن هذه مسألة مهمة جداً. إن مصير **الإمبراطورية** متعلق بهذه الذقن التعيسة. إن تم إنجاز التحليل التاريخي بأسره وفقاً للآلية التي يعمل بها **النهج** على النوع نفسه من الخداع ـ وهذا يكون، إن تم وضع المفاهيم بداية، ومن ثم أخذ تناقضاتها على أنها تناقضات المادة تحت المراقبة ـ عندها فإن **الإمبراطورية** الجديدة يمكن أن تتعثر بنفسها في ألعابها البهلوانية.

ومع ذلك فإن المثقف الشرقي يرهبه **النهج**. كيف يمكن للمرء شرح هذا الأمر؟ يعترف لنفسه، من دون أن يقر بذلك لأي شخص، أن التزوير يوجد في قلب **النهج**. لكن هذا لا يمنعه من أن ينسب إلى **النهج** أي نجاح قد يحققه في العمل على مادة باستخدام تقنيات أخرى. يمارس **النهج** تأثيراً مغناطيسياً على الإنسان المعاصر لأنه وحده يؤكد، كما لم يحصل أبداً من قبل، انسيابية وتبادلية الظواهر. بما أن الناس في القرن العشرين يجدون أنفسهم في ظروف اجتماعية حيث حتى أكثر العقول غباء يمكن له أن يرى أن «الطبيعية» قد تم استبدالها بالانسيابية والتبادلية، والتفكير في أصناف الحركة يبدو أضمن الوسائل في فهم الواقع أثناء العمل. إن **النهج** غامض؛ لا أحد يفهمه بشكل تام؛ لكن هذا الأمر يعزز قوته السحرية. مرونته، كما يستغلها الروس، الذين لا يمتلكون فضيلة

الاعتدال، يمكن أن تنتج مع الوقت أكثر المراسيم ألماً. ومع ذلك، يرينا التاريخ أن العقل السليم المنطقي نادراً ما يكون دليلاً فعّالاً عبر متاهة الشؤون الإنسانية.

استفاد النهج من اكتشافات ماركس وإنغلز، من سخطهما الأخلاقي، ومن تكتيكات خلفائهما الذين أنكروا شرعية السخط الأخلاقي. إنه مثل الأفعى، وهي من دون أدنى شك مخلوق ديالكتيكي: «بابا، هل تملك الأفعى ذيلاً؟» يسأل طفل صغير. «لا شيء غير الذيل» يجيب الأب. يقود هذا إلى احتمالات غير محدودة، لأن الذيل يمكن أن يبدأ من أي نقطة. عندما يسأل نفسه لماذا لا يمكنه الهروب من إحراجه (حتى لو كان عليه أن يتمنى ذلك)، يجيب المثقف بأن مقياس دقة النهج يكمن في قوة هؤلاء الذين يحكمون باسمه. إنهم يعرفون كيف يشيدون بناء بجدران متحركة على أرض تهتزّ باستمرار من جراء الزلازل؛ في حين أن الغرب، الذي يفتقر إلى المخططات الهندسية الكاملة المماثلة، يتمسك بهندسة معمارية تقليدية تهدد بالانهيار. إن جدراناً معينة من المبنى الديالكتيكي هائلة جداً إلى درجة أنها تجعل السكان يخافون على مستقبل بناء بني بهذه الطريقة. لكن عندما يقارنونه بالمعمار الثابت للغرب، يقتنعون مع الوقت أن على البشرية برمتها الانتقال إلى شقق أكثر قابلية للحركة.

لذلك فإن تصرف المثقف الشرقي تجاه الغرب معقد، ولا يمكن اختزاله إلى صيغ من قبيل تعاطف أو نفور. إنه يشبه تقريباً حبّاً مخيباً للأمل، وكما نعرف، مثل هذا الخداع يخلف رواسب من التهكم. احتاج الأمر مثل تلك المصيبة لتمكين النظام الجديد، وبشكل مناقض كلياً لتنبؤات ماركس، ليولد في روسيا المتخلفة، وللثورة لتصبح مشروعاً يديره بيروقراطيو المركز وتتمدد بواسطة الغزو العسكري. احتاج الأمر مثل هذه المصيبة لإيصال الأمور إلى النقطة التي يتحتم على الأوروبيين

الذين يسعون إلى تغيير النظام القديم في بلدانهم، كذلك أيضاً بشكل مناقض لتنبؤات ماركس، إلى أن يخضعوا إلى أمة لم تعرف قط كيف تحكم نفسها، ولم تعرف في تاريخها قاطبة الازدهار أو الحرية. ما هذا المصير المرعب؛ أن يولد المرء في مثل هذه الحقبة! هذا ما يفكر فيه مثقفنا حتى في أثناء إلقائه خطبة حول «الشرف الأعلى» الذي يتيحه العيش في «العهد الستاليني العظيم». وظيفته، كما يمكن بالتأكيد له أن يسميها، هي «تطعيم» الآخرين بِـ «المبادئ الأساسية للحماس». لا يبدو من المستبعد تماماً بالنسبة له أن يخرج الغرب منتصراً في نزاعه مع النهج. ومع ذلك فإن النهج، الذي هو النسخة المنقحة لِـ ماركس، وفقاً للنماذج الروسية، على الرغم من احتوائه على نقاط ضعف كثيرة، يشكل سلاحاً قوياً في أيدي الحكام، أقوى من الدبابات والبنادق وحدها. وهو يعمل بشكل فعّال.

علّمت التجربة المثقف الشرقي أن يقيس تحركاته بعناية. لقد رأى كثيرين ممن سقطوا في هاوية الحرمان والأذية بسبب خطوة واحدة قاموا بها دون تفكير، أو مقال واحد متهور كتبوه. إن سقطت الإمبراطورية، فإنه قد يكون من الممكن في ظل الفوضى التي ستتلو ذلك إيجاد وسائل جديدة للبقاء على قيد الحياة والعمل. وحتى يحدث ذلك، على المرء أن يعمل بإخلاص لانتصار الإمبراطورية، مغذياً في السر الأمل بأن «غباء» الغرب ليس مطلقاً تماماً كما هو معتقد. لو أن الناس في الغرب يفهمون حقاً آلية «العهد الستاليني العظيم»، ولو أنهم يتصرفون فقط على هذا الأساس! كل شيء يشير إلى أنهم لا يفهمون ذلك. لكن، ربما، ربما سوف يفهمون؟

## الفصل ٣

# التقية

رسمياً، التناقضات غير موجودة في عقول مواطني الديمقراطيات الشعبية. لا يجرؤ أحد على كشفها علناً. ومع ذلك فإن السؤال عن كيفية التعاطي معها مطروح في الحياة الواقعية. يدرك أعضاء النخبة المثقفة ذلك أكثر من غيرهم. ويحلّون هذه المشكلة عن طريق تحوّلهم إلى ممثلين.

من الصعب تعريف نوعية العلاقات التي تسود بين الناس في الشرق بكلمة مناسبة أكثر من كلمة 'تمثيل'، مع استثناء أن المرء لا يمثل على خشبة مسرح بل في الشارع والمعمل والمكتب وقاعة الاجتماعات، وحتى في مكان سكنه. مثل هذا التمثيل هو حرفية متطورة تعلق أهمية قصوى على اليقظة العقلية. يجب تقييم كل كلمة قبل أن تغادر الشفتين لجهة عواقبها. ابتسامة تظهر في الوقت غير المناسب، نظرة ليست كما يجب، يمكن أن تُحدث شكوكاً خطيرة واتهامات. حتى إيماءات المرء، ونغمة الصوت، أو تفضيل نوع معين من ربطات العنق، تترجم على أنها علامات على ميول الشخص السياسية.

يُصدم الزائر القادم من الإمبراطورية عندما يأتي إلى الغرب. في اتصاله مع الآخرين، بدءاً من الحمالين إلى سائقي التاكسي، لا يواجه أي تصلّب. الناس الذين يلتقي بهم مسترخون تماماً. يفتقرون إلى ذلك التركيز الداخلي الذي يفضح نفسه في الرأس المطأطئ أو الحركة القلقة

للعينين. إنهم يقولون أية كلمات تخطر على بالهم؛ ويضحكون بصوت عالٍ. هل من الممكن أن تكون العلاقات البشرية صريحة إلى هذه الدرجة؟

يختلف التمثيل في الحياة الحقيقية عن التمثيل في المسرح لأن الجميع يمثل على الجميع، والجميع على معرفة تامة بأن هذا هو الحال. حقيقة أن الشخص يمثل لا تجحفه، وليست دليلاً على أنه غير مستقيم. لكن عليه أن يمثل جيداً، لأن مقدرته على الدخول في دوره بإتقان تثبت أنه بنى شخصيته التمثيلية على أسس كافية. إن ألقى خطاباً حماسياً ضد الغرب، فهو يثبت أنه يملك ١٠٪ من الكراهية التي يصرّح بها باستمرار بصوت عالٍ. إن دان الثقافة الغربية بفتور، فلا بد أنه مرتبط بها في الواقع. بالطبع، كل التصرفات البشرية تحوي مقداراً معيناً من التمثيل. يتفاعل الإنسان مع بيئته التي تشكله حتى في إيماءاته. ومع ذلك، ما نجده في الديمقراطيات الشعبية هو مسرحية لِـ وعي جماعي وليس محاكاة تلقائية. وعي يقوم بالتمثيل، إن تمرن عليه المرء مدة كافية، فإنه يحسن هذه الخصال التي يستخدمها المرء غالباً أثناء أداء دوره، تماماً مثل رجل يصبح عدّاء لأنه يمتلك ساقين جيدتين فيقوم بتحسين ساقيه أكثر بالتمارين. بعد التآلف مع دوره لفترة طويلة، يصبح المرء قريباً منه إلى درجة لا يعود بإمكانه معرفة الفرق بين نفسه الحقيقية والنفس التي يتظاهر بها، وهكذا يصبح حتى الأفراد الذين تجمعهم علاقات حميمة يتكلمون مع بعضهم بشعارات الحزب. إن مطابقة نفس الفرد مع الدور المفروض عليه أن يلعبه تجلب راحة وتسمح باسترخاء يقظة وحذر الإنسان. ردود الفعل المناسبة في اللحظة المناسبة تصبح تلقائية فعلياً.

يحدث هذا في الأدب أيضاً. إن شاعراً يكتب قطعة شعرية دعائية لا يقيّد نفسه بمقاربة منطقية صرفة. مشبع بفكرة أن الشعر المثالي يجب أن يتلاءم مع الإنشاد في كورس في اجتماع، يبدأ بدوزنة نفسه إلى طبقة

صوتية مناسبة للانفعال الجماعي قبل أن يتمكن من إطلاق نفسه في الكلمات. في المسرح، الممثل الذي يلعب دور الـ سيد[1]، على سبيل المثال، هو *السيد* على الخشبة. ومع ذلك فليس كل ممثل مهما كان شاباً وذا بنية قوية يمكن أن يمثل السيد؛ يجب أن يمتلك مقدرة فطرية على إطلاق نفسه عاطفياً في الدور. يمكن تعريف الشعر كما نعرفه على أنه مزاج الفرد بعد نفاذه من خلال موشور الأعراف الاجتماعية. وعلى العكس من ذلك فإن الشعر في ظل الإيمان الجديد يمكن تعريفه بأنه الأعراف الاجتماعية منعكسة من خلال مزاج الفرد. لهذا السبب نجد أن الشعراء الأكثر انسجاماً مع الوضع الجديد هم أولئك المنعم عليهم بموهبة مسرحية. يبتدع الشاعر شخصية الثوري النموذجي ويكتب أبياته الشعرية على طريقة المنولوغ لشخصيته المسرحية. لا يتكلم مخاطباً نفسه بل مخاطباً المواطن النموذجي. نتائجه تذكرنا بالأغاني التي كُتبت لتُغنّى في المسيرات بما أن الهدف هو نفسه؛ تشكيل القيود الجماعية التي تربط معاً رتلاً متقدماً من الجنود. الأمثلة الأفضل عن هذه الأشعار/ الشعارات هي قصائد معينة للشاعر الألماني بيرتولد بريخت، التي كانت متفوّقة على أعمال الشعراء الشرقيين الآخرين لأن بريخت كان على دراية كاملة بالعملية المسرحية المعنية.

على الرغم من أن تطابق المسرحية مع الفكرة/ الملكية الخاصة تبلغ مدى بعيداً جداً، فإن كمية كبيرة من الأمور المتخلفة غير المستوعَبة تبقى، ما يجبر المرء على البقاء حذراً. إن حفلة تنكرية عالمية مستمرة تخلق هالة من الصعب احتمالها، ومع ذلك فهي تضمن للمشاركين بها مقداراً ليس قليلاً من الرضا. أن يقول المرء بأن شيئاً ما هو أبيض في

---

(١) le Cid بطل ملحمة شعرية إسبانية من القرن ١٢، السيد لقب أطلقه عليه المغاربة، والمسرحية تحمل الاسم نفسه. (م)

حين أنه أسود، أن يبتسم بينه وبين نفسه عندما يكون جاداً خارجياً، أن يكره عندما يعلن الحب، أن يعرف عندما يدعي أنه لا يعرف، وهكذا يقوم بالتمثيل على خصمه باعتباره غبياً (مثلما يمثل عليك باعتبارك غبياً أيضاً)؛ تقود هذه الأفعال المرء لتقدير مكره الشخصي أكثر من أي شيء آخر. يصبح النجاح في اللعبة مصدراً للرضا. وبشكل متزامن فإن ذاك الذي نحميه من أعين الفضوليين يتخذ قيمة خاصة لأنه لا يمكن أبداً صياغته بوضوح على شكل كلمات باعتباره يمتلك السحر غير العقلاني للأشياء العاطفية البحتة. يتخذ الإنسان ملجأ في ملاذ داخلي، وكلما كان هذا الملاذ عزيزاً عليه زاد الثمن الذي يدفعه من أجل منع الآخرين من الدخول إليه.

لم يحدث التمثيل على مقياس مقارن كبير في التاريخ البشري. ومع ذلك، وفي محاولة وصف هذه التقاليد الجديدة، نمرّ عبر تشابه ملفت للنظر في الحضارة الإسلامية للشرق الأوسط. لم تكن مجرد لعبة تم لعبها بشكل جيد للدفاع عن أفكار الفرد ومشاعره وكانت معروفة جيداً هناك، لكنها بالفعل تحوّلت إلى مؤسسة دائمة وأُسبغ عليها اسم وهو: **التقية**.

ما هي التقية؟ وجدت وصفاً لها في كتاب بقلم غوبينيو عنوانه: ***الأديان والفلسفة لِـ آسيا الوسطى***. أمضى غوبينيو سنوات عدة في بلاد فارس (من عام ١٨٥٥ إلى ١٨٥٨ كان سكرتيراً في البعثة الفرنسية، ومن ١٨٦١ إلى ١٨٦٣ كان وزيراً فرنسياً)، ولا يمكن لنا أن ننكر موهبته في المراقبة الثاقبة، على الرغم من أننا لا نحتاج بالضرورة إلى أن نوافق على استنتاجات هذا الكاتب الخطير بلا شك[1]. إن التشابه بين التقية

---

(١) اعتمدت نظرية العرق الآري المتفوق على كتاباته. على الرغم من أنه لم يكن شخصياً نازياً. (م)

والعادات التي تم زرعها في بلدان **الإيمان الجديد** لافت للنظر إلى درجة أنّ عليّ أن أسمح لنفسي بالإطالة في الاقتباسات.

يعتقد المسلمون في الشرق أن «من يمتلك الحقيقة عليه ألا يكشف نفسه أو أقرباءه أو سمعته لجهل وشر هؤلاء الذين قد شاء الله أن يضعهم ويتركهم في الضلال». لذلك على المرء أن يبقى صامتاً عن قناعاته الحقيقية إن أمكن.

«على الرغم من ذلك»، يقول غوبينو، «هناك مناسبات حيث الصمت لا يعود يفي بالغرض، عندما يبدو كأنه إقرار. عندها على المرء ألا يتردد. ليس أن ينكر رأيه الحقيقي فقط، لكن مطلوب منه أن يلجأ إلى كل أنواع الحيل لخداع خصمه. عليه أن يقوم بكل أنواع التنديد بالإيمان الذي يمكن أن يرضيه، عليه أن يؤدي كل الشعائر التي يدرك تماماً أنها لا تحمل أية قيمة، وأن يزوّر كتبه المقدسة، وأن يستنفد كل الوسائل الممكنة للخداع. وهكذا يحرز رضا مضاعفاً وفضائل حماية نفسه وأقربائه، وعدم تعريض إيمان جليل لتماسٍ فظيع مع كافر، وأخيراً بكونه فرض عليه، عن طريق غشه للأخير والتصديق عليه في خطئه، وأن يفرض عليه العار والبؤس الروحي الذي يستحق».

«تملأ التقية الإنسان الذي يمارسها بالفخر. بفضلها يمكن للمؤمن أن يرفع نفسه إلى حالة دائمة من التفوّق على الشخص الذي يخدعه، سواء كان وزيراً أو ملكاً جباراً؛ بالنسبة إلى الإنسان الذي يمارس التقية فإن الشخص الآخر هو إنسان تعيس أعمى عليه أن يصرفه عن الطريق الحقيقي الذي لا يشك بوجوده؛ بينما أنت، ممزق الثياب وتموت من الجوع، ترتجف ظاهرياً عند أقدام قوة مغفلة، عيناك مليئتان بالنور، تمشي ببهاء أمام أعدائك. إنه كائن غير غبي ذاك الذي تلهو به؛ إنه وحش خطير ذاك الذي جردته من سلاحه. يا لغنى المتعة!».

إلى أي مدى من الممكن أن تذهب التقية؟ يشرح ذلك هادزي شيخ أحمد، مؤسس أحد المذاهب. على الرغم من أنه خلّف وراءه العديد من الأعمال الدينية، إلا أنه لم يقدم أبداً بشكل علني في كتبه، كما اعترف أكثر مريديه حماساً له، أي شيء يمكن أن يضع القارئ على طريق الأفكار التي تنسب له اليوم. إلا أن كل شيء يؤكد على أنه مارس التقية وأنه في السر كان جريئاً جداً ودقيقاً في إرساء النظام في المذاهب التي تحمل اسمه اليوم. «لذلك لا يمكننا أن نعجب إن لم نجد مسلماً حقيقياً في بلاد فارس». يعترف فارسي في محادثة مع غوبينو.

ليس الجميع حذرين مثل هادزي شيخ أحمد. بالنسبة إلى بعضهم فإن التقية مفيدة في الفترة التحضيرية، لكن عندما يشعرون بأنفسهم أقوياء بما فيه الكفاية، فإنهم يصرحون ببدعتهم علناً. هنا، على سبيل المثال، وصف الدعاة المتجولين لِ سادرا، تلميذ ابن سينا.

«كان هو أيضاً خائفاً من الملالي. كانت إثارة شكوكهم أمراً محتوماً، إلا أن تقديم دليل قوي على اتهاماتهم، سوف يعرضه لمضايقات لا نهائية، وأن يخاطر في الوقت نفسه بمستقبل إحياء الفلسفة التي يفكر فيها. لذلك توافق مع متطلبات عصره ولجأ إلى الوسيلة العظيمة والرائعة ألا وهي التقية. عندما كان يصل إلى مدينة كان يحرص على تقديم نفسه بتواضع إلى كل المجتهدين أو الأطباء في المنطقة. جلس في زاوية في صالوناتهم أو قاعاتهم، وبقي صامتاً معظم الوقت، وتكلم باعتدال، وافق على كل كلمة خرجت من أفواههم الموقّرة. عندما سئل عن علمه؛ عرض أفكاراً عامة استعارها من النظريات الدينية الشيعية المتشددة وبطريقة لا توحي أبداً أنه مهتم بالفلسفة. بعد أيام عدة، وبعد رؤيتهم له أنه خنوع ووديع جداً، جعله المجتهدون أنفسهم ينخرط في إعطاء دروس عامة. انطلق للعمل فوراً، وأخذ حرفياً تعاليم الوضوء أو أية نقطة مشابهة، وناقش في قضايا تافهة حول القواعد والشكوك الداخلية لباحثين

ثانويين. مثل هذا التصرف أسعد الملالي. امتدحوه وأثنوا عليه كثيراً؛ نسوا أن يبقوه تحت المراقبة. أرادوا هم أنفسهم أن يتركوه يقود خيالاتهم عبر تساؤلات أقل وداعة. لم يرفض. من تعاليم الوضوء عبر إلى تعاليم الصلاة، ومنها إلى تعاليم الوحي، من الوحي إلى الذات الإلهية وهناك، مع روائع الإبداع والكتمان، والثقة بأكثر التلاميذ تقدماً، وإنكار الذات، وعرض مقترحات ومسائل مبهمة، وقياسات منطقية خادعة حيث وحدهم الأعضاء المطلعون يمكن أن يجدوا طريقهم، وكلهم من المحنكين الذين لا يرقى الشك إلى إيمانهم، ينجح في نشر أفكار ابن سينا من خلال كل الصف الذي علمه؛ وعندما يعتقد في النهاية أنه يمكن أن يكشف عن نفسه بالكامل، ينزع حجابه، ينكر الإسلام، ويظهر نفسه الحقيقية كعالم منطق وميتافيزيقي».

لا تختلف التقية الإسلامية وتقية القرن العشرين في أوروبا بعضهما عن بعض إلا في نقطة واحدة فقط هي أن الجرأة التي سمح لنفسه بها سادرا كانت ستأخذه مباشرة إلى نهاية حزينة في أوروبا. ومع ذلك، فإن التقية بأشكال أضيق وأخطر قد مورست على نطاق واسع في الديمقراطيات الشعبية. وكما في الإسلام، فإن الشعور بالتفوق على هؤلاء الذين لا يستحقون الفوز بالحقيقة يشكّل متعة رئيسة عند أولئك الذين لا تزخر حياتهم بالمتعة بشكل عام. «الانحرافات الحزبية»، ذلك البحث الذي يسبب كثيراً من المتاعب للحكام، ليست أوهاماً. إنها حالات إماطة لثام عرضية للتقية؛ والأكثر فائدة في تتبع الانحرافات هم الذين مارسوا بأنفسهم أنواعاً مشابهة من التقية. بما أنهم يتعرفون في الحركات البهلوانية للآخرين على الحيل التي استخدموها بأنفسهم، فإنهم ينتهزون أول فرصة تسمح لهم للإيقاع بمعارض أو بصديق. وهكذا يحمون أنفسهم؛ ومقياس البراعة هو أن يستبقوا بيوم واحد على الأقل الاتهام المشابه الممكن رفعه ضدهم من قبل الشخص الذي يتهمونه. بما

أن تنوعات التقية غير محدودة عملياً، فإن تسمية الانحرافات لا يمكن أن تواكب عملية إزالة الأعشاب الضارة من حديقة مليئة جداً بأنواع مختلفة من البدع. كل شرح جديد لقواعد **الإيمان الجديد** يعلن عنه في **المركز** يضاعف التحفّظ الداخلي لهؤلاء الأكثر إخلاصاً خارجياً. من المستحيل تعداد كل أنواع التقية التي يمكن للمرء اكتشافها في الديمقراطيات الشعبية. سوف أحاول مع ذلك المضي قدماً إلى حد ما على طريقة عالم الطبيعة في تحديد المجموعات الرئيسة والفصائل.

***التقية الوطنية***: منتشرة على نطاق واسع بين الجماهير، وحتى الفئة العليا من **الحزب** ولا تخلو الدول المستقلة المختلفة منها. ولأن تيتو، مثل سادرا، أعلن بدعته لكل العالم، لذلك على الملايين من الناس في الديمقراطيات الشعبية استخدام وسائل فائقة البراعة لإخفاء أنفسهم. تنشر تعليمات مفيدة، مخصصة لإدانة أولئك الذين يرغبون في اتباع الطريق الطبيعية للاشتراكية في عواصم الدول الشرقية المستقلة، تعلم العامة ما هي نوعية العبارات وردات الفعل التي يمكن أن تعرض أحداً ما للتأنيب لإخفائها هذه الميول الخطيرة. الإجراء الوقائي الأكثر ضماناً هو الإعلان على الملأ عن توقيره إنجازات روسيا في كل ميدان من ميادين العمل، وأن يحمل الكتب الروسية تحت ذراعه، وأن يدندن الأغاني الروسية، وأن يصفق للممثلين والموسيقيين الروس بحماسة، إلخ. لا يمكن للكاتب الذي لم يكرّس عملاً واحداً للشخصيات الروسية البارزة، أو للحياة الروسية، في الوقت الذي حبس نفسه في الموضوعات الوطنية، أن يعتبر نفسه آمناً. الميزة الرئيسة للناس التي تمارس هذه التقية هي ازدراء لا محدود لروسيا كبلد همجي. هذا الأمر غالباً ما يكون عاطفياً بحتاً بين العمال والفلاحين، ويقوم على الملاحظة المباشرة إما لجنود جيش التحرير أو للروس في حياتهم اليومية (بما أنه خلال الحرب كان كثير منهم في مناطق تدار مباشرة من قبل الروس).

ولأنه حتى الآن فإن مستوى معيشة عامة الناس في روسيا أقل بكثير من مستوى معيشة الناس فيما يدعى بالديمقراطيات الشعبية، وجدت التقية الوطنية تربة خصبة. لا يمكن تعريفها ببساطة بكلمة 'وطنية'. على مدى قرون عديدة كانت هناك كراهية بين الشعوب السلافية في أوروبا الوسطى والألمان، ومع ذلك فهي ممزوجة بالاحترام من قبل السلاف للإنجازات المادية الألمانية. من الناحية الأخرى فإن مواطن أوروبا الوسطى، وهو يلمس عن طريق المقارنة التحضر الأكبر لعاداته ولقدراته التنظيمية الكبرى (سواء كان ذلك فقط في ما يتعلق بالنقل أو التعامل مع الآلات)، سوف يعبّر عن تصرفه تجاه روسيا، إن كان بإمكانه ذلك، عن طريق هز كتفيه بازدراء؛ وهو مع ذلك أمر لا يمنعه من الارتجاف بخوف من الحشود اللانهائية التي تتدفق خارجة من القارة الأورو ـ آسيوية.

إلا أن هذه التقية ليست عاطفية حصراً في جاذبيتها. نشأ في وسط الإنتيليجينسيا الشابة للطبقة العاملة رأي غالب يمكن تلخيصه باختصار بعبارة: «نعم للاشتراكية، لا لروسيا»؛ وهنا تبرز دقة الاختلافات العقائدية. يبدأ هذا الخط في التفكير كالتالي: إن بلدان أوروبا الشرقية هي أكثر استعداداً بلا حدود لتحقيق الاشتراكية من روسيا. سكانها أكثر ثقافة؛ معظم أراضيها مزروعة؛ أنظمة اتصالاتها وصناعتها أكثر تطوراً بكثير. الإجراءات المعتمدة على قسوة مطلقة غير ضرورية، لا بل لا جدوى منها بما أن هناك درجة كبيرة من الانضباط الاجتماعي. ومع ذلك فإن «الطريق الوطني نحو الاشتراكية» جرت إدانته وبُذلت جهود كثيرة لإثبات أنه مهما يكن من يعارض التبني التام للنماذج الروسية ويخضع للديكتاتورية الروسية هو خائن عليه أن يشارك مصير تيتو؛ وهو أن يظهر نفسه ضد المركز وهكذا يُضعف حربه المحتملة، والتي بدونها لن تكون هناك ثورة على نطاق العالم. أن يعلن أحدهم نفسه ضد هذه الفرضية أشبه بإنكار الإيمان الجديد وبإحلال إيمان مختلف مكانه، على سبيل

المثال يتم ربطه بشكل مباشر بِـ ماركس وإنغلز. العديد فعل ذلك. وغيرهم، وهم يروون في التحالف القائم بين تيتو والغرب مثالاً على نكبة تاريخية، ويرفضون فكرة أن هذه النكبة ربما تعود ببساطة إلى سياسة المركز تجاه الأمم المستقلة، أغلقوا على أنفسهم في التقية التي لا تعيق المركز في أفعاله الخارجية. المسلم الحقيقي، على الرغم من أنه مرتبط بعمق بتقيته، لا يسعى أبداً إلى إلحاق الضرر بالإسلام في المجالات التي يدافع فيها عن وجوده ضد الكفار. مثل هذه التقية تعبّر عن نفسها في خطوات عملية فقط لا تؤذي في الصراع العالمي، لكنها من ناحية أخرى تصون المصالح الوطنية كلما استطاعت.

*تقية النقاء الثوري* هي مجموعة متنوّعة نادرة، وهي أكثر شيوعاً في المدن الرئيسة في روسيا منها في الديمقراطيات الشعبية. إنها تقوم على إيمان بِـ «النار المقدسة لعهد لينين الثوري»، والتي تلتهب في شاعر مثل مایاكوفسكي. وضع انتحار مایاكوفسكي في عام ١٩٣٠ علامة فارقة لنهاية حقبة تميّزت بازدهار الأدب والمسرح والموسيقى. أُخمدت «النار المقدسة»، طُبق نظام العمل الجماعي من دون رحمة، وهلك الملايين من مواطني الاتحاد السوفيتي في مخيمات العمل الاستعبادية، وتم ترسيخ سياسة قاسية تجاه الأمم غير الروسية. أصبح الأدب فاتراً مملاً تحت تأثير النظريات المفروضة، ودُمر الرسم الروسي، والمسرح الروسي، الذي كان آنذاك الأول في العالم، حُرم من حرية التجريب، وخضع العلم لتوجيهات قادة الحزب. الإنسان الذي يعي ذلك يكرهه 'هو'[1] من صميم قلبه، ويحمّله هو مسؤولية النصيب المرعب للروس وللكراهية التي أثاروها عند الأمم الأخرى.

ومع ذلك، فهو ليس واثقاً تماماً إن كان 'هو' ضرورياً أم لا. ربما في

---

(١) ستالين. (م)

الحقب الزمنية غير العادية مثل وقتنا الحاضر فإن ظهور طاغية يجب اعتباره مرغوباً. حملات تطهير الجماهير حيث مات كثير من الشيوعيين الجيدين، تخفيض مستوى المعيشة للمواطنين، اختزال مستوى الفنانين والباحثين إلى وضعية «الموافق على كل شيء»، إبادة مجموعات قومية بأكملها؛ هل يجرؤ رجل آخر أن يأخذ على عاتقه مثل هذه الإجراءات؟ يجب ألا ننسى أن روسيا وقفت بصلابة ضد هتلر؛ قاومت الثورة هجوم جيوش العدو. من هذا المنظور تبدو أفعاله فعالة لا بل مبررة، ربما بسبب وضع تاريخي استثنائي. لو أنه لم يؤسس لرعب استثنائي عام ١٩٣٧، أليس من الممكن أن يكون هناك مزيد من الناس الراغبين في مساعدة هتلر أكثر مما وجد في الواقع؟ على سبيل المثال، أليس حقل الأبحاث والفنون في الوقت الحالي، بغض النظر عن مدى شذوذها وغرابتها أحياناً عن الحس السليم، رفعت أخلاقيات روسيا بفعالية في وجه الحرب التي تهددها؟ إنه لطخة شائنة على وجه **الإيمان الجديد** المشرق، لكنه عيب علينا احتماله الآن. بل إننا في الحقيقة يجب أن ندعمه. «النار المقدسة» لم تنطفئ. عندما يتحقق النصر، سوف تتفجر ثانية بكل قوتها القديمة، والقيود التي فرضها هو سوف تسقط، وسوف تُدار العلاقات بين الأمم وفق مبادئ جديدة أفضل. هذا النوع من التقية كان واسع الانتشار، إن لم يكن عالمياً ففي روسيا، خلال الحرب العالمية الثانية، وشكله الراهن هو إعادة ولادة الأمل الذي خدع به المرء نفسه من قبل.

***التقية الجمالية***: ولدت من التباين بين أهواء الإنسان وآليات الإحساس بالرضا التي يقدمها **الإيمان الجديد**. الإنسان الذي يمتلك ذوقاً لا يمكن أن يوافق على نتائج ضغوط رسمية في حقل الثقافة مهما صفق بإعجاب على أحدث القصائد، أو كم من الكتابات النقدية المعجبة التي سطرها عن المعارض الفنية القائمة، ولا حتى كم تظاهر بشكل مثابر أن

المبنى الكئيب الجديد يتوافق مع ذوقه الشخصي في فن العمارة. إنه يتغيّر بشكل كامل ضمن جدران منزله الأربعة. هناك يجد المرء (إن كان مثقفاً جيداً) نسخاً من الأعمال الفنية التي توصم رسمياً أنها برجوازية، وتسجيلات للموسيقى المعاصرة، ومجموعة غنية لأعمال كتاب قديمة بلغات متنوعة. رفاهية العزلة الرائعة هذه تغفر له ما دام أن عمله الإبداعي يشكّل بروباغاندا فعالة. لحماية موقعه وشقته (التي يملكها بنعمة الحكومة)، فإن المثقف مستعد لتقديم أية تضحية أو تسوية؛ لأن قيمة العزلة في مجتمع لا يمنح إلا القليل منها، هذا إن فعلها، لهي أعظم من القول المأثور «بيتي هو قلعتي»، ويمكن أن يقود المرء إلى التكهن. إن شاشات تلفزيونية باتجاهين[1] تركب في المنازل الخاصة لمراقبة سلوك المواطنين في عزلتهم ما زالت في علم المستقبل. وبالتالي، وعن طريق الاستماع إلى المحطات الإذاعية الأجنبية وقراءة كتب جيدة، يستفيد من لحظة الاستراحة هذه؛ هذا بالطبع إن كان وحيداً، لأنه حالما يصل الضيوف تبدأ المسرحية من جديد.

لم يحدث قط أن وضعت دراسة وثيقة عن مدى أهمية التجارب بالنسبة للإنسان لما ندعوه بشكل غير دقيق 'علم الجمال'. مثل هذه التجارب مرتبطة بالعمل الفني لعدد صغير لا يعتد به من الأفراد. تجد الغالبية متعة الطبيعة الجمالية في مجرد وجودهم في مجرى الحياة. في المدن، تلاقي العين واجهات عرض متاجر غنية بالألوان، وتنوع أنماط البشر. بالنظر إلى وجوه العابرين، يمكن للمرء أن يخمن من وجوههم قصة حياة كل منهم. حركة المخيلة هذه عندما يجتاز الإنسان حشداً من الناس فيها مسحة شهوانية؛ تكون عواطفه قريبة جداً من الأحاسيس الفيزيولوجية. يبتهج بالفساتين، وببريق الأضواء؛ بينما، على سبيل

---

(١) إرسال، استقبال. كما في رواية «١٩٨٤» لِ أورويل. (م)

المثال، الأسواق الباريسية بأكوامها من الخضار والزهور، والأسماك من كل صنف ولون، والفواكه، وجوانب مختصة باللحوم تنقط بكل درجات اللون الأحمر، كل هذا يقدم بهجة، لا يحتاج أن يبحث عنها في اللوحات الهولندية أو الانطباعية. يسمع نتفاً من ألحان، وارتجاج المحركات ممزوجاً مع تغريد الطيور، والتحيات والضحك. تهاجم أنفه روائح متغيرة: قهوة، بنزين، برتقال، هواء منعش، مكسرات محمصة، عطور.

كرّس الذين غنوا عن المدن الكبيرة صفحات عديدة لوصف هذا الانغمار المرح في حوض الحياة الكونية. السباح الذي يسلم نفسه للموجة، ويستشعر ضخامة العنصر الذي يحيط به يختبر عاطفة مشابهة. أفكّر بمغنّي المدينة العظماء مثل بلزاك وبودلير ووايتمان. سوف يبدو أن القوة النشطة والمتحمسة لهذه المشاركة في حياة الجماهير تنبثق من الشعور بـ *قوة كامنة*، من فجائية مستمرة، من غموض لا ينفك يطارده المرء.

حتى حياة الفلاحين، على الرغم من أنها متبلدة بفعل العمل اليدوي المتوحش، تسمح للتعبير الجمالي في إيقاع العادات، وشعائر الكنيسة، واللوحات المقدسة، وأسواق المزارعين، والعادات المحلية، والزينة بالزهور الورقية، والنحت الشعبي، والموسيقى، والرقص.

تفقد المدن في بلدان الإيمان الجديد مظهرها السابق. تصفية الشركات الصغيرة الخاصة يعطي الشوارع مظهراً مؤسساتياً صلباً. النقص المزمن للسلع الاستهلاكية يجعل الجماهير موحّدة في كآبتها وموحّدة في عوزها. عندما تظهر المنتجات الاستهلاكية، فإنها تكون رديئة في النوعية. يشلّ الخوف الشخصية الفردية ويجعل الناس يكيفون أنفسهم قدر الإمكان مع النمط العادي في تحياتهم وملابسهم وتعبير وجوههم. تصبح المدن مليئة بنمط عرقي معيّن يحظى بقبول الحكام: رجال ونساء

متصلّبون قصار القامة، بسيقان قصيرة وأوراك عريضة. هذا هو النمط البروليتاري، المصقول إلى حد التطرف، بفضل المعايير الجمالية الملزمة. (نعلم أن هؤلاء الرجال المربوعين أنفسهم والنساء السمينات القصيرات يمكن أن يتغيروا كلياً تحت تأثير الأفلام واللوحات الفنية والموضة، لأن أمريكا أثبتت أن التواصل الجماهيري مهم بمثل أهمية الحمية، على الأقل في تقرير المظهر الجسدي). تعرض الشوارع والمعامل وأماكن الاجتماعات الأعلام الحمراء التي لا مفر منها والشعارات المرسومة. الأبنية الجديدة صروح ضخمة قابضة للصدر، الخفة والسحر في فن العمارة مدانان باعتبارهما شكليين. عدد التجارب الجمالية الممكن الوصول إليها بالنسبة إلى قاطن المدينة في بلدان **الإيمان الجديد** محدود بشكل غير مألوف. المكان الوحيد للسحر هو المسرح، لأن فتنة المسرح موجودة حتى لو تم التضييق عليها بمتطلبات الواقعية الاشتراكية التي تحدد كلاً من محتوى المسرحية والديكور. النجاح الشعبي الهائل لكتّاب مثل شكسبير يرجع إلى حقيقة أن خيالهم ينتصر حتى ضمن قيود الإعدادات الطبيعية لخشبة المسرح. الجوع لِـ *الغرابة* الذي هو عظيم جداً داخل **الإمبراطورية** يجب أن يتوقف عنده الحكّام؛ ومع ذلك لن يفعلوا على الأرجح، لأنهم يعتبرون أن مثل هذا التوق منسي من الماضي.

في القرى، حيث سوف يُلغى كامل نموذج الأعراف السابقة من خلال التغيير الذي لحق بالفلاحين وحوّلهم إلى عمال زراعيين، ما زال هناك ناجون متبقون لثقافات فلاحية فردية تراصفت ببطء على مدى قرون. ومع ذلك، ولنتحدث بصراحة، فإن الداعمين الأساسيين لهذه الثقافة كانوا عادة من الفلاحين الميسورين. المعركة ضدهم، وحاجتهم الناتجة عن ذلك للاختباء، يجب أن تقود إلى ضمور الأزياء الفلاحية وديكور الأكواخ وزراعة الحدائق الخاصة، إلخ. هناك تناقض واضح بين

الحماية الرسمية للفلكلور (كنوع غير مؤذٍ من الثقافة الوطنية مصمم لإرضاء الميول الوطنية) وضرورات البنية الاقتصادية الجديدة.

في هذه الظروف فإن للكتمان الجمالي كل الإمكانية للانتشار. يُعبر عنه ليس فقط بذلك التوق غير الواعي للغرابة الذي تم توجيهه باتجاه تسلية متحكم بها مثل المسرح والسينما والمهرجانات الفولكلورية، لكن أيضاً بأشكال متنوعة من التهرب من الواقع. لجأ الكتاب إلى النصوص القديمة، يعلقون على، ويعيدون تحرير، كتّاب قدماء. يكتبون كتباً للأطفال وهكذا يمكن لخيالهم أن يلعب بحرية قليلاً. اختار العديد منهم المهن الجامعية لأن الأبحاث في التاريخ الأدبي توفر ذريعة آمنة للغوص في الماضي ولمناقشة أعمال بقيمة جمالية عالية. تضاعف عدد المترجمين للنثر والشعر السالف ذكره. بحث الرسامون عن متنفس لاهتماماتهم في الرسوم التوضيحية لكتب الأطفال، لأن اختيار الألوان الصارخة يمكن تبريره بإغراء مخيلة الأطفال «الساذجة». مديرو المسارح، وهم يقومون بواجبهم عن طريق تقديم أعمال معاصرة سيئة، يسعون لتقديم، ضمن مجموعاتهم المسرحية، مسرحيات لِ لوب دي فيغا أو شكسبير؛ هذا يعني، مسرحياتهم التي يوافق المركز عليها.

بعض ممثلي الفن التشكيلي كانوا أكثر جرأة فقاموا بكشف تقيتهم إلى درجة ليست صغيرة بالإعلان عن الحاجة إلى الجمالية في الحياة اليومية، وبتأسيس معاهد خاصة لتصميم الأقمشة والمفروشات والزجاج والسيراميك للصناعة. هناك مال لهذه المشاريع، وقد وجدوا الدعم بين الديالكتيكيين الأكثر ثقافة في الطبقات العليا من الحزب. تستحق مثل هذه الجهود الاحترام إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه قبل الحرب العالمية الثانية كانت بولندا وتشيكوسلوفاكيا، بالإضافة إلى السويد وفنلندا، الدولتين الرائدتين في مجال الديكور الداخلي. ومع ذلك، ليس هناك أي سبب يفسر كيف أن ما تم تجاوزه على أنه من الشكليات في الرسم والعمارة يجبِ التساهل معه لأية فترة من الزمن في الفنون التطبيقية.

إن تبرير التقية الجمالية جلي: بما أن كل شيء موجه في الاقتصاد الاشتراكي، لم لا نتابع باتجاه إشباع للحاجات الجمالية للبشرية بشكل موجه أيضاً؟ من ناحية ثانية فإننا نتعدى هنا على المنطقة الغادرة للشيطان ألا وهي علم النفس. الاعتراف بأن عين الإنسان تحتاج إلى الألوان المبهجة، والأشكال المتناغمة، أو العمارة المضاءة المشمسة، هو بمثابة تأكيد على أن ذوق المركز سيئ. ومع ذلك، حتى هناك يمكن للمرء أن يرى تقدماً. لقد بدؤوا يشيدون ناطحات سحاب، مقتدين بتلك التي انتصبت في شيكاغو نحو عام ١٩٠٠. من المحتمل أنه في عام ٢٠٠٠ يمكن أن يدخلوا رسمياً الأشكال الفنية التي تعتبر معاصرة اليوم في الغرب. لكن كيف بإمكان المرء أن يُخمد فكرة أن التجارب الجمالية تبزغ من شيء عضوي، وأن تزاوج الألوان والتناغم مع الخوف من الصعب تخيّله مثل صعوبة تخيّل ريش ملوّن على طيور تعيش في التندرا الشمالية؟

***التقية الاحترافية***: يمكن تفسيرها بالشكل الآتي: بما أنني وجدت نفسي في ظروف لا يمكن لي التحكم فيها، وبما أنه لدي حياة واحدة زائلة، فإن عليّ أن أناضل بأقصى ما يمكنني. إنني أشبه بحيوان قشري ملتصق بصخرة في قاع البحر، تهبّ العواصف فوقي وتبحر السفن؛ إلا أن جهدي بالكامل منصبّ على البقاء متشبثاً بالصخرة، وإلا سوف تجرفني المياه وأهلك، من دون أن أخلف أي أثر ورائي. إن كنت عالماً فإنني سوف أحضر مؤتمرات حيث سوف أقدم تقارير ملتزمة بصرامة بخط الحزب. لكنني في المختبر سوف أتتبع أبحاثي معتمداً على طرق علمية، وفي هذا وحده يكمن هدف الحياة. إن نجح عملي، فإنه لا أهمية كبيرة للطريقة التي سيقدم بها ومن سوف يحظى بالمجد. إن الاكتشافات التي تنجز بهدف الوصول إلى بحث نزيه عن الحقيقة تدوم، في حين أن صراخ السياسيين زائل. على أن أفعل كل ما يطلبونه، يمكن

لهم استخدام اسمي كما يرغبون، طالما أنه بإمكاني الوصول إلى مختبر ومال لشراء المعدات العلمية.

إن كنت كاتباً، فإنني أشعر بالفخر من إنجازاتي الأدبية. هنا، على سبيل المثال، أطروحتي حول سويفت، بتحليل ماركسي. هذا النوع من التحليل، غير المترادف مع **النهج أو الإيمان الجديد**، يعطي إمكانية رائعة للنفاذ إلى أحداث تاريخية. كانت لِ ماركس عبقرية في الملاحظة. باتباعه يمكن للمرء أن يحصّن نفسه من الهجوم، لأنه في النهاية هو النبي؛ ويمكن للمرء أن يصرح بإيمانه بِ **النهج والإيمان الجديد** في مقدمة تحقق الوظيفة ذاتها التي يقدمها الإهداء إلى الملوك والقياصرة في الأزمنة القديمة. هاكم ترجمتي لشعر من القرن السادس عشر، أو روايتي التي تعود أحداثها إلى الماضي البعيد. ألا تحويان قيمة دائمة؟ هاكم ترجمتي عن الروسية. لقد تمت مراجعتها باستحسان وجلبت لي مبلغاً كبيراً من المال، مما لا شك فيه أن بوشكين شاعر عظيم، وأن قيمته لا ترتبط بحقيقة أن أعماله تستخدم في خدمته 'هو' اليوم كوسيلة من وسائل البروباغاندا. من البديهي أنه يجب عليّ أن أدفع مقابل حق ممارسة اختصاصي عن طريق كتابة عدد معين من المقالات والمحاباة كنوع من الضريبة. ومع ذلك فإن حياة المرء على هذه الأرض لا يتم الحكم عليها بسبب مديح عابر كُتب بسبب الحاجة.

ينبغي أن يظهر هذان المثالان عن التقية الاحترافية بوضوح حجم المشقة الصغير التي تخلقها بالنسبة للحكام. إنها مصدر قوة ديناميكية كبيرة وأحد أسباب الزخم الكبير نحو التعليم. الهدف هو تأسيس حقل خاص يمكن فيه إطلاق طاقة الفرد، واستغلال معرفته وحساسيته، وفي الوقت ذاته الهروب من مصير كونه موظفاً تحت رحمة التقلبات السياسية. ابن العامل الذي أصبح كيميائياً يُحدث تقدّماً *دائماً*. ابن العامل الذي أصبح عضواً في الاستخبارات يرتفع إلى السطح، حيث تبحر سفن كبيرة

لكن حيث البحر متبدل وعاصف. لكن الأهم من كل هذا أن التجارب الكيميائية والجسور وترجمة الشعر والرعاية الصحية كلها خالية من الزيف بشكل استثنائي. تستغل الحكومة بدورها هذه التقية لأنها تحتاج الكيميائيين والمهندسين والأطباء. صحيح أنه بين الفينة والأخرى يأتي من الأعلى تذمر مكتوم من الكراهية ضد هؤلاء الذين يمارسون التقية في حقل الدراسات الإنسانية. هاجم فادييف، المراقب الأدبي لِـ موسكو، جامعة لينينغراد؛ لأن أحد طلابها كتب أطروحة حول الشاعر الإنكليزي والتر سافيج لاندور. صرخ فادييف: «من يحتاج لاندور؟ من سمع باسمه قط؟» لهذا سوف يبدو أن الاعتدال واليقظة موصى بهما للذين يتبنون هذا الشكل من التقية.

***التقية المرتابة***: تنتشر بشكل واسع بين دوائر المثقفين. قد يجادل المرء بأن الطبيعة البشرية لا تعرف كيف تتعامل مع معرفتها أو كيف تحل مشاكل الإنتاج وتوزيع البضائع. المحاولات العلمية الأولى لحل المشاكل الاجتماعية، والتي حصلت في القرن التاسع عشر، مثيرة للاهتمام، إلا أنها ليست محكمة بما فيه الكفاية. حصلت مع ذلك بأيدي الروس الذين، وبما أنه لا يمكنهم التفكير بطريقة أخرى غير الدوغمائية، قد رفعوا هذه المحاولات الأولى إلى منزلة العقيدة. ما يحدث في روسيا والدول المعتمدة عليها يدل على نوع من الجنون، لكن ليس من المستحيل أن تتمكن روسيا من فرض جنونها على العالم بأكمله وأن العودة إلى العقل سوف تحصل ربما بعد مئتين أو ثلاثمائة سنة. عندما يجد المرء نفسه في وسط إعصار تاريخي، فإن عليه التصرف بأكثر ما يمكنه من التعقل والحصافة، أن يستسلم خارجياً لقوى بإمكانها تدمير كل الخصوم. لكن هذا لا يمنع المرء من إيجاد المتعة في المراقبة، لأن ما يراه المرء لم يسبق له مثيل بالفعل. لم يسبق للإنسان بالتأكيد أن خضع لمثل هذا الضغط، ولم يسبق له كذلك أن اضطر إلى التلوّي والتمعّج

ليكيّف نفسه مع قوالب مركّبة وفقاً لكتب لكنها بالتأكيد لا تناسب قياسه. كل قدراته الثقافية والعاطفية توضع قيد الاختبار.

من يتأمل هذا المشهد اليومي من النبذ والإهانة يمكن له أن يعرف عن الإنسان أكثر من أحد ساكني الغرب الذي لا يشعر بأي ضغط عدا الضغط المالي. إن تكديس هذا النوع من المراقبات هو نشاط البخيل الذي يحصي ثروته بالسر. بما أن هذه التقية مبنيّة على نقص كلّي في الإيمان بِـ النهج، فإنها تساعد المرء على التأكيد ظاهرياً على الخط الإلزامي عن طريق السماح بارتياب كامل، وبذلك تكون لديه المرونة لتكييف نفسه مع التكتيكات المتغيرة.

*التقية الميتافيزيقية*: تحدث عموماً في البلدان ذات الماضي الكاثوليكي. والأمثلة الأوضح عليها داخل **الإمبراطورية** نجدها في بولندا. تعتمد هذه التقية على الإيمان *"المرجأ"* بالمبادئ الميتافيزيقية للعالم. يعتبر الشخص المرتبط بهذه التقية العهدَ الذي يعيش فيه بأنه عهد معادٍ للميتافيزيقيا، ولهذا السبب هو عهد لا يمكن أن يبزغ فيه إيمان ميتافيزيقي. تتعلم البشرية أن تفكّر ضمن فئات عقلانية أو مادية؛ إنها مرهقة بالمشاكل اليومية ومتخبطة في حرب طبقية. الأديان الأخرى العالمية تتداعى، مخلفة وراءها حقبة من الأزمات، والأسوأ من ذلك، أنها تخدم في حماية النظام البائد. هذا لا يعني أن الإنسانية لن تعود إلى دين أفضل أو أكثر طهارة في المستقبل. ربما كان **الإيمان الجديد** مطْهراً لا غنى عنه؛ ربما كانت مقاصد الرب قد اكتملت من خلال البرابرة، أعني **المركز**، الذي يجبر الجماهير على الاستيقاظ من خمولها. الأجر الروحي الذي تناله هذه الجماهير من **الإيمان الجديد** متدنٍ وغير كافٍ. ومع ذلك فعلينا الإشادة بدور **المركز** لفتحه آفاقاً جديدة ولتهديمه واجهات رائعة خارجياً إلا أنها متعفنة داخلياً. على الإنسان أن يتعاون في مثل هذه المهمة من دون أن يخون ارتباطه بِـ **السر الإلهي**. وأكثر من ذلك

لأن السر الإلهي ليست لديه إمكانية الظهور في الأدب على سبيل المثال، ولأنه لا اللغة ولا الأفكار التي يمكن للإنسان المعاصر تنظيمها ناضجة بما فيه الكفاية للتعبير عنه.

لهذه التقية الميتافيزيقية بدورها تنوعات عديدة. حتى في البوليس السري هناك ممارسون أكيدون للكاثوليكية، ويرجئون كاثوليكيتهم أثناء تنفيذ عملهم اللا إنساني. يقوم آخرون، في محاولة منهم للإبقاء على مجتمع مسيحي في صميم **الإيمان الجديد**، بإظهار كاثوليكيتهم علناً. وأحياناً ينجحون في الإبقاء على مؤسسات كاثوليكية، لأن الديالكتيكيين مستعدون لقبول ما يسمى كاثوليكيين «تقدميين» و«وطنيين»، الذين يذعنون في المسائل السياسية. اللعبة المتبادلة أكثر التباساً وغموضاً. يحتمل الحكّام مثل هؤلاء الكاثوليك كشرّ مؤقت لا بد منه، معللين ذلك بأنه لم نصل بعد إلى المرحلة التي يمكن للإنسان فيها محو الدين نهائياً، وأنه من الأفضل التعامل مع متعصبين ليّني العريكة من الآخرين صعبي المراس. ومع ذلك فإن «الكاثوليكيين التقدميين» يدركون أنهم قد تم تنزيل مرتبتهم إلى موضع غير مشرف بالضرورة، وهو الموضع الذي تجد فيه الشامانات أو الأطباء المشعوذين من القبائل المتوحشة الذين يجاريهم المرء ريثما يتمكن من إلباسهم سروالاً وإرسالهم إلى المدرسة. يظهرون في مختلف العروض الحكومية، وحتى إنهم يرسلون إلى الخارج كأدلة ساطعة على تسامح المركز تجاه الأعراق غير المتحضرة. يمكن للمرء أن يقارن أداءهم بذلك المتعلق بِ «الهمجيين النبلاء» الذي استوردته القوى الاستعمارية إلى العاصمة من أجل الاحتفال بالمناسبات الخاصة بالدولة. دفاعهم ضد الانحلال المطلق هو تقية ميتافيزيقية: إنهم يحتالون على الشيطان الذي يعتقد أنه يحتال عليهم. إلا أن الشيطان يعرف بماذا يفكرون وهو راضٍ.

ما يصح على هؤلاء الكاثوليك يمكن تطبيقه على أعضاء في أديان

أخرى، وكذلك على أشخاص خارج أي ملة. إحدى أكثر التهم شؤماً الملقاة على الكتّاب هي الاشتباه بأن أشعارهم أو رواياتهم أو مسرحياتهم تحتوي على «بقايا ميتافيزيقية». بما أن الكاتب هو إنسان متمدن لا يجرؤ أن يكون شامان أو مشعوذاً، فإن أقل إشارة إلى ميول ميتافيزيقية عنده تكون غير مغتفرة. الأدب في البلدان التي كانت حتى الحرب العالمية الثانية خارج سيطرة موسكو يفضح ميولاً شديدة في هذا الاتجاه، لهذا فإن للانحراف الميتافيزيقي أهمية ملحّة ومتواصلة للحكام. على سبيل المثال، المسرحية التي تقدم «غرابة» ما، كاشفة عن اهتمام المؤلف بمآسي الحياة، ليس لديها أي فرصة لأن يتم إنتاجها لأن تراجيديا مصير الإنسان تقود إلى أفكار حول غموض القدر البشري. يسامح المرء كتاباً معينين مثل شكسبير على هذه الميول، إلا أنه لا مجال للتشكيك بإمكانية السماح لكاتب معاصر بإخفاء مثل هذه الميول. لمثل هذه الأسباب لا تعتبر التراجيديا الإغريقية مناسبة للعرض المسرحي. أحب ماركس التراجيديا الإغريقية، لكن دعونا لا ننسى أن العلاقة بين ماركس **والإيمان الجديد** سطحية.

**الإيمان الجديد** هو إبداع روسي، والإنتيليجينسيا الروسية التي صممته قد وضعت أعمق درجة من الازدراء لكل الفنون التي لا تخدم الغايات الاجتماعية بشكل مباشر. إن الوظائف الاجتماعية الأخرى للفن، وهي الأكثر أهمية على الأرجح، تهرب باستمرار من فهمها. بخصوص الشعر، بما أن مصادره من الصعب تفريقها عن مصادر كل الأديان، فإنه يتعرض للاضطهاد بشكل فردي. صحيح أن الشاعر حر في وصف التلال والأزهار والأشجار، لكن إن شعر بذلك التمجيد الذي لا حدود له للطبيعة الذي استولى على وردزورث أثناء زيارته لِـ دير تينتيرن، سوف ينتابه الشك في الحال. هذه وسيلة ممتازة لإبادة الشعر ككل والاستعاضة عنه بأغانٍ أفضل قليلاً من تلك الإعلانات التجارية المغناة في أمريكا.

ويمكن مهاجمة الرسام بدوره بكل سهولة لاستخدامه أشكالاً مختصرة ومركبة (شكلية)، وبسبب الحب المفرط لجمال العالم، أو أي موقف تأملي يدل على أنه ميتافيزيقي بطبعه. يجب أن ينظر إلى الموسيقار من خلال أن مؤلفاته تمكن ترجمتها بسهولة إلى لغة الأنشطة المشتركة (الحماسة للعمل، المهرجانات الفولكلورية، إلخ)، وأنه لم يتبق لديه أي عنصر صعب على الإدراك وبالتالي يشكّل خطراً. إن كانت التقية الميافيزيقية متساهلاً بها عند «الهمجيين»، أي هؤلاء الذين يجاهرون بالديانة المسيحية، فإنه يعاقب عليها بشدة عند الفنانين الذين يعتبرون معلمي المجتمع.

*التقية الأخلاقية*: تنتج عن معارضة أخلاق **الإيمان الجديد**، التي تقوم على مبدأ أنه يمكن تعريف الخير والشر فقط من حيث خدمة أو إلحاق الأذى بمصالح **الثورة**. بما أن السلوك المثالي للمواطنين في علاقاتهم المتبادلة يساعد في قضية الاشتراكية فإن اهتماماً كبيراً ينصبُّ على الأخلاق الفردية.

«تطوير إنسان جديد» هو النقطة الرئيسة في برنامج **الإيمان الجديد**. إن المتطلبات التي وضعت على عاتق أعضاء **الحزب** قاسية جداً. يتوقع المرء منهم انضباطاً ذاتياً ليس بالقليل. وكنتيجة لذلك فإن الانتساب إلى **الحزب** لا يختلف كثيراً عن الدخول في منظمة دينية؛ ويعالج أدب **الإيمان الجديد** هذا الفعل بجاذبية مساوية لما يقوم به الأدب الكاثوليكي عند الحديث عن نذور الراهبات الشابات. كلما ارتفع موقع الشخص في السلم الوظيفي الحزبي يزداد الاهتمام بمراقبة حياته الخاصة. حب المال، الإدمان على المسكرات، أو حياة عاطفية مربكة، كلها تؤدي إلى حرمان عضو **الحزب** من تولي مناصب مهمة. وبالتالي تمتلئ المراتب العليا من **الحزب** من قبل أشخاص متقشفين يكرسون أنفسهم لقضية واحدة وهي **الثورة**. وكما بالنسبة لأدوات إنسانية معينة، محرومين من النفوذ الحقيقي

لكنهم مفيدون بسبب أسمائهم، حتى لو كانوا ينتمون إلى الحزب فإنه يتم التسامح وأحياناً تشجيع نقاط ضعفهم، لأنها تشكل ضمانة للطاعة. الأخلاق العامة المثالية لِـ **الإيمان الجديد** هي التزمت. لو أن هذا الأمر كان قابلاً للتنفيذ لكانوا أودعوا جميع المواطنين في زنزانات وأطلقوهم فقط للذهاب إلى العمل أو الاجتماعات الحزبية، سيكون هذا بلا شك أكثر ما يرغبون. لكن أيضاً، على المرء أن يعي الطبيعة البشرية. يحدث الإنجاب فقط كنتيجة للعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء، وعلى المرء أن يأخذ هذه العقبة بالحسبان.

يشترط بِـ «الإنسان الجديد» أن يعرف أن خير المجموع هو القاعدة الوحيدة لسلوكه. إنه يفكر ويتصرف مثل الآخرين؛ إنه متواضع وراضٍ بما تقدمه له الدولة؛ يقصر حياته الخاصة على ليالٍ يقضيها في البيت، ويقضي بقية وقته وسط رفاقه في العمل أو في المسرحية، وهو يراقبهم بعناية ويرفع تقارير عن أفعالهم وآرائهم إلى السلطات. إن التجسس كان وما زال معروفاً في كل الحضارات، إلا أن **الإيمان الجديد** قدّمه على أنه الفضيلة الرئيسة للمواطن الجيد (مع أن الاسم نفسه يتم اجتنابه بعناية). إنه أساس خوف كل إنسان من رفاقه. إن العمل في مكتب أو معمل صعب ليس بسبب كمية العمل الكبيرة المطلوبة فقط، لكن الأكثر من ذلك بسبب الحاجة إلى الاحتراس من العيون والآذان اليقظة الموجودة في كل مكان. يذهب المرء بعد العمل إلى اجتماعات سياسية أو محاضرات خاصة، وهكذا يطيل اليوم من دون لحظة استرخاء أو عفوية. قد يبدو الناس الذين يتحدث معهم المرء مرتاحين وغير مبالين، متعاطفين وناقمين، لكن إن بدوا كذلك، فإن ذلك فقط من أجل استثارة تصرفات مشابهة واستخلاص أسرار يمكن لهم رفعها في تقارير إلى رؤسائهم.

في التأثيرات الناجمة فإن هذه الطائفة من المجتمع تنتج شيئاً يسمّم

المجتمع نفسه. إن عقلية الحزب هي بالفعل غريبة نوعاً ما. يقدمون تنازلات في ما يخص نقاط الضعف الفيزيولوجية البشرية، إلا أنهم يرفضون الاعتراف أن للإنسان نقاط ضعف أخرى كذلك: بأنه يشعر بحالة جيدة إن أمكنه الاسترخاء، وبالتعاسة إن كان خائفاً، وأن الكذب سيئ بالنسبة له لأنه يخلق توتراً داخلياً. نقاط الضعف هذه، مع أشياء أخرى مثل الرغبة في زيادة حصة المرء على حساب حصص رفاقه، تحول الأخلاق التي قامت أساساً على التعاون والأخوّة إلى أخلاق حرب تحرض كل الرجال بعضهم ضد بعض، وتضمن فرصة البقاء والنجاة للأكثر احتيالاً. يبدو النصر في هذا الصراع الجديد وكأنه ينتمي إلى سلالة مختلفة عن تلك التي كان لها الحظ في الفوز في المعركة من أجل المال في الزمن المبكر من الرأسمالية الصناعية. إن كان بالإمكان تقسيم الكلاب التي تعض إلى فئتين رئيستين، صاخبة ووحشية، أو هادئة لكن ماكرة شريرة، فإن الفئة الثانية ستكون الأوفر حظاً في بلدان الإيمان الجديد. أربعون أو خمسون عاماً من التعليم في هذه القواعد الأخلاقية الجديدة لا بد أن تخلق أجناساً جديدة متعذرٌ إصلاحُها من البشرية. «الإنسان الجديد» ليس مجرد افتراض. لقد بدأ يتحول إلى واقع.

التقية الأخلاقية ليست نادرة بين الشخصيات الرفيعة في الحزب. هؤلاء الأشخاص، بغض النظر عن قدرتهم على قتل الملايين من الناس باسم الشيوعية، يحاولون التعويض عن شدتهم المهنية وهم غالباً أكثر احتراماً في علاقاتهم الشخصية من الناس الذين يولعون بالأخلاقيات الفردية. قدرتهم على التعاطف والمساعدة غير محدودة تقريباً. وبالفعل فإن هذه المشاعر نفسها من التعاطف هي التي دفعتهم في شبابهم في طريق الثورة، وفي هذا الأمر هم يكررون تجربة ماركس نفسه. نجد هذه التقية بشكل خاص بين الشيوعيين القدامى. الصراعات بين الصداقة ومصالح الثورة هي من الأمور التي ترهق ضمائرهم مطولاً؛ وهم عديمو

الشفقة فقط عندما يقتنعون تماماً بأنه، بحمايتهم صديقاً أو بالامتناع عن شجبه، فإنهم يلحقون الضرر بالقضية الأكثر أهمية بالنسبة لهم. على الرغم من أنهم عادة ما يحظون بالاحترام والتوقير بسبب صلاحهم الواضح، إلا أنهم ليسوا بمنجى من اتهام متكرر بـ «الثقافوية»، نعت ازدراء بالنسبة لأولئك الأبرياء مثل المنظرين، لكنهم مكبَّلون في العمل بسبب حساسية فائقة للاعتبارات الجمالية. على الثوري ألا يكون متردداً. من الأفضل قطع أشجار البشرية على عماها من التساؤل أي منها متعفن.

هذا النوع من التقية هو أحد الأكثر انتشاراً في الديمقراطيات الشعبية لأن الأخلاق الجديدة غرست في الذهن حديثاً، بينما الأخلاق التي تغلَّب عليها **الإيمان الجديد** كانت متخفية هناك منذ قرون. لا يمكن التنبؤ أبداً متى وعلى من سوف تظهر هذه التقية، ما يضمن لها عنصر المفاجأة. الأفراد الذين يعطونك كل الأسباب الكافية للظن أنهم لا يشجبون الآخرين يتضح أنهم مخبرون متأصلون؛ الأفراد الذين يبدون ظاهرياً كأنهم الأكثر ميلاً ليكونوا «مجحفين» يظهر فيهم ولاء غير متوقع لأصدقائهم وحتى للغرباء. بما أن هذه التقية تزيد الصعوبات في السيطرة على أفكار المواطنين، فإنه يتم التربص بها بجدية وتنال العقاب؛ ومع ذلك فإن عدد الحالات التي يمكن تطبيقها عليها كبير جداً، ما يجعلها في كثير من الأحيان تتملص من كل أنواع الضغط.

قليلاً ما يدرك سكان الدول الغربية أن ملايين من نظرائهم، الذين يبدون ظاهرياً مشابهين لهم تقريباً، يعيشون في عالم غريب كما لو أنهم من المريخ. إنهم غير مدركين لآفاق الطبيعة البشرية التي تطلقها التقية. إن الحياة في توتر داخلي متواصل تؤدي إلى تطور مواهب كانت مستترة داخل الإنسان. حتى إنه لا يتخيل إلى أي مدى يمكن أن يرتفع ذكاؤه وفطنته النفسية إن وجد نفسه محاصراً، وعليه إما أن يكون محنكاً ماهراً أو يهلك. نجاة الأفضل تكيفاً مع الألعاب البهلوانية العقلية يخلق نوعاً بشرياً كان نادراً حتى الآن. الضرورة التي قادت الناس إلى التقية تشحذ الفكر.

من يقيّم الحياة الفكرية في بلدان أوروبا الوسطى والشرقية بناء على المقالات الرتيبة التي تظهر في الصحف أو الخطابات المقولبة النمطية هناك، يقترف خطأً خطيراً. وتماماً كما عبّر علماء اللاهوت في الحقب الدينية المتشددة عن آرائهم من خلال استخدام اللغة الدينية للكنيسة، كذلك الكتّاب في الديمقراطيات الشعبية يستعينون بأسلوب خاص مقبول ومصطلحات وطقوس لغوية. ليس المهم ما يقوله شخص ما بل ما يريد قوله، تمويه أفكاره عن طريق إزالة فاصلة أو إدخال حرف العطف «و»، يثبت هذا الأمر أكثر من أي سياق آخر في المشاكل التي تُجرى مناقشتها. لا يمكن للمرء معرفة كم من المعارك الهائلة تخاض إن لم يعش هناك، وكم من أبطال التقية يتساقطون، وعلى من شن هذا الصراع. يقيناً إن الناس الذين يزج بهم في هذا الصراع اليومي يزدرون مواطنيهم المهاجرين السياسيين. لا يمكن للطبيب الجراح اعتبار الجزار مساوياً له في المهارة؛ ولهذا فإن البولندي أو التشيكي أو الهنغاري الذي يمارس فن التضليل يبتسم عندما يعلم أن أحدهم في المهجر يدعوه بالخائن (أو الخنزير) في الوقت نفسه الذي يكون فيه هذا الخائن (أو الخنزير) منخرطاً في مباراة شطرنج فلسفي يعتمد مصير خمسة عشر مختبراً أو عشرين مرسماً على نتائجها. لا يعرفون كم يدفع المرء؛ هؤلاء الذين في الخارج لا يعرفون. لا يعرفون ماذا يشتري المرء، وما هو السعر.

لا تخلو التقية، كمؤسسة اجتماعية، كلياً من المزايا. لتقييم هذه المزايا، على المرء فقط أن يلقي نظرة على الحياة في الغرب. الغربيون، وخصوصاً المثقفين الغربيين، يعانون من نوع خاص من *'تعب الحياة'*؛ حياتهم العاطفية والفكرية مشتتة جداً. كل شيء يفكرون أو يشعرون به يتلاشى مثل البخار في مدى مفتوح. تشكل الحرية عبئاً عليهم. لا تلزمهم أي نتائج يتوصلون إليها: ربما تكون كذلك، ثم ثانية ربما لا تكون. النتيجة هي قلق متواصل. ويبدو وكأن الأسعد من بينهم هم الذين صاروا

شيوعيين. يعيشون خلف جدار يضربون أنفسهم فيه باستمرار، لكنه يزودهم بالمقاومة التي تساعدهم في الدفاع عن أنفسهم. والبخار الذي كان يتلاشى في الهواء يصبح قوة تحت الضغط. بل إن قوة أكبر تتولد في هؤلاء الذين عليهم إخفاء إيمانهم بالشيوعية، وهم في هذه الحالة من يجب أن يمارس التقية، وهو عرف يبدو أنه في النهاية ليس غريباً عن بلدان الغرب.

بالمختصر، تعني التقية إدراك الذات ضد شيء ما. يعاني من يمارس التقية بسبب العقبات التي يلاقيها؛ لكن إن كانت هذه العقبات سوف تزول بشكل مفاجئ، فسوف يجد نفسه في خواء ربما يثبت أنه أكثر إيلاماً. أحياناً تكون الثورة الداخلية عنصراً أساسياً للصحة الروحية، ويمكن أن تخلق صيغة معينة للسعادة. ما يمكن أن يقال علناً غالباً ما يكون أقل أهمية من السحر العاطفي في الدفاع عن ملاذ الفرد الخاص. إن العيش بشكل مستمر في توتر وترقب هو عذاب بالنسبة لمعظم الناس، لكن العديد من المثقفين يتقبلون هذه الضرورة بمتعة مازوشية.

يكذب من يمارس التقية. لكن هل سيكون أقل خداعاً إن تمكن من قول الحقيقة؟ إن الرسام الذي يحاول تهريب متعة («ميتافيزيقية») محرمة في جمال العالم إلى لوحته عن الحياة في مزرعة تعاونية سوف يضيع إن أُعطي حرية مطلقة، لأن جمال العالم يبدو أعظم بالنسبة له كلما قلت الحرية التي يصوره بها. يلهم الشاعر بسبب ما يمكن له كتابته لو أنه غير مقيد بمسؤولياته السياسية، لكن هل يمكن له أن يدرك رؤاه لو كانت له الحرية ليكتب؟ تجلب التقية الراحة، تعزز الأحلام عما يمكن أن يكون، لا بل إن السياج المطوق يقدم إمكانية السلوى في أحلام اليقظة.

من يدري إن لم يكن في النقص في '*الجوهر*' الداخلي للإنسان يكمن النجاح الغامض لِـ **الإيمان الجديد** ولسحره بالنسبة للمثقف؟ عن

طريق تعريض الإنسان للضغط، فإن **الإيمان الجديد** يخلق هذا الجوهر، أو بأي حال الشعور بوجوده. الخوف من الحرية هو لا أكثر ولا أقل من الخوف من الخواء. «ليس هناك من شيء في الإنسان»، قال صديق لي، وهو ديالكتيكي. «لن يمكنه استخراج أي شيء من نفسه، لأنه ليس ثمة شيء هناك. لا يمكنك أن تترك الناس وتكتب في البرية. تذكر أن الإنسان هو من عمل القوى الاجتماعية. وكل من يتمنى أن يبقى وحيداً فهو هالك». ربما كان هذا صحيحاً، لكنني أشك إن كان بإمكاننا إطلاق أي اسم عليه أكثر من قانون زمننا الراهن. لو أنه شعر أن 'لا شيء' بداخله لما تمكن دانتي من كتابة ***الكوميديا الإلهية***، أو مونتين من كتابة ***المقالات***، ولا تمكن شاردان من رسم لوحة طبيعة صامتة واحدة. يعتقد الإنسان اليوم أن 'لا شيء' في داخله، لذلك يقبل '*أي شيء*'، حتى لو كان يعرف أنه سيء، حتى يجد نفسه متوافقاً مع الآخرين، لكي لا يبقى وحيداً. طالما أنه يعتقد بهذا الأمر، فلا يمكن للمرء أن يلومه على سلوكه. ربما من الأفضل له أن يولد تقية كاملة النمو، وأن يتعرض للضغط وهكذا يشعر بوجوده، من أن يحاول الاستفادة من حكمة العصور الماضية التي تُبقي هذا الإنسان مخلوقاً للرب.

لكن ربما على المرء أن يحاول العيش من دون تقية، وأن يتحدى القدر، وأن يقول: «إن خسرت، فعلي ألا أشفق على نفسي». ربما بإمكان المرء أن يعيش من دون ضغط خارجي، ربما بإمكان المرء أن يخلق توتره الداخلي؛ عندها يكون غير صحيح أن ليس ثمة شيء في الداخل. أن تأخذ هذه المخاطرة فذلك فعل إيمان.

## الفصل ٤

# ألفا، الأخلاقي

يحفل تاريخ العقود الأخيرة في أوروبا الوسطى والشرقية بحالات فيما يتعلق بأن كل الألقاب والاعتبارات النظرية تفقد المعنى. يتقرر مصير كل إنسان حسب الجهد الذي يبذله ليكون كفؤاً لهذه الأوضاع. وتختلف الحلول التي يقبلها تبعاً لتلك العوامل غير الملموسة التي تشكل شخصيته الفردية.

بما أن مصير الملايين هو أكثر وضوحاً في هؤلاء الذين، وبسبب مهنتهم، يمكن لهم ملاحظة التغيرات في أنفسهم وفي الآخرين، أي الكتاب، فإن بضع بورتريهات لكتاب أوروبيين شرقيين تقليديين يمكن أن تقدم أمثلة ملموسة عما يحدث داخل **الإمبراطورية**.

الرجل الذي أدعوه هنا **'ألفا'** هو أحد أشهر كتّاب النثر شرق نهر الإيلب. كان صديقاً مقرباً لي، وتربطنا ذكريات كثير من اللحظات الصعبة التي خضناها معاً. أجد من الصعوبة ألا أتأثر عندما أتذكره. حتى إنني أسأل نفسي إن كان عليّ أن أعرضه لهذا التحليل. إلا أنه يجب عليّ فعل ذلك لأن الصداقة لن تمنعني من كتابة مقال حول كتبه، حيث سأقول كلاماً يشبه ما أقوله هنا.

قبل الحرب، كان شاباً طويلاً نحيلاً بنظارات ذات إطار عظمي. كان ينشر قصصه في أسبوعية يمينية معينة ذات تقييم منخفض من قبل الدوائر الثقافية في وارسو، التي كانت مشكّلة بشكل رئيس من اليهود ومن

أشخاص ينظرون بنفور إلى النزعة العنصرية الاستبدادية لهذه المنشورات. محرر هذه الأسبوعية هو من اكتشفه إلى حد ما، ولديه كل الأسباب التي تجعله يهنئ نفسه على اختياره، لأن موهبة ألفا كانت تتطور بسرعة. خلال وقت قصير، بدأت روايته الأولى بالظهور بشكل متسلسل في الأسبوعية. نشرت لاحقاً في إحدى أهم دور النشر، وأثارت ضجة.

كان اهتمامه الرئيس منصباً باتجاه الصراع الأخلاقي التراجيدي. في ذلك الوقت كان العديد من الكتاب الشباب متأثرين بكتابات جوزيف كونراد. كان ألفا متأثراً بشكل خاص بأسلوب كونراد بسبب ميله لخلق شخصيات جادة ودينية كلاسيكية. سحره الليل. أشخاص صغار بعواطفهم القوية في ليل يضم صمته وغموضه أقدارهم في ثناياه الهائلة؛ هذه هي الصيغة المعتادة في رواياته وقصصه. أعماله في فترة شبابه تشبه أعمال كونراد في عالمها المهيب الصامت، مع شعور باتساع اللا إنساني. كان موقف ألفا ميتافيزيقياً وتراجيدياً. عذبته معضلة النقاء؛ النقاء الأخلاقي ونقاء جرس ما يكتب. قطّر جمله. أراد من كل جملة ألا تكون عبارة فحسب، لكن، ومثل مقطع من مقطوعة موسيقية، أن تكون غير قابلة للاستبدال ومؤثرة في صوتها الخاص.

هذه الحاجة إلى النقاء، ويمكنني القول من أجل نقاء أخروي أيضاً، أساسية لشخصياته؛ ومع ذلك فقد كان في علاقاته مع الناس متغطرساً ومتجبراً. يمكن ربط سعيه إلى النقاء في عمله بشكل وثيق مع غروره؛ الأول كان تساميه، أناه الأخرى، مستودع كل آماله. كلما زاد قلقه من حياته الخاصة الفوضوية، يزداد تقديره لنشاطه الخلاصي، وهو ما كانت كتاباته تشكل بالنسبة له، ويزداد في أن ينسب إليها طبيعة الشعائر الجليلة. المرتبة الوحيدة التي يمكن أن ترضي طموحه هي مرتبة كاردينال. حركات بطيئة، تدفق الحرير القرمزي، مد اليد من أجل تقبيل الخاتم؛ كان هذا بالنسبة إليه يشكل نقاء التحية، تعبيراً عن الذات من

خلال ذات أفضل. هناك ممثلون كوميديون يحلمون طوال حياتهم بتمثيل دور جدي وقور؛ كان في داخله دوافع مشابهة تلعب دورها. ألفا، الذي كان موهوباً بنعمة حس فكاهي استثنائي في المحادثات، تغير كلياً عندما بدأ بالكتابة؛ ثم سكن في أعلى خانة من التراجيديا. كان طموحه يتجاوز مجرد الشهرة ككاتب لكتب جيدة. أراد أن يكون سلطة أخلاقية.

الرواية التي أشرت إليها، والتي كانت نجاحه الكبير الأول، حظيت بترحيب واسع على أنها رواية كاثوليكية، وامتُدح على أنه أكثر الكتاب الكاثوليك موهبة، وهو أمر ليس بالصغير في بلد كاثوليكي مثل بولندا. من الصعب القول إن كان حقاً كاتباً كاثوليكياً. إن عدد كتاب القرن العشرين الكاثوليك ضئيل. ما يسمى بتحول أو انقلاب المثقفين عادة ما يكون ذا طبيعة ملتبسة، لا يختلف بشكل ملحوظ عن تحول عابر إلى السوريالية أو الوجودية أو التعبيرية.

كان ألفا من نوع الكاثوليكي الذي ينطبق على كثير منا. كانت هذه فترة من الاهتمام بِـ التوماوية[1] ومراجع جاك ماريتان[2] في المناقشات الأدبية. سيكون من الخطأ الاستمرار بالقول إنه بالنسبة لكل هؤلاء «المثقفين الكاثوليك» فإن الموضة الأدبية وحدها كانت موضع الرهان؛ لا يمكن اختزال حركات التشبث عند رجل يغرق إلى مجرد مسألة موضة. لكنه سيكون من غير الصحيح بالقدر ذاته اعتبار المناظرات الأدبية التي تقوم على تلاعب حاذق بالمصطلحات التوماوية كأحد أعراض

---

(١) النظام الفلسفي واللاهوتي للقديس توما الأكويني (القرن ١٣) وأتباعه، خصوصاً الدومينيكان. (م)

(٢) (١٨٨٢ ـ ١٩٧٣) فيلسوف فرنسي نشأ على المذهب البروتستانتي ثم ارتد إلى الكاثوليكية. ألف أكثر من ٦٠ كتاباً. ساعد في إعادة إحياء أعمال القديس توما الأكويني في العصر الحديث.

الكاثوليكية. ومهما كان الأمر، فقد صبغ المثقفون الكاثوليك دوائر ثقافية معينة. كان لهم دور سياسي خاص؛ كانوا خصوم العنصرية والشمولية. اختلفوا في هذا الأمر عن الأصوليين الكاثوليك، الذين لم تكن عقليتهم السياسية خالية تماماً من عبادة «الأنظمة الصحية» (كما في إيطاليا وألمانيا) ومن الموافقة على حفلة معاداة السامية. احتقر الشيوعيون تأثير جاك ماريتان وصنفوه بالمنحط، لكنهم تساهلوا مع «الكاثوليكيين المثقفين» لأنهم عارضوا أفكار الحق المطلق. مباشرة بعد نشره لروايته، بدأ ألفا بالتردد على دائرة «الكاثوليكيين المثقفين» واليسار. وبسبب شعور بالحساسية تجاه رأي الناس فيه، وبأخذه حق الكاتب بأن يكون سلطة أخلاقية بجدية شديدة، انفصل ألفا عن الأسبوعية اليمينية ووقع رسالة علنية ضد معاداة السامية.

يبحث كل شخص عن شيء مختلف في الكثلكة. ألفا، بحسه التراجيدي تجاه العالم، بحث عن القوالب: كلمات ومفاهيم، بالمختصر، بنية. هذا الحس التراجيدي فيه لم يكن يختلف عنه عند *الرجل الخفي* لِـ ويلز، الذي كان إن شاء الظهور أمام الناس عليه أن يلصق أنفاً مزيفاً، ويضع لفافات على وجهه، ويرتدي قفازات على يديه الخفيتين. أشبعت الكثلكة لغة ألفا. مكنته مفاهيم مثل الخطيئة والقداسة، اللعنة والنعمة، من الإحاطة بتجربة الشخصيات التي يصفها؛ والأكثر أهمية من ذلك، قدمت لغة الكثلكة بشكل أوتوماتيكي نبرة الصوت السامية التي كانت شديدة الأهمية بالنسبة له وسكّنت توقه لثوب الكاردينال القرمزي. بطل روايته كان كاهناً، دليل واضح على تأثير الروائيين الكاثوليكيين الفرنسيين، وعلى وجه الخصوص الكاتب بيرنانوس، ولكن كذلك تعبير عن رغبة ألفا في خلق شخصيات نقية قوية. تجري الأحداث في قرية، وهنا تكشف نقاط ضعفه نفسها. كان مشغول البال إلى درجة كبيرة ببناء صراع أخلاقي فلم يتمكن من رؤية

تفاصيل واقعية واضحة ولا من رصد حياة الناس. ولأنه تربّى في مدينة فهو لا يعرف إلا القليل فقط عن الفلاحين وحياتهم. القرية التي وصفها كانت قرية عالمية؛ يمكن أن تكون قرية في منطقة بريتاني وبالقدر ذاته يمكن أن تكون في منطقة الفلاندر، ولهذا السبب لم تكن قرية حقيقية. تبدو الشخصيات وكأنها ترتدي أزياء غريبة عنها (مثل النبلاء الشبان الذين يرتدون ثياب رعاة في الأدب الرعوي)، وكذلك كانت طريقة كلامهم متشابهة بشكل موحد.

تجري أحداث القصة على خلفية غير محبوكة بشكل جيد، إلا أن هذه الأحداث كانت مسبوكة بعضها ببعض بقوة وقد استقبلها النقاد بحماس. وصدرت طبعات عدة منها بسرعة. ونال عليها جائزة وطنية مما جلب له مبلغاً كبيراً من المال. من المحتمل أن لجنة تحكيم الجائزة لم تأخذ بعين الاعتبار المزايا الفنية للكتاب فقط، بل كذلك مزايا سياسية لأنفسهم باختيارهم له. في تلك السنوات، كانت الحكومة تغازل اليمين المتطرف واختيار ألفا بدا خطوة حكيمة. سيكون اليمين بالتأكيد راضياً؛ بينما الليبراليون لن يكون لديهم أي سبب لمهاجمة القرار لأنه في النهاية فإن كل إنسان حر في أن يؤمن كما يشاء وأن يكتب وفقاً لقناعاته.

على الرغم من الشهرة والمال إلا أن ألفا لم يكن في سريرته يعتبر روايته ومجموعته من القصص القصيرة على أنها كتب جيدة. ومع ذلك فإن المنصب الذي حازه سمح له أن يكون متغطرساً كما يحب أن يكون. كان يتم تقديمه على أنه مؤلف نثر عميق ونبيل، في حين أن زملاءه لا يمكن أن يأملوا بالوصول إلى جمهور واسع إلا عن طريق خلق إثارة رخيصة. كانت كتبهم إما أنها ذات طبيعة مبتذلة، خصوصاً في الأحاسيس الفيزيولوجية، أو أنها كانت كراريس فيزيولوجية متنكرة بشكل روايات. يعيش الأدباء في الغيتو الفكري لمقاهيهم الأدبية؛ وكلما ازدادت معاناتهم من عزلتهم عن حياة الجماهير تجد أن أسلوبهم يصبح أكثر غرابة وأقل

تفاصيل واقعية واضحة ولا من رصد حياة الناس. ولأنه تربّى في مدينة فهو لا يعرف إلا القليل فقط عن الفلاحين وحياتهم. القرية التي وصفها كانت قرية عالمية؛ يمكن أن تكون قرية في منطقة بريتاني وبالقدر ذاته يمكن أن تكون في منطقة الفلاندر، ولهذا السبب لم تكن قرية حقيقية. تبدو الشخصيات وكأنها ترتدي أزياء غريبة عنها (مثل النبلاء الشبان الذين يرتدون ثياب رعاة في الأدب الرعوي)، وكذلك كانت طريقة كلامهم متشابهة بشكل موحد.

تجري أحداث القصة على خلفية غير محبوكة بشكل جيد، إلا أن هذه الأحداث كانت مسبوكة بعضها ببعض بقوة وقد استقبلها النقاد بحماس. وصدرت طبعات عدة منها بسرعة. ونال عليها جائزة وطنية مما جلب له مبلغاً كبيراً من المال. من المحتمل أن لجنة تحكيم الجائزة لم تأخذ بعين الاعتبار المزايا الفنية للكتاب فقط، بل كذلك مزايا سياسية لأنفسهم باختيارهم له. في تلك السنوات، كانت الحكومة تغازل اليمين المتطرف واختيار ألفا بدا خطوة حكيمة. سيكون اليمين بالتأكيد راضياً؛ بينما الليبراليون لن يكون لديهم أي سبب لمهاجمة القرار لأنه في النهاية فإن كل إنسان حر في أن يؤمن كما يشاء وأن يكتب وفقاً لقناعاته.

على الرغم من الشهرة والمال إلا أن ألفا لم يكن في سريرته يعتبر روايته ومجموعته من القصص القصيرة على أنها كتب جيدة. ومع ذلك فإن المنصب الذي حازه سمح له أن يكون متغطرساً كما يحب أن يكون. كان يتم تقديمه على أنه مؤلف نثر عميق ونبيل، في حين أن زملاءه لا يمكن أن يأملوا بالوصول إلى جمهور واسع إلا عن طريق خلق إثارة رخيصة. كانت كتبهم إما أنها ذات طبيعة مبتذلة، خصوصاً في الأحاسيس الفيزيولوجية، أو أنها كانت كراريس فيزيولوجية متنكرة بشكل روايات. يعيش الأدباء في الغيتو الفكري لمقاهيهم الأدبية؛ وكلما ازدادت معاناتهم من عزلتهم عن حياة الجماهير تجد أن أسلوبهم يصبح أكثر غرابة وأقل

إمكانية لفهمه وإدراكه. المرارة التي أحس ألفا بها على الرغم من نجاح كتبه الأولى كانت شيئاً وجد أنه من الصعب عليه شرحه، لكن اللحظة التي أدرك فيها أن ثَمَّ شيئاً خاطئاً في كتاباته كانت لحظة حاسمة بالنسبة لبقية حياته.

هاجمه شك عظيم. إن كان زملاؤه قد شككوا بقيمة أعمالهم، وكأنها معلقة في الفراغ، فإن حيرته اتخذت درجة أكبر بكثير. كان يريد تحقيق نقاء نبرة أخلاقية، إلا أن النقاء، حتى يكون أصيلاً، عليه أن يكون دنيوياً، متجذراً بقوة في الخبرة والتجربة ورصد الحياة. لاحظ أنه يتخبط في الزيف بسبب عيشه في وسط أفكار حول الناس، بدلاً من أن يحيا بين الناس أنفسهم. ما يعرفه عن الإنسان كان مبنياً على تجاربه الذاتية الخاصة ضمن الجدران الأربعة لغرفته. لم تكن كتلكته أكثر من غطاء؛ لعب بها مثلما فعل العديد من كاثوليكيي القرن العشرين، محاولاً ستر عريه بعباءة العالم القديم المبجلة. كان يسعى إلى وسيلة ما لإيقاظ تجاوب عاطفي أراده لدى قارئه، وبالطبع فإن القارئ الذي وجد كلمات مثل خطيئة ونعمة معروفة لديه من طفولته، تجاوب بقوة. إلا أن ثمة عنصراً من عدم النزاهة في استخدام مثل هذه الكلمات والمفاهيم.

لم يعد ألفا يعرف إن كان الصراع الذي خلقه حقيقياً. وباعتبار أنه جرت الإشادة به ككاتب كاثوليكي، فقد أدرك أنه ليس حقيقياً؛ وكانت ردة فعله مثل ردة فعل رسام رسم التكعيبة لبعض الوقت ثم استغرب أنهم ما زالوا يدعونه بالرسام التكعيبي بعد أن غيّر أسلوبه. اعتبر النقاد، المخدوعون بالمظاهر، كتبه بين الكتب الصحية والنبيلة وتمثل نقيضاً للأعمال المنحطة لزملائه الكتاب. لكنه أدرك أنه ليس أكثر صحية من زملائه الذين على الأقل لم يحاولوا أن يخفوا عريهم المؤسف.

اندلعت الحرب، وأصبحت مدينتنا وبلدنا جزءاً من إمبراطورية هتلر. عشنا لمدة خمس سنوات ونصف السنة في بعد مختلف كلياً مما يمكن

لأي أدب أو تجارب أن تقودنا لمعرفته. ما رأيناه تجاوز أكثر الخيالات جرأة وبشاعة. وصف الرعب الذي نعرفه من الأقدمين يجعلنا الآن نبتسم على سذاجتهم. كان حكم ألمانيا لأوروبا وحشياً، إلا أنه كان أكثر وحشية في الشرق، لأن الشرق كان مسكوناً بأعراق مختلفة، وهذه الأعراق، وفقاً لعقائد الاشتراكية الوطنية[1]، يجب إما استئصالها تماماً أو استخدامها في الأعمال الشاقة. الأحداث التي أُجبرنا على المشاركة فيها كانت ناتجة عن الجهود التي بذلت لوضع تلك العقائد موضع التنفيذ.

ومع ذلك عشنا؛ وبما أننا كتّاب، فقد حاولنا أن نكتب. صحيح أنه من وقت إلى آخر كان يسقط أحدنا، ويرسل بعيداً إلى معسكر اعتقال أو يطلق عليه النار. لم يكن بالإمكان الحؤول دون هذا الأمر. كنا مثل أشخاص تقطعت بهم السبل على قطعة جليد طافية تذوب؛ لم نكن نجرؤ على التفكير في اللحظة التي ستذوب فيها بالكامل. امتلأت البيانات الرسمية للحرب بالموت في ما يخص أحدث المعلومات عن سباقنا هذا. كان علينا أن نكتب؛ كانت الكتابة دفاعنا الوحيد ضد اليأس. بالإضافة إلى ذلك، كانت البلاد برمتها مبذورة ببذار المؤامرة وقد وجدت بالفعل «حكومة سرية»، فلماذا إذاً لا يكون هناك أدب سري كذلك. باستثناء مجلتين أو ثلاث من البروباغاندا النازية، لم يكن هناك أي كتب أو مجلات طبعت بلغة الأمة الغالبة. على الرغم من ذلك فقد رفضت الحياة الثقافية في البلد أن تكون مخنوقة. كانت المنشورات السرية تنسخ في أماكن سرية متبدّلة أو أنها تُطبع بشكل غير قانوني في قطع صغير، ما يجعل من السهل توزيعها. نظمت العديد من الأمسيات الأدبية والمحاضرات في السر. حتى أن العديد من المسرحيات كانت تُعرض في السر. كل هذا رفع من أخلاقيات الأمة المهزومة المستمرة في

---

(١) الحزب الحاكم للنازية. (م)

القتال. الأخلاق الوطنية كانت جيدة، جيدة جداً، كما أثبتت الأحداث قرب نهاية الحرب.

في سياق هذه السنوات، حقق ألفا بنجاح طموحه لأن يكون سلطة أخلاقية. كان سلوكه سلوك الكاتب ـ المواطن النموذجي. أحكامه على أي من الأفعال مناسبة وأيها غير مناسبة كان يدور في الحلقات الأدبية وكأنها من أقوال عرّاف حكيم، وكان غالباً ما يطلب منه أن يقرر إن كان أحدهم قد انتهك الميثاق الوطني غير المكتوب. وصار من خلال تفاهم غير منطوق يشبه أن يكون قائد الكتّاب في مدينتنا. ذهبت التمويلات السرية إليه وقسّمها هو بين زملائه المعوزين؛ صادق كتاباً ناشئين؛ أسس وساعد في تحرير منشورات أدبية سرية، طبع نسخاً كانت ترسل بالتناوب إلى «أندية» حيث كانت تُقرأ بصوت عالٍ في اجتماعات تعقد في الخفاء. كان يوضع في مرتبة عالية نوعاً ما بين المنضوين حديثاً إلى أسرار الشبكة السرية. وُسمت أعماله بإنسانية حقيقية. حتى قبل الحرب افترق عن راعيه اليميني الذي أعرب عن رأي أن البلاد بحاجة إلى مأسسة شموليتها الخاصة بها. (أعدم الغستابو هذا الراعي في السنة الأولى من الحرب). عندما شرعت السلطات الألمانية بالقتل الممنهج لثلاثة ملايين يهودي بولندي، لم يشعر معادو السامية أنهم مضطرون أن يقلقوا أكثر من اللازم؛ دانوا علناً هذه الوحشية، إلا أن العديد منهم ظنوا سراً أنها ليست غير مبررة كلياً. كان ألفا من ضمن ساكني مدينتنا الذين كانت ردة فعلهم عنيفة ضد هذه المذبحة الجماعية. حارب بقلمه ضد لا مبالاة الآخرين، وساعد شخصياً يهوداً في الاختباء على الرغم أن مثل هذه المساعدة عقوبتها الموت.

كان معارضاً حازماً للقومية، المتجسدة بشكل مرعب عند الألمان. ومع ذلك فإن هذا لا يعني أنه كان يمتلك ميولاً شيوعية. إن عدد الشيوعيين في بولندا كان دائماً ضئيلاً؛ والتعاون بين الروس والألمان بعد

اتفاقية مولوتوف ـ ريبنتروب[1] خلق ظروفاً غير ملائمة بشكل خاص لنشاطات أتباع موسكو. الشيوعيون الذين كانوا يعملون في الخفاء كانوا ضعفاء. تحوّلت آمال الجماهير باتجاه الغرب، و«الحكومة السرية» كانت تعتمد على حكومة المنفى في لندن. ألفا، بحساسيته التي تشبه البارومتر في ما يخصّ الآراء الأخلاقية لبيئته، لم يشعر بأي تعاطف نحو بلد لم يستطع إيقاظ مشاعر الصداقة داخل أي أحد تقريباً. لكن ومثل الغالبية من أصدقائه، كان يتوق إلى إصلاح اجتماعي واسع وحكومة شعبية.

اعتدنا أنا وهو اللقاء غالباً. لن يكون من المبالغ فيه القول إننا أمضينا سنوات الحرب معاً. منظره وحده كان كفيلاً برفع الروح المعنوية للمرء. ابتسم في وجه كل محنة، وكان رابط الجأش؛ ولكي يعطي رمزاً لاحتقاره الجزمة العسكرية ذات النعل الممسمر والبذلة العسكرية وهتافات «يحيا هتلر»، كان يحمل عادة مظلة سوداء. قامته الطويلة الهزيلة، والبريق الساخر في عينيه خلف نظاراته، والمسحة المسيحية التي كان يجول فيها شوارع المدينة المبتلية بالرعب أعطت إضافة إلى الظلال الشبحية التي تحدت قوانين الحرب.

في إحدى المرات، في السنة الأولى للحرب، كنا عائدين من زيارة صديق مشترك يعيش في الريف. كنا نتجادل، كما أتذكر، حول اختيار القطار. قررنا ألاّ نأخذ بنصيحة مضيفنا الذي حثّنا على أخذ القطار الذي

---

(١) معاهدة وقّعت بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي عام ١٩٣٩، وسمّيت باسم وزيري خارجية البلدين، تضمّنت وقف الأعمال العدائية بين الطرفين، وعدم تدخل الاتحاد السوفيتي في الحرب الدائرة في أوروبا، ومعاملة ألمانيا بشكل مستقل عن اليابان التي كان الاتحاد السوفيتي في حرب معها. توقّف العمل بالمعاهدة عام ١٩٤١ عندما غزت ألمانيا النازية الاتحاد السوفيتي. هناك معاهدات مشابهة وقّعت مع العديد من الدول الأوروبية سبقت توقيع الاتحاد السوفيتي مثل بولندا (١٩٣٤) وإنكلترا (١٩٣٨) وفرنسا (١٩٣٨) وغيرها. (م)

يغادر بعد نصف ساعة. وصلنا إلى وارسو ومشينا في الشوارع ونحن نشعر بالرضا مع الحياة. كان صباحاً صيفياً جميلاً. لم نكن نعرف أن هذا اليوم سوف يتم تذكره على أنه أحد أكثر الأيام سواداً في تاريخ مدينتنا. ما إن أغلقت بابي خلفي حتى سمعت صراخاً في الشارع. نظرت من النافذة، رأيت مطاردة عامة تجري لاصطياد المطلوبين. كانت هذه أول حفلة صيد للبشر من أجل الترحيل إلى أوشفيتز[1]. وسوف يقتل ملايين الأوروبيين هناك لاحقاً، لكن في ذلك الوقت كانت معسكرات الاعتقال قد بدأت للتو بالعمل. من بين الأعداد الضخمة من الناس التي التقطت في ذلك اليوم من الشوارع يبدو أن لا أحد منهم تمكن من النجاة. كنا ألفا وأنا نتمشّى في هذه الشوارع منذ خمس دقائق فقط قبل بدء المطاردة، ربما جلبت مظلته ولا مبالاته لنا الحظ.

كانت هذه السنوات اختباراً لكل كاتب. دفعت التراجيديا الحقيقية للأحداث بتراجيديا المخيلة إلى الظل. كان يشعر أي منا بالعار إن لم يتمكن من إيجاد تعبير عن اليأس الجمعي أو الأمل. تبقت فقط المشاعر الأساسية الأولية: الخوف، والألم عند خسران أحد الأحبة، وكراهية الظالم، والتعاطف مع المعذبين. ألفا، الذي كانت موهبته في بحث مستمر عن تراجيديا حقيقية وليست متخيلة، استشعر المادة التي في متناول يده وكتب سلسلة من القصص القصيرة نشرت ككتاب بعد الحرب وترجمت على نطاق واسع. يمكن تحديد ثيمة كل هذه القصص بالإخلاص والولاء. لم يكن كونراد كاتب شبابه المفضل بلا سبب. كان هذا ولاء لشيء ما عند الإنسان، شيء لا يحمل اسماً، لكنه قوي ونقي.

---

(١) معسكر الاعتقال النازي الشهير في جنوب بولندا. يتألف من معسكرات عدة كانت تجرى فيها أعمال الإعدام بالغاز أو العمل القسري أو التجارب الطبية على السجناء وهم بغالبيتهم من اليهود ثم من الشعوب الأخرى وأسرى الحرب. استمر بالعمل من عام ١٩٤٠ حتى تحريره من قبل القوات السوفيتية عام ١٩٤٥. (م)

قبل الحرب، كان يميل إلى تسمية هذا الشعور الملحّ بالولاء أخلاقاً، بالمعنى الكاثوليكي. الآن، وهو يشعر بالزيف، أكّد فقط أن هذا الشعور الملحّ موجود. عندما كان أبطاله المحتضرون يديرون عيونهم نحو السماء الخرساء، لم يتمكنوا من إيجاد شيء هناك، كان بإمكانهم أن يأملوا فقط أن ولاءهم لم يكن بلا معنى بالمطلق وأنه، على الرغم من كل شيء، فإن شيئاً ما في الكون يتجاوب معه.

أخلاقيات أبطاله كانت أخلاقيات دنيوية، مع علامة استفهام، مع وقفة، وقفة لم تكن إيماناً تماماً. أظن أنه كان صادقاً في هذه القصص أكثر من كتاباته قبل الحرب. في الوقت ذاته، عبّر بدقة وقوة عن الحالة الذهنية لمقاتلين سريين لا يحصون ماتوا في المعركة ضد النازية. لماذا ألقوا بحياتهم في كفة الميزان؟ لماذا قبلوا التعذيب والموت؟ لم يكن لديهم ما يدعمهم مثل الفوهرر بالنسبة للألمان والإيمان الجديد بالنسبة للشيوعيين. من المشكوك فيه إن كان معظمهم يؤمن بيسوع المسيح. يمكن أن يكون ذلك ولاء فقط، ولاء لشيء يسمى أرض الأجداد أو الشرف، لكنه شيء أقوى من أي اسم. في إحدى قصصه، شاب صغير، عذّب من قبل البوليس، وهو يعرف أنه سوف يعدم، أعطى أسماء أصدقائه، لأنه خاف أن يموت وحيداً. التقوا أمام فرقة الإعدام، وسامح الذين تعرضوا للخيانة خيانته. هذه المسامحة لا يمكن تبريرها بأي أخلاق نفعية؛ ليس هناك أي سبب لمسامحة الخائن. لو أن كاتباً سوفيتياً كتب هذه القصة، فإن من تعرض للخيانة سوف يبتعد بازدراء عن الرجل الذي استسلم للضعف المنحط. بتخليه عن المسيحية، أصبح ألفا كاتباً متديناً أكثر مما كانه من قبل، إن اعتبرنا أن خصلة الولاء هي امتداد للأخلاق الدينية ونقيض لأخلاق الأهداف الجمعية.

في النصف الثاني من الحرب، وقعت أزمة خطيرة في الوعي السياسي لِـ «الحكومة السرية». تطلّب النضال السري ضد سلطة الاحتلال تضحيات عظيمة؛ وتصاعد بشكل مطّرد عدد الأشخاص الذين تم

إعدامهم أو تصفيتهم في معسكرات الاعتقال. إن تفسير الحاجة لمثل هذه التضحيات على قاعدة الولاء فقط يترك المرء فريسة للشك. يمكن للولاء أن يكون أساس تصرف الفرد، لكن عندما يجب اتخاذ قرارات تؤثر على مصير مئات الآلاف من البشر، فإن الولاء وحده ليس كافياً. يبحث المرء عن تبرير منطقي. لكن ما نوع التبرير المنطقي الممكن وجوده هنا؟ من الشرق كان الجيش الأحمر المنتصر يقترب. الجيوش الغربية كانت بعيدة جداً. باسم أي مستقبل، باسم أي نظام كان الشبان يموتون يومياً؟ أكثر من رجل ممن ألقوا على عاتقهم مهمة دعم أخلاقيات الآخرين طرح هذا السؤال على نفسه. ولم يكن بمقدور أحد صياغة جواب. الأحلام غير المنطقية بحدوث شيء يوقف تقدم الجيش الأحمر وفي الوقت ذاته يطيح بهتلر رُبطَت مع نداء لشرف «البلاد من دون متواطئ مع العدو»؛ لكن هذا لم يكن دعامة حقيقية بالنسبة لأولئك الأكثر رزانة عند تغيير رأيهم. في هذا الوقت بدأت المنظمات الشيوعية السرية بالعمل، وانضم إليها بعض الاشتراكيين من الجناح اليساري. قدم البرنامج الشيوعي حججاً أكثر واقعية مما فعل برنامج الحكومة السرية التي تديرها لندن: كانت البلاد، وبشكل واضح تماماً، سوف تتحرر بواسطة الجيش الأحمر؛ وبمساعدته علينا البدء بثورة جماهيرية.

فقد المثقفون في العمل السري صبرهم تدريجياً من التصرّفات غير العقلانية التي كانت تنتشر في حركة المقاومة. هذه اللا عقلانية بدأت تصل إلى درجة الهستيريا. أصبح التآمر غاية بحد ذاته؛ أن تموت أو أن تعرض الآخرين للموت، نوع من اللهو. وجد ألفا نفسه محاطاً بشخصيات كاريكاتورية حية تنتمي لأخلاق الولاء التي شرحها في قصصه. منعه الميثاق الوطني لطبقته من الاقتراب من المجموعات الصغيرة الذين تتبع سياساتهم إملاءات موسكو.

مثل العديد من أصدقائه، أحس ألفا بنفسه أنه واقع في مصيدة. وعندها، وللمرة الأولى في تاريخ كتاباته، استحضر حس الفكاهة لديه،

واستخدمه كي يبرز الشخصيات التي يعرفها جيداً، شخصيات رجال مهووسين بالتآمر. كشف هجاءه الخلفية الاجتماعية للهستيريا التي تحدث في العمل السري. لا مجال للشك أن «الحكومة السرية» كانت في النهاية من صنع يد الإنتلجينسيا، لطبقة اجتماعية لم تعرف من قبل في أوروبا الغربية، من دون الإشارة إلى البلدان الأنغلوساكسونية. وبما أن الإنتيليجنسيا، بعاداتها وروابطها، هي وريثة طبقة النبلاء (حتى لو كان بعض أعضائها من أصل فلاحي)، فإن صفاتها المميزة لم تكن جذابة بشكل خاص للمثقفين. قام مثقفو بولندا بعدة محاولات للتمرد على الإنتيليجينسيا التي كانوا بأنفسهم يشكلون جزءاً منها، مثل مثقفي أمريكا الذين تمردوا على الطبقة الوسطى. عندما يبدأ أحد أعضاء الإنتليجينسيا بالتفكير الفعلي، فإنه سوف يلاحظ أنه معزول عن الكتل الجماهيرية العريضة. وعندما يجد أن النظام الاجتماعي على خطأ، يميل إلى أن يكون راديكالياً في محاولة منه لإقامة رابط مع الجماهير. هجاء ألفا للإنتيليجنسيا المشاركة في العمل السري أقنعه أن هذه الطبقة، بانحرافاتها الكثيرة، تبشّر بالسوء لمستقبل البلاد إن كان حكام ما بعد الحرب سوف يجنّدون من بين صفوفها؛ الأمر الذي بدا حتمياً في حال وصلت حكومة المنفى في لندن إلى بولندا.

تماماً بينما كان يجتاز تلك المرحلة من السخرية المريرة العقيمة، اندلعت الانتفاضة. على مدى شهرين، ارتفع فوق وارسو عمود من الدخان واللهب بارتفاع كيلومتر. ومات مئتا ألف من البشر في حرب الشوارع. الأحياء التي لم تهدمها القذائف أو نيران المدفعية الثقيلة أحرقتها كلياً قوات الـ 'إس إس'[1]. بعد الانتفاضة، تحوّلت المدينة التي

---

(١) قوات النخبة النازية. وهي منظمة شبه عسكرية داخل الحزب النازي ضمت الحرس الشخصي لـ هتلر والبوليس السري والغيستابو وغيرهم. (م)

كانت ذات مرة يقطنها أكثر من مليون نسمة إلى برية من الأطلال، طرد سكانها، وشوارعها المهدمة تحولت حرفياً إلى مقابر. نجح ألفا، الذي كان يعيش في ضاحية تحدها الحقول، في الهروب من دون أن يناله أذى عبر منطقة الخطر التي كان الناس الهاربون يقبض عليهم فيها ويرسلون إلى معسكرات الاعتقال.

في نيسان/ أبريل ١٩٤٥، بعد أن طرد الجيش الأحمر الألمان (كانت المعارك حينها تدور على أسوار برلين)، عدنا ألفا وأنا إلى وارسو وتجولنا معاً فوق أكوام الأنقاض التي كانت يوماً شوارع. أمضينا ساعات عدة في جزء كان ذات مرة مألوفاً لنا من المدينة. والآن لم يكن بإمكاننا التعرف عليه. تسلقنا منحدراً من حجارة القرميد الأحمر ودخلنا عالماً قمرياً خيالياً. كان الصمت مطبقاً. بينما كنا نشق طريقنا إلى الأسفل، محاولين الحفاظ على توازننا كي لا نسقط، كانت تلوح أمامنا مشاهد متجددة باستمرار من الخراب والتدمير. في ممر ضيق تعثرنا بلوح خشبي صغير مثبت إلى قضيب معدني. النص المكتوب عليه بالدهان الأحمر أو بالدم يقول: «درب الآلام للملازم زيبيشيك». أعرف أين كانت أفكار ألفا في ذلك الوقت، وقد كانت أفكاري أيضاً: كنا نفكر بما هو الأثر الذي يتبقى بعد حياة الإنسان. دوت هذه الكلمات مثل صرخة إلى السماء من أرض محطمة. كانت صرخة للعدالة. من كان الملازم زيبيشيك؟ من قد يعلم من بين الأحياء ما هي المعاناة التي مر بها؟ تخيلناه يزحف على طول هذا الممر، حيث بعض رفاقه، الذين ربما قتلوا بدورهم منذ بعض الوقت، قد تركوا عليه هذا النص. رأيناه بينما كان يحاول، وبضغط كبير على إرادته، أن يحشد قواه الزائلة، وهو مدرك أنه مصاب بجروح خطيرة، يفكر فقط بتنفيذ واجبه. لماذا؟ من الذي يقيس حكمته أو جنونه؟ هل هو 'موناد' ليبتنز وهو يحقق قدره في الكون، أو أنه ابن ساعي بريد فقط، وهو يطيع الشرف الأعلى العقيم الذي غرسه فيه والده، الذي كان هو بنفسه يستجيب إلى فضائل التقاليد القاسية.

على مسافة أبعد وصلنا إلى ممر مشاة مهدم. كان يصل إلى صدع جبلي عميق. في الأسفل كان ينتصب صليب قصير مصنوع بشكل بدائي وعليه خوذة. في أسفل الصليب كانت هناك زهور مزروعة حديثاً. ابن أحدهم يرقد هنا. وجدت أمٌ طريقها إليه وأبلت الممر بزياراتها اليومية.

فجأة، كسر الصمت هديرٌ مسرحي. كان ذلك صوت الريح تهزّ الألواح المعدنية المعلقة على حائط يشبه الجرف. تسلّقنا بصعوبة كومة الحطام إلى فناء بيت لم يمسّه شيء. انتصبت آليات صدئة بين الأعشاب البرية المرتفعة. وعلى درجات الفيلا وجدنا بعض كتب المحاسبة تدرج قوائم أرباح وخسائر.

انتفاضة وارسو التي بدأت بأوامر من حكومة المنفى في لندن اندلعت، كما نعلم، في اللحظة التي كان فيها الجيش الأحمر يقترب من العاصمة وكانت الجيوش الألمانية المنسحبة تقاتل في ضواحي المدينة. أراد الجيش السري أن يحارب عندما شعر أن عالم المقاومة السرية قد وصل نقطة الغليان. أرادت الانتفاضة أن تطرد الألمان وأن تسيطر على المدينة وهكذا عندما يصل الجيش الأحمر سوف تستقبله حكومة بولندية قائمة على رأس عملها. ما إن بدأت المعركة في المدينة، وما إن بات واضحاً أن الجيش الأحمر، المتمركز على الجهة الأخرى من النهر، لن يتحرك لنجدة المتمردين، كان الأوان قد فات للتعقل. أتمت المأساة نفسها وفقاً لكل القواعد الثابتة. كان ذلك تمرد ذبابة ضد ماردين. انتظر أحد الماردين خلف النهر ريثما يقتل المارد الآخر الذبابة. في الحقيقة، لقد دافعت الذبابة عن نفسها، لكن جنودها كانوا مسلحين بمسدسات وقنابل يدوية وزجاجات البنزين فقط. أرسل المارد طوال شهرين طائراته القاذفة فوق المدينة لإسقاط تجمعاتهم من ارتفاع بضع مئات من الأقدام فقط؛ ودعم قواته بالدبابات والمدفعية الثقيلة. في النهاية، سحق الذبابة ليُسحق بدوره من قبل مارد ثانٍ صبور.

لم يكن ثمة سبب منطقي لروسيا كي تساعد وارسو. كان الروس يجلبون الغرب ليس للتحرر من هتلر فقط، بل للتحرر من النظام القائم، الذي أرادوا استبداله بنظام جيد، تحديداً بنظام آخر يخصّهم. «الحكومة السرية» وحكومة المنفى في لندن وقفتا في وجه إطاحتهم بالرأسمالية في بولندا؛ في حين أن خلف خطوط الجيش الأحمر هناك حكومة بولندية مختلفة تم تعيينها في موسكو كانت قد أصبحت في الحكم. يمثل دمار وارسو فوائد معينة لا جدال فيها. إن الناس الذين ماتوا في حرب الشوارع كانوا تماماً هم أولئك الذين يمكن أن يخلقوا مصاعب للحكام الجدد، الإنتيليجينسيا الشابة، التي صارت محنكة بسبب الكفاح السري ضد الألمان، ومتعصبة بالمطلق في وطنيتها. تحولت المدينة نفسها خلال سياق سنوات الاحتلال إلى معقل سري تحت الأرض مملوء بالمطابع المخبّأة وترسانات الأسلحة. هذه العاصمة التقليدية للثوار والعصيان المسلح كانت بلا شك أكثر مدينة متمردة في المنطقة ستجد نفسها تحت نفوذ المركز. كل ما يمكن أن يقال حول المساعدات إلى وارسو كان الرثاء على المليون نسمة الذين ماتوا في المدينة. إلا أن الرثاء لا لزوم له في حكم التاريخ.

كان ألفا الذي يمشي معي فوق أنقاض وارسو يشعر، مثلما شعر كل من نجا، بعاطفة واحدة مسيطرة: الغضب. رقد العديد من أصدقائه المقربين في القبور السطحية التي كثرت في تلك الأرض الشبيهة بسطح القمر. الشاعر كريستوفر ذو العشرين ربيعاً، مريض الربو النحيل، الذي لم يكن أقوى بدنياً من مارسيل بروست، مات في موقعه لقنص دبابات قوات الِإس إس. ومات معه أكبر أمل للشعر البولندي. أصيبت زوجته بربارة وماتت في المستشفى، وهي تقبض بيدها على مخطوطة لأشعار زوجها. الشاعر كارول، ابن حي العمال ومؤلف مسرحية عن هومر، مع رفيقه الذي لم يكن ينفصل عنه، الشاعر ماريك، انفجرا معاً على حاجز

نسفه الألمان. وعلم ألفا كذلك أن الإنسانة التي كانت أكثر ما يحبه في حياته قد رُحّلت إلى معسكر الاعتقال في رافينسبروك بعد إخماد الانتفاضة. انتظرها طويلاً بعد انتهاء الحرب حتى تَقبّل أخيراً فكرة أنها لم تعد على قيد الحياة. كان غضبه موجّهاً إلى هؤلاء الذين تسببوا بالكارثة، ذلك المثال المريع لما يمكن أن يحصل عندما يتقاطع الولاء الأعمى مع ضرورات التاريخ. وتماماً كما رنت كلماته الكاثوليكية كاذبة ذات مرة له، كذلك الآن فإن أخلاق الولاء عنده بدت مصطلحاً جميلاً إلا أنه أجوف.

في الحقيقة، كان ألفا أحد المسؤولين عما حصل. ألم يرَ عيون الشبان والشابات ترنو إليه وهو يقرأ قصصه في أمسيات الكتّاب السرية؟ هؤلاء كانوا الشبان والشابات الذين ماتوا في الانتفاضة: الملازم زيبيشيك، كريستوفر، باربارة، كارول، ماريك، وآلاف مثلهم. كانوا يعلمون أن لا أمل في النصر وأن موتهم ليس أكثر من تحية في وجه عالم لا مبال. لقد ماتوا دون حتى أن يسألوا إن كان ثمة ميزان ما يمكن أن توزن فيه أعمالهم. الفيلسوف الشاب ميلبراند، تلميذ هيدجر، المكلف بمتابعة عمل من قبل رؤسائه، طالب أن يُرسل إلى جبهة المعركة لأنه يؤمن بأن الهبة العظمى التي يمكن أن يمتلكها الإنسان هي لحظة الخيار الحر؛ بعد ثلاث ساعات كان ميتاً. لم يكن هناك حد لذلك السعار بالتضحية الطوعية بالنفس.

لم يلم ألفا الروس. ما الفائدة؟ كانوا قوة التاريخ. الشيوعية تحارب النازية؛ والبولنديون، بميثاقهم الأخلاقي الذي لا يعتمد على أي شيء عدا الولاء، تمكنوا من إقحام أنفسهم بين هاتين القوتين. جوزيف كونراد، ذلك البولندي النبيل المتعذر التحكم فيه! هو حتماً المثال لِـ وارسو التي أثبتت بوضوح أن لا مكان في القرن العشرين لحتمية الوطن أو الشرف ما لم يُدعما بغاية محددة ما. فكر ألفا أن على أخلاقيّ اليوم

أن يحول اهتمامه إلى أهداف اجتماعية ونتائج اجتماعية. لم يكن الثوار حتى أعداء في نظر الألمان، كانوا عرقاً وضيعاً يجب القضاء عليه. وكانوا بالنسبة للروس «بولنديين فاشيين». كانت انتفاضة وارسو أغنية الوداع بالنسبة للإنتيليجينسيا وللنظام الذي تدافع عنه؛ مثل التوجيهات الانتحارية للكونفدراليين أثناء الحرب الأهلية الأمريكية، لم تتمكن من تجنّب الهزيمة. مع سقوطها، كانت الثورة، من ناحية التأثير، قد أتمت مهمتها؛ في كل الأحوال، كان الطريق مفتوحاً. لم تكن هذه «ثورة سلمية» كما صرحت الصحافة في عهد الحكم الجديد في جهد منها لهدهدة الناس. كان ثمنها دموياً، كما يشهد دمار أكبر مدينة في البلاد.

لكن على الإنسان أن يعيش وأن يكون فعالاً بدل النظر إلى الخلف على ما قد مر. كانت البلاد مدمرة. بدأت الحكومة الجديدة العمل بنشاط في إعادة البناء، وإعادة عمل المناجم والمصانع، وفي تقسيم العقارات بين الفلاحين. واجهت الكاتب مسؤوليات جديدة. كان مجتمع بيت النمل البشري ينتظر كتبه بفارغ الصبر، وقد اهتز من سباته وحرّكته عصا الحرب الغليظة والإصلاحات الاجتماعية. لن نستغرب إذاً أن ألفا، مثل غالبية زملائه، أعلن فوراً رغبته في خدمة بولندا الجديدة التي انبعثت من رماد القديمة.

استُقبل بحفاوة من قبل حفنة البولنديين الشيوعيين الذين أمضوا سنوات الحرب في روسيا والذين عادوا لتنظيم الحكومة وفق قاعدة لينينية ـ ماركسية. حينها، كان ذلك في عام ١٩٤٥، تم الترحيب بسعادة بكل إنسان يمكن أن يكون مفيداً بغض النظر إن كان أحمر. كان القناع الخيّر الذي ظهر من خلاله الحزب وكذلك اعتدال شعاراته يرجعان إلى حقيقة أنه لم يكن هناك إلا عدد قليل بشكل استثنائي من الستالينيين في البلاد.

مما لا شك فيه أنه بالصبر فقط وبزيادة جرعات التعاليم بشكل

تدريجي يمكن جعل السكان الجاهلين يفهمون ويتقبلون **الإيمان الجديد**. منذ أن انفصل عن الأسبوعية اليمينية، نعِم ألفا برأي جيد في تلك الدوائر التي أصبحت الآن الأكثر نفوذاً. لم يوبخ لأنه ابتعد عن المجموعات الماركسية خلال الحرب؛ الكتّاب الذين حافظوا على مثل هذه الصلة يعدون على أصابع اليد الواحدة. والآن فإن كتّاب بولندا يشبهون قليلاً العذارى؛ يتمنّعن وهن راغبات. بياناتهم العلنية الأولى كانت حذرة ومضبوطة بحرص شديد. ومع ذلك لم يكن ما قالوه هو المهم. كانت أسماؤهم مطلوبة كبرهان على أن الحكومة مدعومة من قبل كامل النخبة الثقافية. كان الشيوعيون البولنديون قد وضعوا دراسة مفصّلة لبرنامج التصرف مع الفئات المختلفة من البشر بينما كانوا لا يزالون في موسكو؛ وكان برنامجاً ذكياً، مبنياً على معرفة وثيقة لظروف البلاد. كانت المهام الملقاة على عاتقهم صعبة بشكل غير عادي. لم تكن البلاد ترغب في حكومتهم. **والحزب**، وقد صار موجوداً من قبل الحرب، كان عليه الاعتراف والقبول بفكرة أن معظم أعضائه الجدد سيكونون من الانتهازيين. كان ينبغي السماح بقبول الجناح اليساري من الاشتراكيين في الحكومة. كان لا يزال من الضروري الاستمرار باللعبة المعقدة مع حزب الفلاحين، لأن الحلفاء الغربيين طالبوا بعد يالطا[1] بما يشبه التحالف على الأقل. لذلك كان العمل الذي يجب إنجازه بسرعة هو تجسير الهوة بين المجموعات الصغيرة من الشيوعيين والبلاد ككل؛ والذين يمكن أن يبنوا هذا الجسر هم الكتاب المشهورون الذين عرف عنهم أنهم ليبراليون أو حتى المحافظين منهم. كان لدى ألفا كل المتطلبات. ظهرت مقالته

---

(١) مؤتمر يالطا في شبه جزيرة القرم الذي عُقد عام ١٩٤٥ بين رؤساء الاتحاد السوفيتي وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية لمناقشة إعادة الاستقرار إلى أوروبا التي مزّقتها الحرب العالمية الثانية. (م)

على الصفحة الأولى من أسبوعية أدبية حكومية؛ كانت مقالة عن الإنسانية. كما أتذكرها، تكلم فيها عن أخلاق احترام الإنسان الذي جلبته الثورة.

في أيار/ مايو ١٩٤٥، في المدينة التاريخية كراكاو. لجأنا ألفا وأنا، مثل كثير من الكتاب والفنانين، إلى هناك بعد دمار وارسو. أضيئت الليلة التي جاءت الأخبار فيها عن سقوط برلين بانفجارات الأسهم النارية والقذائف، وأرجعت الشوارع صدى إطلاق الأسلحة النارية الخفيفة بينما كان جنود الجيش الأحمر المنتصر يحتفلون باحتمال العودة السريعة إلى الوطن. في الصباح التالي، في يوم ربيعي جميل، كنا نجلس ألفا وأنا في مقهى 'الفيلم البولندي'، نعمل على سيناريو. محاولة ربط نهاية مفككة لفيلم هو عمل مرهق؛ كنا نضع أقدامنا على الطاولة وعلى الكراسي؛ نتمشى في الغرفة؛ ندخن كثيراً من السجائر، وننظر إلى النافذة باستمرار من حيث كان يأتي تغريد العصافير. خارج النافذة كان ثمة فناء بأشجار صغيرة، وخلف الفناء كان هناك مبنى ضخم تحول مؤخراً إلى سجن وإلى مركز إدارة شرطة الأمن. رأينا أعداداً كبيرة من الشبان خلف قضبان النوافذ في الطابق الأرضي. بعضهم كان يمد وجهه باتجاه الشمس جاهدين لنيل القليل من أشعتها، آخرون كانوا يحاولون أن يصيدوا بصنارات من السلك قِطع من الورق قذف بها على الرمل من الزنزانات المجاورة. راقبناهم بصمت ونحن واقفان أمام النافذة.

كان من السهولة التخمين أن هؤلاء كانوا من جنود الجيش السري. لو أن حكومة المنفى في لندن عادت إلى بولندا لكان هؤلاء الجنود التابعون لِـ «الحكومة السرية» قد كرموا وقدموا كأبطال. بدلاً من ذلك، حبسوا على أنهم عنصر سياسي مشكوك فيه؛ إحدى نكات التاريخ الساخرة الأخرى. هؤلاء الفتية الذين كبروا برفقة بندقية في أيديهم وخطر دائم يحيط بهم، عليهم الآن أن ينسوا حسّهم المؤامراتي بالسرعة الممكنة.

نجح كثيرون في نسيان أنهم ادعوا أنهم لم ينشطوا أبداً في العمل السري. آخرون بقوا في الغابات، وعند الإمساك بأي منهم كان يرسل إلى ما وراء القضبان. وعلى الرغم من أن عدوهم كان هتلر، إلا أنهم الآن مصنفون كعملاء للعدو الطبقي. هؤلاء هم أشقاء الشبان الذين ماتوا في انتفاضة وارسو، الناس الذين يقع ذنب تضحيتهم الذاتية العمياء بأنفسهم على ضمير ألفا. لا أعرف بماذا كان يفكر وهو ينظر من تلك النافذة إلى زنزانات السجن. ربما كان حتى في ذلك الوقت يرسم المحاور الرئيسة لأول رواية له بعد الحرب.

كما توضح سيرته الذاتية الكاملة، كان طموحه دائماً بلا حدود. لم يكن قانعاً قط بأن يكون فرداً من ضمن كثيرين فقط؛ كان يحب أن يكون قائداً وبذلك يمكن أن يبرّر غطرسته الشخصية. الرواية التي كان يكتبها يجب أن ترفعه، كما كان يؤمن، إلى المكان الأول بين الكتّاب الناشطين في الظرف الجديد. كان هذا هو الزمن الذي كان يحاول فيه الكتاب تغيير أساليبهم وموضوعاتهم، لكن لم يكن بإمكانهم النجاح من دون إحداث تغيير مماثل أولاً في شخصياتهم. كان ألفا يمر بأزمة أخلاقية كانت شخصية بالنسبة له، لكنها كانت في الوقت نفسه تكراراً للصراع الذي عرفه كثير من مواطنيه. استشعر في نفسه قوة تتدفق من الدراما الفردية الخاصة به والتي كانت في الوقت نفسه تطاول الجميع. شعوره تجاه تراجيديا الحياة كان يبحث عن حلة جديدة ليظهر بها في العلن.

لم يخن ألفا إيمانه بنفسه. كانت الرواية التي كتبها نتاج موهبة ناضجة، وحققت تأثيراً كبيراً على قرائها. حام طوال حياته حول شخصية البطل القوي النقي. استخدم رجل دين في روايته ما قبل الحرب؛ والآن سحب ممثلاً لِـ الإيمان الجديد، شيوعياً قديماً شجاعاً أمضى العديد من السنوات في معسكر اعتقال ألماني وخرج منه غير مكسور الروح. عند عودته إلى وطنه المدمر، وجد البطل نفسه يواجه فوضى سوف يحولها

صفاء ذهنه وإرادته القوية إلى نظام اجتماعي جديد. أظهر المجتمع الذي كان يعمل على تغييره كل أنواع الانحلال الأخلاقي. الأجيال القديمة من الإنتلجنسيا، ذات الطموح الشخصي والإدمان على الشرب، كانت لا تزال تحلم بالمساعدة من الحلفاء الغربيين. شباب البلاد، الذين تم تعليمهم مبادئ الولاء الأعمى وتعودوا على حياة المغامرات في العمل السري، كانوا الآن ضائعين كلياً. بمعرفتهم أن لا أهداف للنشاط البشري عدا الحرب ضد العدو باسم الشرف، تابعوا التآمر ضد العدو الجديد، تحديداً الحزب والحكومة التي فرضتها روسيا. لكن بالأخذ بعين الاعتبار ظروف ما بعد الحرب، فإن الحزب كان القوة الوحيدة التي يمكن أن تضمن الأمن، وتعيد بناء البلد، وتمكن الناس من كسب رزقهم، وتعيد عمل المدارس والجامعات والسفن والسكك الحديدية. لا يجب على المرء أن يكون شيوعياً ليصل إلى هذه النتيجة؛ كانت واضحة وبديهية للجميع. إن قتل عمال الحزب، وتخريب القطارات التي تحمل الطعام، ومهاجمة العمال الذين يحاولون إعادة بناء المعامل، كان من شأن كل ذلك إطالة أمد الفوضى. وحدهم المجانين يمكن أن يرتكبوا مثل هذه الأعمال غير المنطقية العقيمة.

كانت هذه صورة ألفا للبلد. كان من الممكن أن ندعوها بقطعة من الصحافة العقلانية لو أنها لم تكن من أجل شيء طالما ميزه ككاتب: الشفقة، الشفقة على الشيوعي القديم كما على هؤلاء الذين اعتبروه عدوهم. ولأنه شعر بالتعاطف مع كل من هاتين القوتين، فإنه نجح في كتابة رواية تراجيدية.

مواطن ضعفه ككاتب، والتي ظهرت بوضوح في أعماله قبل الحرب، وضعته الآن في موقع جيد. موهبته لم تكن واقعية؛ أشخاصه تحركوا في عالم من الصعب تخيله. بنى صراعاً أخلاقياً عن طريق الإضاءة على التناقضات في شخصياته؛ لكن شيوعيه القديم كان نادراً

بقدر ندرة نموذج الكاهن في المشهد البولندي الذي جعل منه بطله قبل الحرب. يمكن للشيوعيين بشكل عام أن يُصوّروا كأشخاص ناشطين وأذكياء ومتعصبين وماكرين، لكن بالدرجة الأولى كأشخاص يتخذون من الأعمال الخارجية الظاهرة مجالاً لنشاطهم. لم يكن بطل ألفا رجل فعل؛ على العكس، كان صامتاً، صخرة جامدة غطى سطحُها الخارجي الحجري كلَّ ما هو إنساني؛ المعاناة الشخصية والتوق إلى الخير. كان شخصية تذكارية، زاهداً يعيش من أجل أفكاره. كان خجلاً من اهتماماته الشخصية، وبرفضه الاعتراف بألمه الشخصي فاز بتعاطف القرّاء. خسر زوجته التي يحبها بشدة في معسكر الاعتقال؛ والآن يجبر نفسه على متابعة الحياة بواسطة القوة الكبيرة لإرادته فقط، لأن الحياة بدت فجأة مجردة من أي معنى. كان عملاقاً بقلب ممزق، مليء بالحب والغفران. بالمختصر، برز كقوة محتملة قادرة على قيادة العالم نحو الخير. وفي الوقت الذي صارت فيه مشاعره وأفكاره في أنقى حالة مات، أطلق عليه النار شاب لم يره إلا عميلاً لموسكو فقط.

يمكن تفهم لماذا أراد ألفا، وهو الذي يعيش في بلد ما زالت فيه كلمة «شيوعي» تملك دلالة مسيئة، أن يصور بطله كنموذج للأخلاق السامية؛ إلا أن تلك الأخلاق يمكن تقييمها بشكل مناسب فقط عندما نراها تطبّق على مشاكل ملموسة، وفقط عندما يعامل أتباعها الناس كأدوات. بالنسبة إلى المجتمع الذي أراد الشيوعي القديم أن يغيّره، يمكن لمراقب دقيق أن يرى فيه إشارات إيجابية وليس مجرد أعراض تفسّخ وانحلال. الإنتليجينسيا، التي تمتلك تشكيلة من كل أنواع المختصين، انطلقت للعمل بحماس مثلها مثل العمال والفلاحين في إعادة تشغيل المعامل والمناجم والسكك الحديدية والمدارس والمسارح. كان يحكمهم الإحساس بالمسؤولية اتجاه المجتمع والكبرياء المهنية، وليس بدافع رؤية اشتراكية تتطابق مع الخطوط الروسية. ومع ذلك فإن

بقدر ندرة نموذج الكاهن في المشهد البولندي الذي جعل منه بطله قبل الحرب. يمكن للشيوعيين بشكل عام أن يُصوّروا كأشخاص ناشطين وأذكياء ومتعصبين وماكرين، لكن بالدرجة الأولى كأشخاص يتخذون من الأعمال الخارجية الظاهرة مجالاً لنشاطهم. لم يكن بطل ألفا رجل فعل؛ على العكس، كان صامتاً، صخرة جامدة غطى سطحُها الخارجي الحجري كلَّ ما هو إنساني؛ المعاناة الشخصية والتوق إلى الخير. كان شخصية تذكارية، زاهداً يعيش من أجل أفكاره. كان خجلاً من اهتماماته الشخصية، وبرفضه الاعتراف بألمه الشخصي فاز بتعاطف القرّاء. خسر زوجته التي يحبها بشدة في معسكر الاعتقال؛ والآن يجبر نفسه على متابعة الحياة بواسطة القوة الكبيرة لإرادته فقط، لأن الحياة بدت فجأة مجردة من أي معنى. كان عملاقاً بقلب ممزق، مليء بالحب والغفران. بالمختصر، برز كقوة محتملة قادرة على قيادة العالم نحو الخير. وفي الوقت الذي صارت فيه مشاعره وأفكاره في أنقى حالة مات، أطلق عليه النار شاب لم يره إلا عميلاً لموسكو فقط.

يمكن تفهم لماذا أراد ألفا، وهو الذي يعيش في بلد ما زالت فيه كلمة «شيوعي» تملك دلالة مسيئة، أن يصور بطله كنموذج للأخلاق السامية؛ إلا أن تلك الأخلاق يمكن تقييمها بشكل مناسب فقط عندما نراها تطبّق على مشاكل ملموسة، وفقط عندما يعامل أتباعها الناس كأدوات. بالنسبة إلى المجتمع الذي أراد الشيوعي القديم أن يغيّره، يمكن لمراقب دقيق أن يرى فيه إشارات إيجابية وليس مجرد أعراض تفسّخ وانحلال. الإنتليجينسيا، التي تمتلك تشكيلة من كل أنواع المختصين، انطلقت للعمل بحماس مثلها مثل العمال والفلاحين في إعادة تشغيل المعامل والمناجم والسكك الحديدية والمدارس والمسارح. كان يحكمهم الإحساس بالمسؤولية اتجاه المجتمع والكبرياء المهنية، وليس بدافع رؤية اشتراكية تتطابق مع الخطوط الروسية. ومع ذلك فإن

أخلاق المسؤولية لديهم ولّدت نتائج مهمة. كان تفكيرهم السياسي ساذجاً، وفي كثير من الأحيان كانت أخلاقهم تنتمي إلى عصر ماضٍ. ومع ذلك فقد كانوا هم، وليس الحزب، من كانت استجابته هي الأقوى في البداية. الجيل الشاب كان ضائعاً وبلا قيادة، إلا أن أعمالهم الإرهابية كانت على الأقل نتيجة اليأس أكثر من كونها نتيجة فساد في أخلاقهم. الشبان الذين شاهدناهم أنا وألفا من نوافذ السجن لم يكونوا هناك بسبب جرائم ارتكبوها، إنما بسبب خدمتهم في فترة الحرب في «الحكومة السرية» فقط. لم يتمكن ألفا من قول كل هذا بسبب الرقابة على المطبوعات، إلا أن تعبيره المشفق على هؤلاء الفتية يجيز للقارئ استنتاج ما لم يقله. ومع ذلك فإن فشله في تقديم حقيقة الأوضاع برمتها قلّب دوافع شخصياته.

كان كتابه محكوماً برمته بشعور من الغضب *ضد الفاشلين*. هذا الغضب كان جوهرياً لوجود ألفا والعديد من أمثاله. السلوك المتهكم تجاه أنتيليجنسيا العمل السري، الذي وسم القصص التي كتبها نحو نهاية الحرب، تجلّى الآن في فصول في الرواية سخرت من الآمال الحمقاء في تغيير سياسي مفاجئ. في الواقع فإن تلك الآمال، بغضّ النظر عن مدى حماقة الصيغة التي اتخذتها في طبقة الياقات البيضاء، كانت بعيدة عن أن تكون دخيلة بالنسبة إلى الفلاحين والعمال. لم يعرف ألفا قط العمال والفلاحين بشكل وثيق، لذلك أمكنه، ومن دون مشقّة كبيرة، أن يعزو الاعتقاد بإزاحة سحرية للروس إلى صفات شخصية خاصة لدى الإنتليجينسيا التي، للأسف، لم تكن متميّزة بنفاذ بصيرة سياسية.

إن رواية تقارن بإيجابية بين أخلاق **الإيمان الجديد** والمنظومة المهزومة هي رواية مهمة جداً بالنسبة إلى **الحزب**. نُشر الكتاب على نطاق واسع جداً إلى درجة أنه بيع منه بسرعة ١٠٠٠٠٠ نسخة، وفي عام ١٩٤٨، فاز ألفا بجائزة دولة. تبرّعت له إحدى المدن بفيلا جميلة

مفروشة بأثاث فخم. إن كاتباً مفيداً في إحدى دول الديمقراطيات الشعبية لا يمكن أن يشكو من قلة الاهتمام.

يعرف ديناليكتيكيو الحزب جيداً أن بطل ألفا لم يكن النموذج لِـ «الإنسان الجديد». وكونه شيوعياً يمكن التكهن به فقط من تأكيد المؤلف. ظهر على صفحات الكتاب وهو على استعداد للعمل، لكن لم يظهر وهو يعمل. استبدل بطل ألفا القديم بكل يسر جبة الكاهن بسترة الشيوعي الجلدية. وعلى الرغم من أن ألفا غيّر لغة أفكاره، فإن بقايا من التراجيديا والميتافيزيقيا بقيت مستمرة. وعلى الرغم من أن الشيوعي القديم لم يكن يصلّي، فإن القراء لن يُفاجؤوا عند سماع شفتيه المغلقتين بحكم العادة تنطقان فجأة مراثي إرميا، كانت كلمات النبي تنسجم بشكل ممتاز مع شخصيته. وهكذا فإن ألفا لم يتغير ذاتياً منذ أيامه ما قبل الحرب؛ ما زال لا يمكنه أن يقتصر على أخلاقيات نفعية بحتة يعبّر عنها في أعمال عقلانية. لم يتب فاوست والملك لير داخل بطله. استمرت السماء والأرض بالوجود. ومع ذلك لا يمكننا طلب الكثير. لم يكن ينتمي إلى الحزب، إلا أنه أظهر بعض التفهّم. معاملته للشباب الإرهابي كانت تُظهر، حتى أكثر من تصويره للشيوعي القديم، أنه كان يتعلّم. كان من المبكر جداً فرض «الواقعية الاشتراكية»؛ لم يكن المصطلح قد ذُكر بعد خشية أن ينبه الكتاب والفنانين. وللسبب ذاته تم التأكيد للفلاحين أنه لن تكون هناك مزارع تعاونية في بولندا.

لم يأت اليوم الذي يجب أن يُتخذ فيه القرار بالنسبة لِـ ألفا إلا بعد بضع سنوات من نشر روايته. كان يعيش في فيلته الجميلة، ويوقع بيانات سياسية كثيرة، يعمل في لجان عدة ويسافر عبر البلاد محاضراً في الأدب في قاعات المعامل والأندية و«بيوت الأدب». بالنسبة للعديدين كانت هذه الرحلات الأدبية المنظمة على نطاق واسع واجباً مؤلماً؛ لكنها كانت متعة بالنسبة له، لأنها مكّنته من أن يكون مطلعاً على حياة ومشاكل

الطبقة العاملة الشابة. للمرة الأولى، كان يخطو فعلياً خارج قبيلته المثقفة؛ والأفضل من ذلك أنه كان يقوم بهذا العمل ككاتب محترم. وكأحد أكثر الكتاب في صدارة الترتيب في الديمقراطيات الشعبية كان يمكن أن يشعر بنفسه، إن لم يكن كارديناً، فعلى الأقل كاهناً بارزاً.

بالتوازي مع خطة المركز، كانت البلاد تتغير تدريجياً باتجاه التشدد. جاء الوقت لكبح جماح الكتّاب ولمطالبتهم بأن يصرحوا عن أنفسهم بوضوح لِـ الإيمان الجديد. تم الإعلان في مؤتمرات الكتّاب أن «الواقعية الاشتراكية» هي الأسلوب الإبداعي الوحيد. بدا واضحاً أنه عايش هذه اللحظة بألم استثنائي خاص. قاد الحزب، مظهراً مهارة لا تصدق، الكتاب بحذق إلى نقطة التحوّل. والآن عليهم إما الإذعان إلى إنذار الحزب أو العصيان بشكل مفاجئ وبالتالي السقوط إلى أسفل السلم الاجتماعي. لم يعد متاحاً تقسيم الولاءات، وإعطاء ما للرب للرب وما لقيصر لقيصر. لم يأمر أحد الكتاب رسمياً بالدخول إلى الحزب؛ ومع ذلك لم تكن هناك عقبة منطقية بالانضمام ما إن يقبل أحدهم الإيمان الجديد. تشير مثل هذه الخطوة إلى شجاعة كبيرة، لأن القبول في الحزب يعني زيادة في مسؤوليات الفرد.

كروائيّ يتمتع بتقدير كبير في دوائر الحزب، لم يكن بإمكان ألفا القيام سوى بقرار واحد. وكسلطة أخلاقية كان من المتوقع منه أن يشكل نموذجاً يحتذى به بالنسبة لزملائه. خلال السنوات الأولى من النظام الجديد كان قد أسس روابط قوية مع الثورة. كان في النهاية كاتباً شهيراً ينتمي قراؤه إلى عامة الجماهير. روايته المشاد بها ما قبل الحرب باعت بشق النفس بضعة آلاف من النسخ؛ والآن يمكن له ولكل الكتاب التعويل على الوصول إلى أعداد هائلة من الجماهير. لم يعد معزولاً؛ قال لنفسه إن هناك حاجة له ليس من قبل بضعة متكبرين في المقاهي، بل من قبل الجيل الشاب العامل الجديد الذين تكلم إليهم في رحلاته

عبر البلاد. يعزى هذا التحول بالكامل إلى انتصار روسيا والحزب، وعلى المرء القبول منطقياً ليس بالنتائج العملية فقط بل بالمبادئ الفلسفية التي ولدتها أيضاً.

لم يكن ذلك بالأمر اليسير بالنسبة له. كان يُهاجم باستمرار بسبب حبه للتراجيديا التاريخية العظيمة. حاول أن يكتب بشكل مختلف، لكنه كلما حاول أن يتنكر لشيء يكمن في طبيعة موهبته بحد ذاتها يصبح نثره باهتاً وعديم النكهة؛ مزّق مخطوطاته. سأل نفسه إن كان باستطاعته التخلي عن كل الجهود لتصوير الصراعات التراجيدية الفريدة في الحياة في تعاونية عملاقة. لم تعد مسببات المحنة الإنسانية التي كان يراها من حوله يومياً تشبه تلك الموجودة في النظام الرأسمالي، إلا أن حصيلة المعاناة الكلية بدا وكأنها تزداد بدل أن تقل.

كان ألفا يعرف كثيراً عن روسيا وعن الطرق عديمة الرحمة التي يطبقها الدياليكتيكيون على «المادة البشرية»، ما يجعله غير معرض لهجوم موجات الشك. كان مدركاً أنه بقبوله الإيمان الجديد سوف يكف عن كونه سلطة أخلاقية ويصبح مدرساً، يشرح فقط ما هو مسلّم به على أنه مفيد. من الآن فصاعداً سوف يقوم عشرة أو خمسة عشر من المختصين الديالكتيكيين بوزن كل عبارة من عباراته، ودراسة ما إذا كان قد ارتكب خطيئة التراجيدية الصرفة. إلا أنه لم يعد هناك مجال للعودة. مقنعاً نفسه أنه أساساً شيوعي في أفعاله، دخل الحزب ونشر فوراً مقالاً طويلاً عن نفسه ككاتب. كان هذا نقد ذاتي؛ وبمصطلحات مسيحية، هو اعتراف. قرأ الكتاب الآخرون مقالته بمزيج من حسد وخوف. أثار حسدهم أنه الأول في كل مكان وفي كل شيء، لكن كونه أظهر نفسه فائق الذكاء ـ تماماً مثل عامل المناجم ستيكانوفايت الذي كان أول من أعلن أنه سوف يسجل معدل عمل قياسياً ـ ملأهم بالخشية والترقب. لا يحب عمال المناجم أياً من رفاقهم الذين يميلون كثيراً إلى تكديس أوسمة الشرف عن طريق إجبار الآخرين على زيادة وتيرة عملهم.

نقده الذاتي كتب بحرفية عالية إلى درجة أنه ترسخ كبيان كلاسيكي لكاتب نبذ الماضي باسم **الإيمان الجديد**. ترجم إلى لغات عدة، وحتى دور النشر الستالينية في الغرب طبعته ونشرته. في شجبه كتبه السابقة لجأ إلى خدعة مميزة: اعترف علناً بما كان يفكر فيه سراً باستمرار حول العيوب في أعماله. لم يكن بحاجة إلى الدياليكتيكية لتظهر له هذه العيوب؛ كان يعرفها في الماضي، قبل زمن طويل من اقترابه من الماركسية، إلا أنه الآن عزا تبصره إلى فضائل **النهج**. يعرف كل كاتب جيد أنه يجب عليه ألا يسمح لنفسه بالوقوع تحت إغراء الكلمات الطنانة أو المصطلحات ذات التأثير العاطفي لكن الخالية من المضمون. جزم ألفا أنه تعثر بهذه الشراك لأنه لم يكن ماركسياً. كما أنه حرص على أن يُفهم من كلامه أنه لا يعتبر نفسه كاتباً شيوعياً، لكن فقط إنسان يحاول أن يَخبر **النهج**، الذي هو أعلى من كل العلوم. ما كان مميزاً في هذه المقالة هو النبرة التقية المتعالية التي كتبت بها، والتي لطالما كانت نبرة ألفا. هذه النبرة تقود المرء إلى الشك في أنه من خلال الحكم على عيوبه كان يضاعفها وكان يتألق في قبضة تواضعه الجديدة.

عهد إليه **الحزب**، باعتباره كاثوليكياً سابقاً، بمهمة صياغة خطابات مضادة لسياسة الفاتيكان. بعد ذلك بفترة قصيرة تمت دعوته إلى موسكو، ونشر عند عودته كتاباً حول «الإنسان السوفيتي». وعن طريق التعبير بشكل مباشر بأن الإنسان الحر الحقيقي الوحيد هو مواطن الاتحاد السوفيتي، كان من جديد ينال مجد التفوق والسيادة. كان زملاؤه يخجلون بشكل أو بآخر من استخدام هذا التكتيك الأدبي على الرغم من معرفتهم أنه صحيح من الناحية الدياليكتيكية. وكنتيجة لذلك، صار غير محبوب بشدة ضمن غيتوهات الأدب. أسميه غيتو لأنه على الرغم من أن الأدباء أصبحوا يحاضرون الآن في كل البلاد ويصلون إلى شرائح أكبر من العامة إلا أنهم صاروا الآن مقفلين على أنفسهم بشكل آمن ضمن

بيوتهم ونواديهم الجماعية مثلما كانوا في المقاهي الأدبية قبل الحرب. زملاء ألفا، الغيورون من النجاح الذي جلبته له نبرته النبيلة، دعوه بِـ «العاهرة المبجلة».

لست بموقع الحكم. أنا نفسي قد قطعت الطريق نفسه الذي يبدو من المتعذرَ تجنبه. دست بقسوة بفراري على العديد من القيم التي يمكن أن تحدد قيمة الإنسان. وأنا أدين نفسي بشدة على الرغم من أن خطاياي ليست مثل خطاياه. ربما الاختلاف بين مصيرينا كَمَنَ في تفاوت صغير في ردة فعلينا عندما زرنا أنقاض وارسو أو عندما حدقنا من النافذة على السجناء. شعرت أنه لا يمكن لي أن أكتب حول هذه الأشياء ما لم أكتب الحقيقة *كاملة*، وليس جزءاً منها فقط. كانت لدي المشاعر نفسها حول الأحداث التي حدثت خلال طاحونة الحرب تحت الاحتلال النازي، أعني أن كل أنواع الأدب يمكن تطبيقها عليهم ما عدا أدب الخيال. أتذكر أننا اعتدنا على الشعور بالخجل بشكل غريب كلما قرأ لنا ألفا قصصه في تلك المدينة الملوثة بالحرب. استثمر مواضيع عمله سريعاً جداً، كان تعاطفه سلساً جداً. مات الآلاف من البشر تحت التعذيب من حولنا؛ وبدا لنا أنه من غير اللائق تحويل معاناتهم فوراً إلى تراجيديا مسرحية. من الأفضل أحياناً التأتأة من فرط الانفعال من الكلام بعبارات مسبوكة بشكل جيد. إن الصوت الداخلي الذي أوقفنا عندما كان يمكن أن نقول الكثير هو الحكمة. ليس من المستغرب أنه لا يعرف هذا الصوت.

وحده شغف الحقيقة كان من الممكن أن ينقذ ألفا من التحول إلى الشخص الذي صاره. عندها لم يكن ليكتب تلك الرواية عن الشيوعي القديم ويحبط الشباب البولندي. سمح لنفسه برفاهية الإشفاق، لكن فقط عندما كان ضمن إطار عمل آمن من تأنيب رقابة المطبوعات. في رغبته للفوز بالاستحسان قام بتبسيط صورته لتطابق رغبات الحزب. قادت تسوية أولى إلى ثانية ثم ثالثة وفي النهاية، على الرغم من كل ما يمكن

أن يقوله المرء بشكل منطقي تام، إلا أنه لم تعد هناك أي قواسم مشتركة مع الحياة الحقيقية للناس. هذا هو الوجه الآخر من ميدالية الديالكتيكية. هذا هو الثمن الذي يجب على المرء دفعه مقابل الراحة العقلية التي توفرها الديالكتيكية. عاش حول ألفا العديد من الفلاحين والعمال واستمروا بالعيش حوله والذين كانت كلماتهم غير مجدية، لكن في النهاية فإن الصوت الداخلي الذي سمعوه لم يكن مختلفاً عن الأوامر الذاتية التي أغلقت شفاه الكتّاب وطالبت بكل شيء أو لا شيء. من يدري، ربما كان يجب وضع فلاح مغمور أو ساعي بريد صغير في مرتبة أعلى في سلم الذين خدموا البشرية من ألفا الأخلاقي.

الفصل ٥

# بيتا، العاشق الخائب

عندما التقيت بيتا عام ١٩٤٢، كان في العشرين من عمره. كان شاباً لطيفاً بعينين سوداوين ذكيتين. وكانت راحتا يديه تتعرقان، وثمة ذاك النوع من الخجل المفرط في تصرفاته الذي عادة ما يشير إلى طموح هائل. يمكن الشعور وراء كلماته بمزيج من الغرور والتواضع. يبدو في الحوارات مقتنعاً داخلياً بتفوقه؛ يهاجم بشراسة إلا أنه ينسحب بسرعة، مخفياً مخالبه باستحياء. كانت أجوبته الخاطفة اللاذعة مفعمة بسخرية مكبوتة. مع أنه على الأرجح أن هذه الخصال في شخصيته كانت أكثر وضوحاً عندما كان يتحدث معي أو مع الكتاب الآخرين الأكبر سناً منه. كشاعر مبتدئ، كان يشعر أنه يدين لهم باحترام معين، لكنه في الواقع كان مقتنعاً أنهم لا يستحقونه كثيراً. كان يعرف أفضل؛ فيه كَمَنَ الوعد بكاتب عظيم حقاً.

في عام ١٩٤٢ في وارسو، كنا نعيش بلا أمل، بالأحرى كنا نعيش على أمل نعرف أنه مجرد وهم. الإمبراطورية التي امتصّت بلادنا كانت جبارة جداً حيث وحده المتفائل العنيد يمكن أن يؤمن بإمكانية الهزيمة الكلية لِ ألمانيا. كانت المخططات النازية فيما يخص أمتنا واضحة جداً: إبادة الطبقة المتعلمة، استعمار البلاد ثم طرد قسم من السكان نحو الشرق.

كان بيتا أحد الشبان الذين بدؤوا بالكتابة أثناء الحرب، بلغة

المستعبدين. أعان نفسه بالقيام بأعمال مختلفة غريبة. من الصعب التحديد تماماً كيف يمكن للناس كسب معيشتهم في مدينة خارج القانون بشكل كامل. عادة ما يأخذون منصباً نصف وهمي في مكتب أو مصنع يزودهم ببطاقة عمل بالإضافة إلى فرصة للاستثمار في السوق السوداء أو السرقة، التي لم تكن تعتبر غير أخلاقية، لأنها تؤذي الألمان. في الوقت نفسه، درس في جامعة سرية وشارك في الحياة الوافرة بالنشاط للشباب المقاوم. ذهب إلى اجتماعات حيث شرب هو والشبان الآخرون الفودكا، وتجادلوا بحماس حول الأدب والسياسة، وقرؤوا المنشورات الممنوعة.

إلا أنه ابتسم بازدراء على رفاقه؛ رأى الأشياء بوضوح أكبر منهم. وجد حماسهم الوطني للمعركة ضد الألمان ردة فعل لا عقلانية صرفة. معركة ـ نعم، لكن باسم ماذا؟ لم يعد أي من هؤلاء الشبان يؤمن بالديمقراطية. معظم بلدان أوروبا الشرقية كانت نصف ديكتاتورية قبل الحرب؛ وبدا أن النظام البرلماني أصبح ينتمي إلى حقبة ميتة. لم يعد هناك أي شك حول كيف يمكن للمرء الوصول إلى السلطة؛ كل من يريد الاستحواذ على السلطة عليه أن يقبض عليها بالقوة، وإلا أن يخلق «حركة» لاستخلاص ضغط على الحكومة للاعتراف به ضمن ائتلاف. كانت هذه حقبة «الحركات» الوطنية، وكان شباب وارسو لا يزال تحت تأثيرها بشكل كبير على الرغم من أنه كان من الواضح أنهم لا يتعاطفون سواء مع هتلر أو موسوليني. كانت أسبابها مشوشة. كانت الأمة البولندية مضطهدة من قبل الألمان؛ لذلك كان على المرء أن يقاتل. عندما أعلن بيتا أنهم كانوا يقومون بمجرد مواجهة الوطنية الألمانية بالوطنية البولندية لم يعر رفاقه كلامه أي اهتمام. وعندما سأل ما هي القيم التي يرغبون في الدفاع عنها أو ما هي المبادئ التي يجب بناء أوروبا عليها في المستقبل، لم يحصل على أي جواب.

كان هنا في الواقع بئر من الظلمة: لا أمل في التحرير، ولا رؤيا

للغد. معركة من أجل القتال فقط. العودة إلى وضع ما قبل الحرب، مهما كانت درجة سوئه، كانت هي المكافأة لمن من الممكن أن يبقى على قيد الحياة ليرى نصر الأنغلوساكسون. هذا النقص في أي أنواع الرؤيا قاده لرؤية العالم كمكان لا يوجد فيه أي شيء خارج القوة المجردة. كان عالماً من الانحدار والسقوط. وليبراليو الجيل الأقدم، وهم يهتفون بأبيات شعرية من القرن التاسع عشر حول احترام الإنسان ـ في حين أن هناك مئات الآلاف من الناس يذبحون من حولهم ـ كانوا بقايا مستحاثات.

لم يملك بيتا أي إيمان، ديني أو غيره، وكان لديه الشجاعة للاعتراف بذلك في أشعاره. نسخ ديوانه الشعري الأول على آلة نسخ ميموغراف. لم أكد أستلم كتابه وأفصل صفحاته الملتصقة حتى أدركت أنني أمام شاعر حقيقي. ومع ذلك لم تكن قراءة سداسياته بالمهمة البهيجة. كانت شوارع وارسو المحتلة مكفهرة. الاجتماعات السرية تحت الأرض في الغرف الباردة المليئة بالدخان، عندما يُسمع صوت أحذية الغيستابو على الدرج، كانت تشبه الطقوس المخيفة التي تجرى في سراديب دفن الموتى. كنا نعيش في قاع حفرة كبيرة والسماء العالية فوقنا كانت العنصر الوحيد الذي يجمعنا مع الناس الآخرين على سطح الأرض. كل هذا كان في قصائده؛ الشحوب، الضباب، الوحشة، والموت. ومع ذلك لم يكن شعره شعر رثاء وإنما رواقية جليدية. افتقد شعر جيله بأكمله للإيمان. الفكرة الأساسية فيه كانت الدعوة إلى السلاح ورؤيا الموت. على عكس الشعراء الشبان في عصور أخرى، لم يروا الموت كثيمة رومانتيكية وإنما كحضور حقيقي. مات معظم كتاب وارسو الشبان هؤلاء قبل نهاية الحرب إما على يد الغيستابو أو في المعركة. ومع ذلك لم يشكك أي منهم بجدوى التضحية إلى نفس الدرجة مثلما شكك هو. «لن يبقى بعدنا إلا خردة معدنية والضحكة الفارغة الساخرة للأجيال». كتب في إحدى قصائده.

لم يحتو شعره على أي من ذلك اليقين بالعالم المتمثل بالمشاركة الوجدانية التي يقدم فيها الفنان موضوع عمله، على سبيل المثال: تفاحة على شجرة. ما كان شعره يكشفه هو توازن مضطرب عميق في داخل الروح. يمكن للمرء التكهن بمقدار كبير من عمل فني، على سبيل المثال: عالم باخ أو بروغل هو عالم متسق منظم وفق مراتب. يعكس الفن الحديث عدم توازن المجتمع الحديث، وغالباً ما ينبع ذلك من شغف أعمى يسعى عبثاً لصياغة نفسه في هيئة أو لون أو صوت. يمكن للفنان أن يتأمل في الجمال الحسي إن كان يحب كل ما يحيط به على وجه الأرض فقط. لكن إن كان كل ما يشعر به هو القرف من التناقض بين ما يتمناه للعالم أن يكون وما هو في الواقع، عندها يكون عاجزاً عن الوقوف بثبات والنظر. يخجل من انعكاسات الحب؛ وهو محكوم بحركة دائبة، وبمسودات مضطربة لا تكتمل، وملاحظات متقطعة للطبيعة. مثل المسرنم، يفقد توازنه حالما يتوقف عن الحركة. كان شعر بيتا دوامة من الضباب، أُنقذ من الفوضى التامة بسبب الإيقاع الجاف لسداسياته فقط. لا بد أن ميزة شعره تعزى، في جزء منها على الأقل، إلى حقيقة أنه ينتمي إلى جيل منحوس في أمة منحوسة، إلا أنه كان لديه آلاف الأخوة في كل بلدان أوروبا، كلهم متحمسون ومخدوعون.

بخلاف رفاقه الذين كانوا يتصرفون بدافع الولاء لوطنهم، على أرضية مسيحية أو ميتافيزقية مبهمة، احتاج هو إلى قواعد عقلانية للعمل. عندما اعتقله الغيستابو في عام ١٩٤٣، انتشرت الشائعات في مدينتنا أنه اعتقل نتيجة «حادث» لإحدى مجموعات اليسار. إن كانت الحياة في وارسو عبارة عن ذكرى صغيرة متبقية من الفردوس، فقد وجد بيتا نفسه الآن في الدائرة السفلى من الجحيم: «المعتقل العالمي». وكما كان في ذلك الوقت الوضع الطبيعي للأحداث، أمضى بضعة أشهر في السجن قبل أن يتم ترحيله إلى أوشفيتز. تمكن بمعجزة من البقاء على قيد الحياة هناك

سنتين. عندما اقترب الجيش الأحمر، تم نقله مع سجناء آخرين إلى معتقل داخاو، وهناك أطلق سراحهم أخيراً من قبل الأمريكان. علمنا بكل هذا بعد انتهاء الحرب فقط، عندما نشر مجلداً من القصص يروي فيها تجاربه.

استقر في ميونيخ بعد إطلاق سراحه مباشرة. وهناك صدر في عام ١٩٤٦ كتاب: *كنا في أوشفيتز*، الذي كتبه مع اثنين من زملائه السجناء. كان مهدى إلى: «الجيش السابع الأمريكي الذي حررنا من معتقل داخاو ـ ألاخ». ونشر عند عودته إلى بولندا مجموعته من القصص القصيرة.

قرأت العديد من الكتب حول معسكرات الاعتقال، لكن لا واحد منها كان مرعباً بقدر قصصه لأنه لم يعظ أبداً، لقد روى. تشكل نوع من التراتبية الاجتماعية في «المعتقل العالمي». احتلت سلطات المعتقل المرتبة العليا؛ بعدها السجناء الذين تثق بهم الإدارة؛ بعدها يأتي السجناء الذين يملكون مقداراً كافياً من الذكاء يمكنهم من إيجاد وسائل للحصول على طعام كافٍ للحفاظ على قواهم. وفي الأسفل يقف الضعفاء والحمقى، الذين كانوا يتساقطون يومياً بينما أجسامهم فقيرة التغذية تفشل في الصمود تحت وطأة العمل. وفي النهاية ماتوا، إما في غرف الغاز أو من جراء حقنة فينول. هذه التراتبية لم تضم بالطبع الحشود التي قتلت مباشرة فور وصولها، مثل اليهود، ما عدا العزاب وخاصة الذين يملكون اللياقة الجسدية للعمل. في قصصه، حدد بيتا بوضوح موقعه الاجتماعي. لقد كان ينتمي إلى فريق السجناء الأذكياء المتمتعين بالصحة، *وتباهى* بدهائه وخفة حركته. تتطلب الحياة في معسكر اعتقال تأهباً مستمراً؛ كل لحظة من الممكن أن تحدد حياة أو موت الشخص. ولكي تكون ردة فعل الشخص مناسبة في كل الأوقات، عليه أن يعرف أين يكمن الخطر وكيف يهرب منه: أحياناً عن طريق طاعة عمياء وأحياناً عن طريق تجاهل مقصود، وأحياناً عن طريق الابتزاز أو الرشوة. تحتوي إحدى قصصه جردة لسلسة من الأخطار تمكّن من تفاديها في يوم واحد:

١ ـ قدّم له أحد الحراس خبزاً. للوصول إليه كان عليه أن يقفز فوق خندق يشكل خط المراقبة. الحراس، المأمورون بإطلاق النار على السجناء الذين يتجاوزونه، كانوا ينالون إجازة ثلاثة أيام بالإضافة إلى خمس علامات لكل شخص يقتلونه بعد هذا الحد. فهم بيتا نية الحارس ورفض الطعم.

٢ ـ سمعه أحد الحراس وهو يخبر سجيناً آخر بسقوط كييف. استبق بيتا تقرير الجنحة عن طريق إعطاء الحارس، عبر وسيط، ساعة قديمة كرشوة.

٣ ـ تملّص من بين يدي ناظر معتقل خطير، أو كما يسمى 'كابو'، عن طريق إنجاز سريع لأحد الأوامر. القطعة التي أقتبسها هنا تخص بعض السجناء اليونانيين الذين كانوا ضعفاء جداً ليتمكنوا من المسير بشكل جيد. العقوبة كانت بربط عصي حول سيقانهم. كان المشرف عليهم روسي اسمه أندريه:

«قفزت إلى الوراء، صدمتني دراجة من الخلف. انتزعت قبعتي. قفز الـ أنترشارفوهرر[1]، وهو مالك أراضٍ من هارمينز، من فوق دراجته محمراً من الغضب.

ـ ما الذي يحدث في هذه المجموعة المجنونة؟ لماذا يتجول هؤلاء الناس والعصي مربوطة على سيقانهم؟ حان وقت العمل!

ـ لا يعرفون كيف يمشون!

ـ إن كانوا لا يعرفون كيف يمشون، اقتلهم! وأنت، هل تعلم أن إوزة أخرى قد اختفت؟

---

(١) رتبة في الجيش النازي. (م)

ـ لماذا تقف هناك مثل كلب غبي؟ صرخ الـ كابو عليّ. «أخبر أندريه أن يسوي الأمر معهم. اذهب!».

ركضت نازلاً الممر...

ـ أندريه، اقض عليهم جميعاً! أوامر كابو!

أمسك أندريه عصا وانهال بكل قوته. غطى اليوناني نفسه بذراعه، صرخ وسقط. وضع أندريه العصا على حلقه، داس عليها وأرجح نفسه. وأنا مضيت في طريقي بسرعة».

كان نهاره مليئاً ليس فقط بالهرب من الخطر، لكن أيضاً بلعبة معقدة نشبت بينه وبين إيفان الروسي رفيق سجنه. سرق منه إيفان قطعة صابون. قرر الانتقام منه وبحث بطول أناة عن فرصة مناسبة. لاحظ أن إيفان سرق إوزة؛ سبب تقرير مشغول بدهاء القيام بعميلة بحث (وذلك كي لا يوصم بأنه مخبر). وجدت الإوزة وتم ضرب إيفان من قبل رجل تابع للـ إس إس. تمت تصفية الحساب.

كان فخوراً بالنجاح، في حين أن الآخرين الأقل ذكاء هلكوا. لم يكن هناك أية كمية ولو ضئيلة من السادية الواضحة في فقراته المتكررة حول حقيقة أنه كان جيد اللباس والتغذية ووافر الصحة.

«استمروا بالحركة لتجنب الضرب؛ أكلوا الأعشاب والطين اللزج حتى لا ينهاروا من الجوع؛ مشوا بعزيمة واهنة، جثث ما زالت حية»، قال عن رفاقه السجناء. لكن عن نفسه: «من الجيد العمل بعد أن أكل المرء فطوراً من شرائح البيكون مع الخبز والثوم، وأتبعه بعلبة من الحليب المكثف». تفاصيل تتعلق بثيابه (كل من حوله كانوا بؤساء نصف عراة): «ذهبت إلى الظل وفرشت سترتي تحتي حتى *لا أوسخ قميصي الحريري بالتراب* (الخط المائل من كتابتي أنا، ت.م[1]) واستلقيت

(١) الملاحظة للكاتب. (م)

مرتاحاً لأنام. ينام كل منا بالطريقة التي يمكنه تأمينها». وهنا نجد مشهد تفاوت «طبقي». سجين آخر، اسمه بيكر، أُحرق في فرن لحرق الجثث لأنه كان ضعيفاً جداً لا تُمكن الاستفادة منه.

«في تلك اللحظة، ظهرت جمجمة كبيرة شاحبة من الأسفل، فوق حافة السرير الخشبي وحدقت إلينا عينان مرتبكتان ترمشان. ثم ظهر وجه بيكر المجعد وقد شاخ أكثر من أي وقت آخر.

- تيدي، أريد أن أسألك شيئاً.

- تكلم، قلت وأنا أنحني صوبه.

- تيدي، أنا ذاهب إلى المحرقة.

انحنيت أكثر قليلاً، ونظرت في عينيه من مسافة قريبة. كانتا هادئتين وفارغتين.

- تيدي، أنا جائع منذ مدة طويلة. أعطني شيئاً لآكله. لهذا المساء الأخير.

لطمني كازيك على ركبتي.

- هل تعرف هذا اليهودي؟

- إنه بيكر، أجبت بلطف.

- أنت، أيها اليهودي، انهض واذهب هناك إلى السرير وأطعم نفسك. وعندما تشبع، يمكنك أخذ البقية معك إلى المحرقة. هيا! أنا لا أنام هناك لذلك يمكنك أن تأخذ معك قملك.

- تيدي، أخذني من ذراعي، تعال. لدي في الثكنة فطيرة تفاح رائعة، وصلتني مباشرة من أمي».

كانت سلطات السجن تستخدم الأقوياء والأذكياء في أعمال خاصة، ما أعطاهم الفرصة للحصول على طعام وملابس. أحد أكثر الأعمال المرغوبة كانت تفريغ حمولة عربات القطار المغلقة التي تجلب اليهود

من كل مدن أوروبا إلى أوشفيتز. جلب هؤلاء اليهود معهم حقائب فيها ملابس وذهب ومجوهرات وطعام لأنه قيل لهم إنهم يغادرون «لإعادة توطينهم في مكان آخر». عندما يدخل القطار بوابات معسكر الاعتقال، يطرد الحشد الخائف مباشرة من العربات. يفصل الشبان الأقوياء المناسبون للعمل عن البقية، في حين يؤخذ كبار السن والنساء الذين لديهم أطفال مباشرة إلى غرف الغاز ويحرقون. كان عمل السجناء هو نقل الأمتعة التي كانت مخصصة لزيادة ميزانية الرايخ وإدارة المعسكر. وصف بيتا عمله حول قطار المساجين. كان قد وصل إلى هذه الفرقة في الجيش عن طريق صديق فرنسي يدعى هنري.

نادراً ما نجد في الأدب الغزير الذي كتب حول الفظائع في القرن العشرين قصة من وجهة نظر من هو مرتبط بالجريمة. يخجل عادة الكتاب من هذا الدور. إلا أن مصطلح 'تعاون مع العدو' هو مصطلح فارغ من المعنى عندما يتعلق الأمر بمعسكر اعتقال. آلية العمل ليست شخصية؛ تنتقل المسؤولية من الذين ينجزون الأوامر إلى الأعلى منهم، ودائماً إلى الأعلى. أعتقد أنه يجب تضمين قصص بيتا حول «قطار المساجين» في كل المختارات الأدبية التي تتعامل مع مصير الإنسان في مجتمع شمولي، إن قيّض لمثل هذه المختارات أن تجمع أبداً.

انتشر خبر وصول «القطار»، مثل مسرحية عبر فصول عدة. إن بضعة اقتباسات سوف تعطي صورة أفضل عن طريقته الأدبية من أي مقدار من الوصف:

*مقدمة، أو ترقب «القطار»*

كان اليونانيون يجلسون حولنا، يحركون فكوكهم بشره مثل حشرات

عملاقة وحشية، يأكلون بشراهة خبزاً متعفناً وسخاً. كانوا مضطربين؛ لا يعرفون ما الذي عليهم عمله. كانت قضبان وألواح السكة الحديدية تقلقهم. لم يكونوا يحبون جر الأغراض الثقيلة.

ـ ماذا نعمل؟ سألوا

ـ لا شيء. القطار قادم، هل ستشمل المحرقة كل شيء؟

ـ كل شيء، مفهوم[1].

أجابوا بلغة الإسبرانتو[2]. هدؤوا؛ لن يقوموا بتحميل القضبان في شاحنات أو بحمل الألواح الخشبية.

## فصل I، أو *وصول «القطار»*.

استلقى حشد مخطط قرب السكة في شرائط الظل الطويلة. تنفسوا بثقل وعدم انتظام، تكلموا بكسل بلغاتهم الخاصة ونظروا بلا مبالاة إلى الناس العظماء بالزي الرسمي الأخضر، وإلى خضار الأشجار، القريبة والمتعذرة، وإلى برج كنيسة صغيرة بعيدة والتي كانت في تلك اللحظة تقرع جرس صلاة متأخرة.

«جاء القطار»، قال أحدهم، ووقف الجميع بترقب. ظهرت عربات الشحن عند المنعطف بينما كان القطار يتمهل للتوقف. وقف سائق القطار في العربة الأخيرة وانحنى ملوحاً بيده وصفر. تمهلت القاطرة وارتفع أزيزها، وكرج القطار ببطء داخلاً المحطة. خلف النوافذ ذات القضبان

---

(١) بالألمانية. (م)

(٢) لغة عالمية تم اختراعها عام ١٨٨٧ للاستخدام العالمي وتقوم على مفردات مشتركة في اللغات الأوروبية الرئيسة. (م)

يمكن رؤية وجوه بشرية، شاحبة ومتغضنة ومشعثة، وكأنها نائمة ـ نساء ورجال خائفون كانوا وللغرابة يمتلكون شعراً. مروا ببطء وهم يحدقون إلى المحطة بصمت. عندها بدأ شيء بالغليان داخل العربات وبالضرب على جدرانها الخشبية.

«هواء! ماء!» تفجرت صرخات جوفاء يائسة.

الوجوه البشرية المضغوطة على النوافذ، والشفاه التي تلهث باستماتة لتمتص الهواء ببضع جرعات، اختفت؛ وآخرون كانوا يصارعون في أماكنهم، اختفوا أيضاً. والصراخ والأنين ارتفعت بشكل مطرد.

## فصل II، أو *العزل* (تكفي بضعة مشاهد)

هنا تأتي امرأة تمشي بخفة محاولة ألا تلفت الانتباه إلا أنها مرتبكة قلقة. طفل صغير بوجه ملائكي مليء متورد يركض خلفها، ويفشل في الإمساك بها، يمد يديه وهو يبكي، «ماما، ماما!»

«خذي هذا الولد بين ذراعيك أيتها المرأة!»

«سيدي، إنه ليس طفلي، ليس لي!» صرخت المرأة بشكل هستيري، وركضت مبتعدة وهي تخفي وجهها بيديها. أرادت الاختباء؛ أرادت الوصول إلى أولئك الذين لن يغادروا بالشاحنات، الذين سوف يغادرون مشياً على الأقدام، الذين سوف يعيشون. كانت شابة تتمتع بصحة جيدة وجميلة، أرادت أن تعيش.

إلا أن الطفل ركض خلفها، وهو يتوسل بأعلى صوته، «ماما، ماما، لا تبتعدي!»

«إنه ليس لي، ليس لي، ليس...!»

حتى لحق بها أندريه، البحار من سيفاستوبول. كانت عيناه مضطربتين

من الفودكا والحرارة. وصل إليها، وضربها ضربة واحدة قوية، وبينما كانت تسقط، أمسكها بشعرها ورفعها ثانية. كان وجهه مشوهاً من الغضب.

«لماذا أيتها اليهودية القذرة العاهرة! اللعنة على أمك الساقطة[1]! تهربين من طفلك! سوف أريك أيتها العاهرة!» أمسكها من المنتصف وإحدى يديه تخنق حلقها الذي أراد الصراخ، ودفعها إلى الشاحنة مثل كيس ثقيل من الحبوب.

«خذي هذا معك أيضاً أيتها الفاسقة!» ورمى ابنها عند قدميها.

«أحسنت[2]. هكذا يجب معاملة الأمهات غير الطبيعيات»، قال أحد رجال الـ إس إس الذي كان يقف قرب الفان.

سقط شخصان على الأرض متخبطين في إحراج يائس. غرز أصابعه في لحمها بتشنج، والدموع على ثيابها مع أسنانه. صرخت بجنون وشتمت وجدفت، حتى اختنقت من ضربة بوط وتحشرجت ثم سكتت. فصلوهما عن بعضهما مثل شجرة؛ وساقوهما إلى شاحنة مثل حيوانات.

آخرون كانوا يحملون فتاة شابة بساق واحدة؛ حملوها من ذراعيها وساقها المتبقية. الدموع تنهمر على وجهها بينما كانت تهمس بحزن، «أرجوكم، أرجوكم، إنه يؤلم، إنه يؤلم...»، رفعوها إلى شاحنة، بين الجثث. سوف تحرق حية معهم.

## الفصل III، *أو حوار الشهود*

خيّم ليل بارد مرصع بالنجوم. كنا مستلقين على السكة. ثمة صمت بلا حدود. مصابيح ضعيفة تشتعل فوق أعمدة عالية خلف دوائر الضوء.

---

(١) بالروسية. (م)

(٢) بالألمانية. (م)

ـ هل بدلت الأحذية؟ سألني هنري.

ـ لا.

ـ لم لا؟

ـ لدي ما يكفي يا رجل، بالتأكيد ما يكفي.

ـ الآن حقاً؟ بعد أول قطار؟ فكر فقط، بالنسبة لي، منذ عيد الميلاد ربما مر مليون شخص بين يدي. الأسوأ كان قطار باريس: يلتقي الرجل دائماً بأصدقاء.

ـ وماذا تقول لهم؟

ـ أقول لهم إنهم سوف يستحمون، وإننا سنلتقي لاحقاً في المعسكر. ماذا يمكنك القول؟

خاتمة (العديد من القطارات وصلت إلى أوشفيتز ذلك المساء. كل قطار كان يحمل ١٥٠٠٠ شخصاً).

بينما كنا عائدين إلى المعسكر، بدأت النجوم بالخفوت، وأصبحت السماء أكثر شفافية وانقشعت فوقنا، وبدأ الليل بالانبلاج. وبدأت تباشير يوم حار صافٍ.

ارتفعت أعمدة من الدخان بثبات من المحارق واندمجت في الأعلى مشكلة نهراً عملاقاً أسود حام ببطء شديد في السماء فوق بيركينو واختفى خلف الغابات، في اتجاه ترزبينيا. كان القطار قد احترق بالفعل.

تجاوزنا فرقة إس إس، تتحرك بأسلحة آلية لمساعدة الحرس. كانوا يسيرون بهدوء، بتكاتف، كتلة واحدة، إرادة واحدة.

«وغداً سيكون العالم بأسره...»[1] كانوا يغنون بكل قوتهم.

كان بيتا عدمياً في قصصه، لكنني باستخدام هذه الكلمة لا أقصد القول إنه كان لا أخلاقياً. على العكس، عدميته كانت ناتجة عن عاطفة أخلاقية، عن حب خائب الأمل للعالم والإنسانية. أراد الوصول إلى الحدود القصوى في وصف ما شهده؛ أراد أن يصور بدقة متناهية عالماً لم يعد فيه أي مكان للسخط. الصنف البشري *عارياً* في قصصه، مجرداً من تلك النزعات تجاه الخير التي تدوم فقط طالما دامت عادة الحضارة. إلا أن عادة الحضارة هشة؛ أي تغيير مفاجئ في الظروف، تعود البشرية إلى همجيتها الأولية. كم هم مضللون أولئك المواطنون المحترمون الذين، وهم يمشون في شوارع مدن إنكلترا وأمريكا، يعتبرون أنفسهم بشراً خيرين وذوي فضيلة! بالطبع من السهولة بمكان إدانة امرأة تخلّت عن ابنها لتنقذ حياتها. هذا تصرف وحشي. ومع ذلك فإن امرأة ما، وهي تقرأ على أريكتها المريحة، وتدين أختها غير المحظوظة عليها أن تتوقّف قليلاً لتمعن النظر فيما إذا كان الخوف من الممكن أن يكون أقوى من الحب في داخلها، إن جوبهت هي أيضاً بالرعب. ربما قد يحدث لها ذلك، وربما لا يحدث؛ من بإمكانه التنبؤ؟

إلا أن «المعتقل العالمي» ضمّ أيضاً العديد من الكائنات البشرية التي كانت تحث نفسها على أنبل الأعمال، والذين ماتوا ليحموا الآخرين. لم يصور أي منهم في قصص بيتا. لم يكن اهتمامه منصباً على الإنسان ـ الإنسان هو بكل بساطة حيوان يريد أن يعيش ـ بل على «مجتمع معسكر الاعتقال». كانت أخلاق خاصة تحكم السجناء: من الجائز إلحاق الأذى

(١) بالألمانية. (م)

بالآخرين، شريطة أن يكونوا قد آذوك أولاً. ما عدا ذلك العقد غير المكتوب، يمكن لكل رجل حماية نفسه بأفضل ما يمكنه. سوف نبحث من دون جدوى عن صور للتضامن البشري في كتاب بيتا. الحقيقة حول سلوكه في أوشفيتز، وفقاً لرفاقه السجناء، مختلفة تماماً عما يمكن لقصصه أن تقودنا إلى الاعتقاد؛ تصرف بشجاعة، وكان نموذجاً للزمالة. لكنه أراد أن يكون *صلباً*؛ ولم يوفر نفسه من رغبته في المراقبة بوعي وتجرد. كان يخاف من الأكاذيب؛ وسوف تكون كذبة إن قدم نفسه كمراقب يمكنه الحكم، في حين أنه في الحقيقة، ومن خلال كفاحه للحفاظ على نزاهته، تعرّض للخضوع إلى جميع قوانين الإذلال. كراوِ، أعطى نفسه الصفات التي تتداول كأصول ثمينة في معسكر اعتقال: الذكاء والجرأة. وبفضل عنصر الحرب «الطبقية» بين الضعيف والقوي، حيث لم ينحرف عن الحقيقة، فإن قصصه كانت وحشية بشكل غير طبيعي.

بعد تحرره من داخاو، أصبح بيتا على معرفة جيدة بحياة اللاجئين في ألمانيا الغربية. كانت بمثابة امتداد للحياة في المعسكر. الأخلاق المنحطة، اللصوصية، السكر، الفساد؛ كل قوى الشر في الإنسان التي تحررت بسبب السنوات الهتلرية استمرت بالانتصار. السياسات القاسية للقوى المحتلة تجاه الملايين من العبيد الحاليين أيقظ غضبه. ها هي الآن النهاية المأمولة للحرب: مرة ثانية ساد قانون الغاب؛ مرة ثانية داس القوي، هذه المرة وهو يتفوه بشعارات الحرية والديمقراطية، على الضعيف أو عامله بقسوة لا مبالية.

كانت لِ بيتا عين ثاقبة، لكنها كانت مركّزة على كل ما هو سخيف ومعيب وخسيس في كل ما حوله. قاس وغير متسامح، كان جرحاً مفتوحاً واحداً. ربما كان ليكون أقل مرارة لو أنه كان قادراً، بعد كل سنوات المعاناة تلك، أن *يقف بثبات* في مرحلة معينة لدقيقة واحدة

ويرى الإنسان *الفرد* بدلاً من مجتمع هزته الذروة العظيمة للحرب. كان في حالة عاطفية داخلية مستمرة؛ كان وجهه ملتوياً باستمرار بتكشيرة غضب وسخرية. استمر برؤية الكتلة البشرية التي يعيش وسطها على أنها *عارية* ومحكومة ببضعة دوافع بدائية. بالنسبة له، وهو الذي كان عليه أن يمتلك هدفاً ما، كان مثل هذا العالم لا يحتمل. شعر أنه لا يمكن له البقاء أكثر في حالة من الحنق غير الموجّه والتمرد.

مثل العديد من السجناء السابقين، كان عليه الاختيار بين العودة إلى بلده الأصلي أو المنفى الاختياري. تعاطفه في فترة الحرب مع الماركسية كان مترسّخاً بشكل مبهم في شعوره بأن الماركسية تعامل الإنسان بواقعية. يمكن إعادة قناعاته إلى الحكمة البسيطة التي تقول إن الإنسان غير محكوم بنواياه الطيبة، لكن بقوانين النظام الاجتماعي الذي وجد نفسه فيه فقط. كل من يريد تغيير الإنسان يجب عليه، قبل أي شيء آخر، أن يغيّر الظروف الاجتماعية. ومع ذلك، ومثل كل البولنديين، كان يرتاب من الدولة الروسية القوية. عنف أسلوبه يجعله قريباً من كتّاب مثل زولا، أو هيمنغواي من بين المعاصرين، الذي كان يقرأه بتشوق؛ وهكذا كان أحد أولئك الفنانين الذين عرفوا في روسيا باسم «وحل الغرب». لا شيء يمكن أن يستحضر مثل هذا الرعب في أرض الدياليكتيكية من كاتب يصف الإنسان بمصطلحات تعبّر عن القوى البدائية للجوع والحب.

تردّد زمناً طويلاً. أخيراً، وبعد أن بدأت المنشورات الأدبية التي تظهر في بولندا ترشح إليه، اتخذ قراره وعاد. أثر في قراره عاملان رئيسان. كان لديه طموح أدبي كبير، إلا أنه كان مبتدئاً ومغموراً. وأين يمكن، خارج بلده، أن يجد قراء لكتب بلغته الأم؟ بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك ثورة تجري في بولندا. كان ذلك هو المكان المناسب لرجل يمزقه الغضب؛ هناك يمكن أن تتاح له الفرصة لإعادة تشكيل العالم.

قال وداعاً لأصدقائه، وعاد إلى وارسو التي كان سكانها يعيشون في أقبية منازل مهدمة. كانوا يزيلون أكوام الأنقاض بأيديهم ويحملونها في عربات تجرّها الخيول. بهذه الطريقة بدأت عملية إعادة إعمار المدينة. إلا أن الكتب والمجلات كان يتم تخاطفها بسرعة عبر بولندا بأكملها. لم توفر الحكومة أي مصاريف في دعمها الأدب. انفتحت احتمالات لا نهائية أمام أي كاتب يمتلك الحد الأدنى من الموهبة. بدأت مهنة بيتا على إيقاع سريع. إن النشر في أفضل المنشورات، وجمع أتعاب أدبية كبيرة، إنما جعله يأخذ ما هو حقه فقط. كان لديه إتقان جيد للغة؛ أسلوبه كان مقتضباً ولاذعاً. ولأن تجاربه كانت تشبه تجارب كثير من أبناء وطنه، فإن موضوعاته كانت قريبة ومفهومة عالمياً. لا عجب إذاً إن كان كتابه حول «المعتقل العالمي» قد جرت الإشادة به كحدث أدبي من الدرجة الأولى في الأهمية.

لحسن الحظ بالنسبة له، لم تكن الواقعية الاشتراكية إلزامية بعد، لأن كتابه كان أكثر معارضة صارخة لتقنية الكتابة السوفيتية. ووفقاً للتشريعات التي يطبقها المركز على الكتّاب، كان جريمة موصوفة. من الواضح أن الموضوع بحد ذاته لا عيب فيه سياسياً. وصف وحشية الهتلرية كان مرغوباً جداً، خصوصاً لأن البولندي العادي يكره الروس بقدر كراهيته تقريباً للألمان. تركيز انتباه القرّاء على الأعمال الوحشية للألمان وجّه كراهيتهم باتجاه وحيد وهكذا ساهم في «الإعداد النفسي» للبلاد. ومن هنا كانت الأعداد المتزايدة للكتب حول الغستابو وأنصار الصراع أو معسكرات الاعتقال.

وصل التسامح الرسمي درجة كبيرة إلى حد أنه كان بالإمكان الكتابة بتعاطف عن الجيش البولندي الذي حارب الألمان في عام ١٩٣٩، على الرغم من أن ذلك الجيش حمى «النبالة» البولندية التي كانت مثل جمرة في عين الاتحاد السوفيتي. ومع ذلك فإن الثيمة الصحيحة سياسياً لن

توفره من الهجوم النقدي إن أرادوا تطبيق معايير متشددة، لأنه وصف معسكر الاعتقال كما رآه شخصياً، وليس كما يجب أن يُرى. هنا يكمن إثمه. كيف يجب على المرء رؤية معسكر الاعتقال؟ ليس من الصعوبة سرد الأسباب: ١) على السجناء التجمع معاً في منظمات سرية؛ ٢) القادة في هذه المنظمات يجب أن يكونوا شيوعيين؛ ٣) كل المساجين الروس الذين يظهرون في صفحات الكتاب يجب أن يميزوا أنفسهم بالقوة الأخلاقية والتصرّفات البطولية؛ ٤) يجب أن يتمايز السجناء وفقاً لنظرتهم السياسية. ولا شيء من هذا صحيح في قصصه. لاحظ الحزب ذلك وعلى الرغم من أنه لم يعتبر الكتّاب البولنديين ناضجين للواقعية الاشتراكية، إلا أن نقاده وبّخوه على خطاياه الرئيسة. أعلنوا أن عمله يشابه الأدب الفاسد أو الأمريكي، وأنه كان متشائماً، وأنه يفتقد إلى عنصر «النضال الواعي»، أي النضال باسم الشيوعية. لكن هذه الانتقادات قيلت بلهجة مقنعة. كان شاباً ويحتاج أن يثقف نفسه، ولكنه يملك داخله مقومات خلق كاتب شيوعي حقيقي. وبمراقبته بعناية، اكتشف الحزب فيه كنزاً نادراً ثميناً: الكراهية الحقيقية.

كان بيتا متقبلاً. كلما قرأ مزيداً في النظرية اللينينية ـ الستالينية أقنع نفسه أن هذا هو بالضبط ما يبحث عنه. كانت كراهيته مثل نهر جارف يندفع إلى الأمام بلا جدوى. وهل هناك أبسط من ضبطه إدارة طواحين الحزب. يا للراحة: كراهية مفيدة، كراهية توضع في خدمة المجتمع!

عند جذور كراهيته كان رد الفعل نفسه الذي سماه سارتر «الغثيان»، أعني بذلك القرفَ من الإنسان ككائن *فيزيولوجي* حددته قوانين الطبيعة والمجتمع، وهو معرض لتأثيرات الزمن المدمرة. على الإنسان أن يكسر تلك الأصفاد بطريقة ما، وينهض حتى لو كان عليه أن يرفع نفسه إلى الأعلى بقواه الذاتية فقط. لو أن بيتا كان فرنسياً، لربما أصبح وجودياً؛ مع ذلك فعلى الأرجح أن هذا لن يرضيه. كان يبتسم بازدراء على التأمل؛

العقلي، لأنه يتذكر رؤية الفلاسفة وهم يتقاتلون على القمامة في المعسكر. ليس للأفكار البشرية أي مغزى؛ من السهولة فك شيفرة الذرائع والخداع الذاتي؛ كل ما له أهمية بحق هو سير الأمور. تشرّب المادية الجدلية مثلما تمتص الإسفنجة الماء. أشبع جانبها المادي جوعه نحو الحقيقة الصارمة؛ أتاح جانبها الديالكتيكي الفرصة لقفزة مفاجئة *فوق* النوع البشري، لرؤية للإنسانية كمادة التاريخ.

نشر خلال فترة قصيرة كتاباً جديداً. عنوانه وحده كان رمزاً لسلوكه، *العالم المتحجر* ـ متحجر، هو لذلك عديم الرحمة وعارٍ. اشتمل الكتاب على قصص قصيرة جداً، خالياً تقريباً من أي حدث، لا أكثر من اسكيتشات مما رأى. كان معلماً في فن استخدام التفاصيل المادية للإشارة إلى الوضع البشري ككل. «العالم المتحجر» كان أوروبا الوسطى بعد هزيمة هتلر وانتهاء الحرب العالمية الثانية. بما أنه أمضى بعض الوقت في المنطقة الأمريكية من ألمانيا، فقد كان لديه مخزون وافر من المواضيع؛ أناس من كل الجنسيات والطبقات الاجتماعية، نازيون سابقون، سجناء سابقون، برجوازيون ألمان مرتبكون مما حدث، جنود أمريكيون وضباط، إلخ. استتر تحت كلماته المقتصدة اتساع من المرارة ضد حضارة كانت الهتلرية ثمرتها. ركب معادلة: المسيحية تساوي الرأسمالية تساوي الهتلرية. كانت ثيمة الكتاب: *نهاية* الحضارة. يمكن تلخيص نبرته في احتجاج وحيد: «حدثتني عن الثقافة، عن الدين، عن الأخلاق؛ وانظر إلى أين أوصلونا!».

بالنسبة إلى بيتا، وكذلك بالنسبة إلى العديد من رفاقه، كان حكم هتلر هو تتويج لحقبة الرأسمالية في أوروبا. أعلن انهياره انتصار الثورة في المقياس العالمي. يمكن أن يعني المستقبل مزيداً من الكفاح، إلا أننا قد قطعنا نقطة التحوّل. تقريباً معظم الكتب التي كتبت في السنوات الأولى بعد الحرب من قبل شبان مثله كانت تظهر ثيمة عجز الإنسان أمام قوانين

التاريخ: حتى الناس ذوو أفضل النوايا قد سقطوا في آلة الرعب النازي وانقلبوا إلى رجال كهف مذعورين. واجه جمهور القراء معضلة؛ خيار بين الحضارة القديمة التي أخرجت شياطينها من مخابئهم، أو الحضارة الجديدة التي يمكن أن تنهض فقط من الانتصار المحتمل للشرق. كم هو قوي تأثير النجاح على مخيلة الإنسان إلى حد أنه يبدو وكأنه ليس من تخطيط بشري بالإضافة إلى ظروف مواتية بقدر ما هو انعكاس للقانون الأسمى للعصر. (مع أن روسيا ونظامها الذي يبدو لا يقهر كانت على بعد شعرة فقط من الهزيمة في الحرب العالمية الثانية).

كان *العالم المتحجر*' آخر كتاب حاول فيه بيتا أن يستخدم الأدوات الفنية، مثل الكبح والسخرية المخفية والغضب المقنّع، إلخ، المعروف أنها مؤثرة في الأدب الغربي. أدرك سريعاً بأن كل اهتمامه بخصوص «الفن» كان مفرطاً وغير ضروري. على العكس، كلما داس على الدواسة بقوة أكبر، وجد أنه يُمجّد أكثر. مدوية، عنيفة، واضحة، متحاملة؛ هذا ما كان متوقعاً من كتاباته أن تكون. وككاتب حزبي (لأنه انتسب إلى الحزب) بدأ بالمزايدة على كل الآخرين في الجهد المبذول ليكون سهل المنال وبسيطاً، بدأت الحدود بين الأدب والبرباغاندا بالاضمحلال. بدأ بتقديم مزيد ومزيد من الصحافة المباشرة في كتاباته. أطلق سمّه في الهجوم على الرأسمالية، أي في كل ما يحدث خارج حدود **الإمبراطورية**. كان يأخذ أي عنصر من الأخبار مثل الصراع في مالايا أو الجوع في الهند، ويحوله إلى شيء في المنتصف ما بين المقال واللقطة الفوتوغرافية.

رأيته آخر مرة في عام ١٩٥٠. كان قد تغيّر بدرجة كبيرة عن فترة ما قبل اعتقاله من قبل الغستابو. اختفى خجله السابق وتواضعه المصطنع. من كان ذات مرة يمشي بانحناء خفيف ورأسه مطرق، صار الآن رجلاً بظهر منتصب ومظهر من الثقة بالنفس. كان جافاً، مركزاً على عمله.

الشاعر الحيي أصبح الآن *'حيواناً سياسياً'*[1]. في ذلك الوقت كان قد صار رجل بروباغاندا مشهوراً. في كل أسبوع تظهر إحدى مقالاته الخبيثة في أسبوعية حكومية. زار ألمانيا الشرقية تكراراً ليجمع قصص الأحداث. لا يمكن لمراسل صحافي أن يخدم قضية مثل كاتب لديه حقبة من الكتابة النزيهة في خلفيته؛ وقد استخدم بيتا كل معرفته بحرفة الكتابة في مقالاته المسمومة ضد أمريكا.

عندما أنظر إلى هذه العدمية الجديرة بالإعجاب، غالباً ما أفكر كم يشبه أي نوع من أنواع الفنون منحدراً سلساً، وكم هي كمية الجهد التي يجب على الفنان أن يبذلها كي لا ينزلق إلى الوراء حيث الخطو أكثر سهولة. إن السيطرة الداخلية التي تجبر الفنان على بذل هذا الجهد هي في جوهرها غير منطقية. وعندما رفض **الإيمان الجديد** تمييز الفن العادي الباهت، فإنه دمّر هذه السيطرة الداخلية. كان بيتا كاتباً حقيقياً في قصصه عن معسكر الاعتقال؛ على الرغم من أنه شكك بكل الحقائق الملحة للإنسان، فإنه لم يزوّر أي شيء، ولم يحاول أن يرضي أحداً. ثم قدّم مساهمة واحدة صغيرة في السياسة، ومثل محلول مشبع تبلورت كتابته، وأصبحت بعدها صريحة واضحة ونمطية. لكن علينا ألا نبالغ في التبسيط. كثير من الكتاب العظماء، ومن بينهم سويفت وستندال وتولستوي، كتبوا بسبب الشغف السياسي. بل حتى يمكن أن يقال إن الإيمان السياسي، أو رسالة اجتماعية مهمة يريد الكاتب إيصالها لقرائه، تضيف قوة إلى عمله. الفرق الجوهري بين الكتّاب العظام الذين انتقدوا المؤسسات السياسية في زمنهم والناس من نوعية بيتا يبدو أنه يكمن في

---

(١) Homo politicus مصطلح صاغه أفلاطون للدلالة على أن الإنسان في الجوهر هو حيوان سياسي. ورد في الحوار الذي كتبه، والذي يدور بين سقراط وسقراط الشاب ورجل غريب، في محاولة لتحديد مواصفات رجل الدولة كنقيض للفيلسوف. (م)

عدم التكيّف الكلي لهؤلاء الكتاب العظام. تصرفوا بعكس بيئتهم؛ وهو، كان يكتب ويستمع للاستحسان من رفاقه الحزبيين.

على الرغم من كل انتقادها وإحكام لغتها، إلا أن مقالاته كانت مملة جداً وذات بعد واحد، حتى إن تلك المهانة لكاتب نثر موهوب حرّكت فضولي. كان بكل تأكيد ذكياً بما فيه الكفاية كي يفهم أنه يهدر موهبته. في حوار مع سلطات أدبية عدة من الذين تقرر كلمتهم مكانة الكاتب في الترتيب الرسمي، سألت لماذا تطبق مثل هذه المعايير عليه. من المؤكد أن مصالح الحزب لا تتطلب اختزاله إلى خرقة بالية. إنه بكل تأكيد أكثر فائدة ككاتب قصص وروايات؛ وإجباره على كتابة المقالات يعني إدارة سيئة للمصادر الأدبية المتاحة. «لا أحد يجبره على كتابة المقالات»، جاء الجواب، «هذه هي المصيبة كلها. لا يمكن لمحرري الأسبوعية إبعاده. هو بنفسه يصر على كتابتها. إنه يعتقد أن لا وقت اليوم للفن، وأن عليك العمل على الجماهير بشكل مباشر وبسيط أكثر. يريد أن يكون مفيداً بقدر الإمكان». كان هذا ملخص الجواب المنافق. يصر الحزب باستمرار على رغبته في أدب جيد؛ وفي الوقت نفسه، يخلق مثل هذا الجو المتوتر من البروباغاندا فيشعر الكتّاب أنهم مجبرون على اللجوء إلى التقنيات الأدبية الأكثر بساطة وبدائية. ومع ذلك فإنه صحيح أن بيتا بنفسه أراد أن يكرّس كل وقته للصحافة؛ وعلى الرغم من أنه كان خبيراً عالي الكفاءة، فقد اختار العمل الذي كان سهلاً على معظم العمال الكادحين العاديين. كان عقله، مثل ذلك الذي للعديد من المثقفين الشرقيين، مدفوعاً باتجاه التدمير الذاتي.

إن تطوّر العملية النفسية التي تبدأ بالحركة مباشرة بعد أن يمسك مثل هذا المثقف بقلمه معقد تماماً. دعونا نتخيّل أنه على وشك وصف حدث معين في السياسة الدولية. إنه يرى أن الظواهر مترابطة وظيفياً وليس سببياً. لذلك، ولتقديم العمل بشكل نزيه، فإن عليه النفاذ إلى دوافع

القوى المعارضة والضروريات التي تحكمها ـ بالمختصر، لتحليلها من كل جانب. ثم جاء الغضب لإنقاذه، مدخلاً النظام إلى الكومة المتشابكة من الأشياء المترابطة ومحرراً له من واجب التحليل. هذا الغضب الموجه ضد *الخداع الذاتي*، الذي يقول إن كل شيء بالمطلق يعتمد على إرادة الإنسان هو، في الوقت نفسه، خوف من السقوط فريسة سذاجة المرء الشخصية. بما أن العالم وحشي، فعلى المرء أن يقلص كل شيء إلى أبسط العوامل وأكثرها صرامة. يفهم الكاتب أن ما يفعله أبعد ما يكون عن الدقة: إن غباء الناس أو النوايا الطيبة لهم تؤثر في الأحداث بشكل لا يقل عن تأثير ضروريات الصراع الاقتصادي. لكنه ينتقم من البشرية (من الآخرين ومن نفسه) عن طريق البرهان بأن الإنسان محكوم ببضعة قوانين بدائية؛ وفي الوقت نفسه، يغذي شعوره بالتفوق ويثبت لنفسه أنه فطين وقوي بما فيه الكفاية بحيث لا يؤثر فيه «الإجحاف».

في مقالاته السياسية، تماماً مثل قصصه عن معسكر الاعتقال، إلحاح بيتا على التبسيط، على نزع كل الأوهام، على تقديم كل إنسان وكل شيء بشكل عارٍ مجرد، كان دائماً مسيطراً. لكن إن استمر المرء باتباع هذا الدافع الملحّ سوف يصل إلى نقطة حيث لا يبقى للمثقف أي شيء آخر ليقوله. تصبح الكلمات صرخة حرب، بديلاً منقوصاً للقبضة المضمومة بقوة. وصل بيتا إلى مرحلة حيث لم تعد ترضيه الكلمات؛ لم يعد بإمكانه كتابة القصص أو الرواية لأنها تحتاج إلى مرور الزمن لتثبت، وهذا لا يستجيب لحاجته إلى صرخة للمعركة. تسارعت الحركة التي كان معرضاً لها: أسرع فأسرع، جرعات أعظم وأعظم من الكراهية والدوار. أصبح شكل العالم أبسط فأبسط، حتى وصل في النهاية حيث شجرة مفردة وإنسان مفرد، فقد كل الأهمية ووجد نفسه ليس وسط أشياء محسوسة، إنما وسط مفاهيم سياسية. ليس من الصعب تفسير إدمانه المحموم على الصحافة. كانت كتابة المقالات تعمل عليه فعل

المخدرات. عندما يضع قلمه كان يشعر بأنه أنجز شيئاً ما. لا يهم عندها أن ليس ثمة فكرة واحدة خاصة به في هذه المقالات؛ لا يهم أن آلاف الصحافيين من الدرجة الثانية من نهر الإيلب إلى الأطلسي كانوا يقولون الشيء نفسه تماماً. كان فعالاً بمعنى الفعالية نفسها التي يعطيها جندي يسير ضمن تشكيلته.

«وغداً سيكون العالم بأسره» غنّى حراس الـ إس إس وهم يتحركون أمام خلفية من الدخان الأسود تتصاعد من المحارق في أوشفيتز. كانت النازية جنوناً جمعياً؛ ومع ذلك فقد تبعت الجماهير الألمانية هتلر لأسباب نفسية عميقة. اقتصاد عظيم وأزمات اجتماعية أديا إلى ولادة النازية. رأى الجيل الألماني الشاب في ذلك الوقت كل ما حوله من تفسّخ وفوضى جمهورية فايمر، إذلال الملايين من العاطلين عن العمل، الانحراف المقرف للنخبة الثقافية، دعارة أخواته، وصراع الإنسان ضد الإنسان على المال. عندما اختفى الأمل بالاشتراكية، تقبل الفلسفة التاريخية الأخرى المتاحة له، فلسفة كانت محاكاة ساخرة للعقيدة اللينينية ـ الستالينية. من المحتمل أن الألمان الذين حبسوا بيتا في معسكر الاعتقال كانوا، مثله، عشاقاً خائبي الأمل من العالم الذي يتوق إلى الانسجام والنقاء، إلى النظام والإيمان. احتقر مواطنيه الذين رفضوا الانضمام إلى الموكب البهيج. بقايا تثير الشفقة للمذهب الإنساني، همسوا بأن الحركة الجديدة تخرق المبادئ الأخلاقية. هنا، ومباشرة على مرأى النظر، كان خلاص ألمانيا وإعادة بناء العالم. وفي تلك اللحظة المميزة ـ لحظة لا تحصل إلا مرة كل ألف عام ـ يتجرأ هؤلاء المنتحبون المؤمنون بذلك المسيح البائس على ذكر وازعهم الأخلاقي التافه! كم هو صعب الكفاح من أجل نظام جديد أفضل؛ إن كان المرء لا يزال يجد بين شعبه هو مثل هذا الإجحاف الصبياني!

كان بيتا أيضاً يرى نظاماً جديداً أفضل في متناول يده. كان يؤمن

ويطالب بخلاص دنيوي. كره أعداء السعادة البشرية وأصرّ على أنه يجب تدميرهم. أليسوا هم من يقومون بعمل الشيطان والذين، وبينما يدخل الكوكب الأرضي عصراً جديداً، يتجرؤون على القول بأن سجن الناس، أو إخافتهم للمجاهرة بإيمان سياسي، ليس أمراً لطيفاً أبداً؟ من هؤلاء الذين نسجنهم؟ أعداء طبقيين وخونة ومتمردين. والإيمان الذين نفرضه على الناس، أليس إيماناً حقيقياً؟ التاريخ، التاريخ يقف في صفنا! يمكننا رؤية لهبه الحي المتفجر! صغار وعميان في الواقع هم الناس الذين، بدلاً من فهم المهمة العملاقة بكليّتها، يهدرون وقتهم في القلق حول تفاصيل غير مهمة!

على الرغم من موهبته وذكائه، لم يلاحظ بيتا الخطر الكامن في مسيرة حماسية. على العكس، قادته موهبته وذكاؤه وحميته إلى العمل في حين كان الناس العاديون يتريّثون ويرتدون إلى قيصر غير محبوب بقدر ما كان ضرورياً فقط. تحمّل المسؤولية طوعاً. لم يتوقف أو يتفهم كيف ستصبح فلسفة التاريخ ما إن تطلق لتغزو العالم بقوة الجيوش. «وغداً سيكون العالم!».

بعد أشهر عدة من كتابتي لهذه الصورة، علمت بموت بيتا. وجد ذات صباح في منزله في وارسو. كانت أنبوبة الغاز مفتوحة. هؤلاء الذين راقبوه في أشهره الأخيرة من نشاطه المحموم كان رأيهم أن التناقض بين ما كان يقوله في خطابه العلني وبين ما يلاحظه عقله السريع كان يتزايد يومياً. كان يتصرف بعصبية زائدة بالنسبة لهم حتى إنهم لم يشكّوا في أنه كان في الواقع مدركاً لذلك التباين. كان يتكلم كثيراً في «قضية مایاكوفسكي». ظهرت العديد من المقالات في الصحف كتبها أصدقاء له، كتّاب من بولندا وألمانيا الشرقية. كفنه الملفوف في علم أحمر، أنزل إلى القبر على وقع «النشيد الأممي» بينما كان الحزب يودّع أحد أفضل كتابه الشبان الواعدين.

الفصل ٦

# غَمّا، عبد التاريخ

للحديث عن غَمّا عليّ أن أستحضر صورة للبلدة التي ذهبت فيها إلى المدرسة ولاحقاً الجامعة. هناك أماكن معيّنة في أوروبا متعبة بشكل خاص لمدرّسي التاريخ والجغرافية: تريست، حوض السار، شليسويغ ـ هولسين. تماماً مثل هذه النقاط الحساسة كانت مدينة فيلنا. انتمت في نصف القرن الأخير إلى دول متعددة وشوهدت كثير من الجيوش في شوارعها. مع كل تغيير، يرسل الدهانون لإعادة كتابة لافتات الشوارع والمكاتب باللغة الرسمية الجديدة. مع كل تغيير، كان على السكان استصدار جوازات سفر جديدة وكانوا مجبرين على التكيف مع قوانين جديدة ونظام قضائي جديد. حُكمت المدينة على التوالي من قبل الروس ثم الألمان ثم الليتوانيين ثم البولنديين، ثم الليتوانين ثانية، والألمان ثانية، والروس ثانية. اليوم هي عاصمة الجمهورية الليتوانية السوفيتية الاشتراكية، لقب فاخر مصمم لإخفاء الحقيقة السمجة بأن روسيا تنفذ بفعالية تعاليم القياصرة في ما يتعلق بالتوسع الإقليمي.

خلال سنوات دراستي في المدرسة والجامعة كانت المدينة جزءاً من بولندا. تقع في أراضي غابات وبحيرات وجداول مخفية في أودية ملتفة الأشجار. يراها المسافرون تظهر بشكل غير متوقع من خلف الأشجار. أبراج كنائسها الكاثوليكية بناها المعماريون الإيطاليون على الطراز الباروكي، متباينة في ألوانها البيضاء والذهبية مع سواد غابات الصنوبر

المحيطة. تخبرنا الأساطير أن حاكماً ليتوانياً، وبينما كان يصطاد في البرية، غفي قرب النار ورأى حلماً تنبؤياً. وتحت تأثير السحر في حلمه، شيّد مدينة في الموقع الذي نام فيه. خلال القرون العديدة من وجودها، لم تتوقف فيلنا عن كونها مدينة غابات. كل ما حولها يخبرنا عن إقليم مهمل من أوروبا، إذ يتكلم سكانه البولندية والليتوانية والبيلاروسية، أو خليطاً من الثلاث، ويحافظون على العديد من العادات والتقاليد طويلاً بعد نسيانها في أماكن أخرى. أتكلم بصيغة الماضي لأن مدينة طفولتي اليوم تشبه أن تكون مغمورة بالحمم البركانية مثلما كانت بومبي. معظم سكانها السابقين إما قتلوا على يد النازيين، أو رحلوا إلى سيبيريا، أو أعيد توطينهم من قبل الروس في المناطق الغربية حيث طرد الألمان. أناس آخرون، ولدوا على بعد آلاف الأميال، يمشون الآن في شوارعها؛ وبالنسبة لهم، فإن كنائسها التي أسسها الأمراء الليتوانيون والملوك البولنديون، عديمة الفائدة.

لم يظن أحد، ولا حتى في الأحلام، بإمكانية حصول هذا القتل الجماعي والتهجير الجماعي. وحياة المدينة تكشفت في إيقاع كان أبطأ وأقل عرضة للتغيير من أشكال الحكومة أو حدود الممالك. كانت الجامعة وقصر الأسقف والكاتدرائية أكثر الصروح المثيرة للإعجاب في المدينة. في أيام الأحد، تملأ الحشود الشارع الضيق الذي يؤدي إلى بوابة المدينة القديمة، حيث تستضيف كنيسة صغيرة فيها صورة للعذراء معروفة بقدارتها الإعجازية. كانت فيلنا خليطاً من العمارة الإيطالية والشرق الأدنى. في الشوارع الصغيرة للحي اليهودي وفي أمسيات أيام الجمعة، تمكن، ومن خلال النوافذ، رؤية عائلات مجتمعة على ضوء الشموع. تتردد أصداء كلمات الأنبياء اليهود في الكُنُس القديمة، لأن هذا المكان كان أحد أهم المراكز اليهودية الأدبية والتعليمية في أوروبا. كانت الأسواق الكبيرة في العطل الكاثوليكية تجتذب المزارعين إلى المدينة من

القرى المجاورة، حيث يعرضون بضائعهم الخشبية وأعشابهم الطبية على الأرض. ولا يكتمل السوق من دون الـ *أوبوارزانكي* (كعك مستدير صغير قاسٍ يمرّر في حبل يربط كل مجموعة مع الأخرى)؛ ومهما كان المكان الذي خبزت فيه هذه الكعكات، فهي تحمل دوماً اسم المدينة الصغيرة التي كانت شهرتها الوحيدة في مخابزها وفي «أكاديمية الدب» التي وجدت ذات مرة، وهي معهد كان يدرب الدببة. في الشتاء، تمتلئ الشوارع الزلقة بالصبية والفتيات على زلاجاتهم، تلتمع ستراتهم الحمراء والخضراء تحت الثلج الذي يصبح ورديّاً في الشمس الباردة.

لأبنية الجامعة جدران سميكة وصفوف مقنطرة منخفضة. يضيع المبتدئون دائماً في متاهات ساحاتها الظليلة. يمكن الظن بسهولة أن أروقتها وقاعاتها تقع في بادوفا أو بولونا[1]. في الماضي كان اليسوعيون يدرسون أولاد النبلاء في أبنيتها؛ لكن في الوقت الذي كنت أدرس فيه هناك، كان أساتذة عاديون يدرسون شباناً معظمهم أبناء ملاك أراضٍ صغار، أو مستأجرو مزارع، أو تجار يهود.

التقيت غما في ذلك البناء. كان ولداً غليظاً أحمر الوجه، جلفاً وصاخباً. إن كانت فيلنا بذاتها ريفية، فإن الذين تركوا قراهم المتخلفة ليأتوا للدراسة فيها ريفيون بشكل مضاعف. الدروب الريفية الموحلة جعلت التواصل مستحيلاً خصوصاً في الربيع والخريف؛ كان الرعب يتملك خيول الفلاحين عند رؤية سيارة؛ في العديد من القرى، وكانت المنازل لا تزال تضاء بواسطة مشاعل الأغصان. كانت الحرف اليدوية المنزلية وقطع الأعشاب هي المهن الوحيدة، بالإضافة إلى أعمال الزراعة، التي يعرفها السكان. جاء غما من الريف. والده، الضابط

---

(١) مدن في إيطاليا. (م)

المتقاعد في الجيش البولندي، كان يملك مزرعة. عاشت العائلة في تلك المنطقة على مدى أجيال، ويمكن إيجاد أسمائها في سجلات النبلاء الصغار لتلك الأراضي. كانت والدة غما روسية وقد نشأ ثنائي اللغة. وعلى عكس غالبية رفاقه الكاثوليك كان أرثوذكسياً، وهو إيمان ورثه من والدته.

لم تنبئ أول محادثة بيننا عن أي تفاهم وثيق. صحيح أننا كنا مرتبطين باهتمام عام بالأدب، لكنني شعرت بالانزعاج من سلوكه ومن صوته الحاد ـ لم يكن يعرف قط كيف يتكلم بنبرة طبيعية ـ ومن الآراء التي نطق بها. كان يحمل دائماً عصا ثقيلة من نوع السلاح المفضل الذي يعطى للشبان المتطرفين في عدائهم للسامية. كان عداؤه العنيف للسامية في الحقيقة هو برنامجه السياسي. بالنسبة لي، كنت أحتقر مثل هؤلاء القوميين؛ وأفكر أنهم حمقى خطيرون يرفعون أصواتهم بالصراخ والاحتجاج حتى لا يفكروا، ويثيرون كراهية متبادلة بين مختلف الجماعات الوطنية. هناك أحاديث معيّنة تعلق في ذاكرة المرء؛ وأحياناً ما يتذكره المرء، أكثر حتى من الكلمات الفعلية، هو كيف كان يبدو شكل الآخر في تلك النقاشات. عندما أتذكر حديثنا حول العنصرية، أرى ساقيه، والحجارة المستديرة التي ترصف الشارع، وعصاه وهي تستند إلى قناة تصريف المياه في الشارع. تكلم عن الدم والتراب، وكيف أنه على القوة أن تكون راسخة ليس في كل المواطنين بغض النظر عن العرق أو اللغة الأم، بل في الفئة الوطنية المسيطرة، والتي عليها أن تحسب حساب حماية سلالتها ضد التدنيس أو التلويث. ربما كان تعصبه الوطني جهداً مبذولاً للتعويض عن عيوبه الشخصية؛ لا شك أن الخليط الذي يتألف منه: أصله النصف روسي وإيمانه الأرثوذوكسي، قد سبب له كثيراً من الإزعاج على يد رفاق مدرسته القرويين البدائيين. لعلع صوته عالياً، محارباً يتخلله شعور بتفوقه الشخصي. أيقظت حججي ضد

النظريات العرقية اشمئزازاً عميقاً في داخله؛ اعتبر أنني شخص من النوع الذي يكون تفكيره عقبة أمام الفعل. بالنسبة له، فقد كان يريد الفعل. كان هذا في عام ١٩٣١. كنا نحن الاثنين شابين صغيرين جداً، فقيرين جداً، وغير مدركين للأحداث غير الطبيعة التي سنقتحمها لاحقاً.

زرته في عام ١٩٤٩ في إحدى عواصم أوروبا الغربية التي كان سفيراً فيها لِـ بولندا الحمراء، وعضواً موثوقاً في الحزب. كانت بوابة حديدية ثقيلة تحمي مسكنه. بعد دقائق قليلة من قرع الجرس، تظهر عين على الكوة، ثم تصلصل المفاصل، ويمكن عندها أن ترى ساحة كبيرة مع بضع سيارات لامعة فيها.

على الجانب الأيسر من المدخل يقف كشك الحراسة للسائق الذي في الخدمة، الذي كان مسلحاً بمسدس تحسباً لأي حادث غير متوقع. عندما تقف في وسط الساحة، يمكن لك رؤية تناسق الواجهة والأجنحة. كان هذا أحد أجمل القصور في تلك العاصمة الجميلة. بناه أحد أرستقراطيي القرن الثامن عشر لخليلته. حافظ داخله على شخصيته السابقة؛ الغرف الكبيرة، بجدرانها المغطاة بخشب السنديان المذهب، العفش الموجود من البسط والسجاد الغوبليني لذلك القرن. استقبلني غما وسط الذهب والرخام؛ كان ودوداً؛ ذهبت السنون بخشونة حركاته، وأدخلت بعض اللطف المتكلف في سلوكه. مسكنه كان في هذا القصر، وكذلك صالونات الاستقبال، والمكاتب. زاره العديد من أكثر ممثلي الفن والعلوم الغربيين شهرة مراراً. دعاه أحد الباحثين الإنكليز المعروفين بالرجل الساحر، والليبرالي، والخالي من التعصب. شارك هذا الرأي العديد من أعضاء النخبة المثقفة، ومن بينهم كاثوليك وليبراليون وحتى محافظون. بالنسبة إلى نجوم الأدب الشيوعي الغربي، كانوا معجبين به لأنه مبعوث الشرق الذي يعبدونه، ولأنه كان حاذقاً بشكل كبير في تقييمه الماركسي للمشاكل الأدبية. من الواضح أنهم لم يكونوا على دراية

بماضيه ولا بالثمن الذي يجب دفعه كي يبرز شباب غير ناضج في إحدى أكثر الزوايا إهمالاً في أوروبا، ويصبح سيد قصر من القرن الثامن عشر.

كان غما يشعر بأنه في أفضل حال في تلك العاصمة الغربية. كان يحب زيارة المواقع الليلية والكباريهات، وكان معروفاً بشكل جيد هناك حتى إنه ما إن يدخل فإن الميتر الذي يدير القاعة يصطحبه باحتفالية إلى أفضل طاولة. أن ترى هذا الرجل اللامبالي وهو يراقب الناس من خلال عين ضيقة من خلف زجاجة الشامبانيا الموضوعة في دلو الثلج فإنك يمكن أن تخطئ الظن فيه وتحسبه أحد الإقطاعيين الإنكليز الذي تمكن من إنقاذ بعض من ثروته. طويل، محدودب بعض الشيء، لديه وجه طويل محمر لرجل أمضى معظم حياته برفقة البنادق والكلاب. كان يشبه إلى درجة كبيرة ما كانه حقاً: أحد أعضاء الطبقة الأخفض من النبالة البولندية، التي كانت فيما مضى تمارس الصيد بشغف، وتشرب بشغف، وقد أوفت واجباتها السياسية عن طريق تقديم خطب تتخللها مقاطع طويلة باللاتينية، أو قمع احتجاجات بالصياح الكورالي أو، عندما تقتضي الضرورة، بالعراك بين الطاولات والمقاعد المقلوبة. حرية إيماءاته وتحياته كانت حرية رجل مدرك لامتيازاته. كان يتصرف تجاه مرؤوسيه، الذين كان عليهم مرافقته في رحلاته الاستكشافية الليلية غالباً كجزء من واجباتهم الوظيفية، بترفع مطبوع بالكرم. في المكتب كان أحياناً، وبدافع من روح عالية مفرطة، يجذب سكرتاريا السفارة من أنوفهم أو يصفعهم صفعات مدوية من الخلف. لكنه أيضاً كان عرضة لنوبات غضب جامح. عندها يتحول وجهه المتورد إلى القرمزي، وعيناه الزرقاوان تصبحان محتقنتين بالدماء، ويستعيد صوته نبرته الحادة الوحشية السابقة. لا عجب أن الدبلوماسيين الغربيين والباحثين والفنانين يعتبرونه *محباً للحياة* غير معقد نفسياً. حتى قلة لياقته بدت وكأنها تنبع من طبيعة منفتحة أسيء إليها فيما مضى بسبب صدقها المفرط، لكنها بكل الأحوال خالية من المكر.

عدم وجود الحرج الذي يتميّز به حديثه حول أمور تعتبر حساسة من قبل الشيوعيين الآخرين تجعله يحوز ثقة مستمعيه. هذا ليس شيوعياً ـ سوف يوافقون بعد زيارة للسفارة ـ أو إن كان كذلك، إذاً كم يبدو مظهره حضارياً ومتحرراً! ما كانوا يظنونه طبيعة فيه كان بالنسبة له اصطناعاً محضاً. مدركاً شبهه بإقطاعي ريفي، استخدم تكلفه البسيط المتأنق بمهارة متعمدة. وحدهم الذين يعرفونه معرفة وثيقة يمكن لهم رؤية الحسابات الباردة التي تكمن تحت هذا الفيض المتكلف. في حضنه يحمل خنجراً خفياً يمكن له الطعن به غدراً على غير توقع. لكن في الوقت نفسه، فإن هذا الخنجر، الذي لا يفارقه في الليل والنهار، يثلج قلبه. لم يكن رجلاً سعيداً.

استطاع، وهو يرسم أكثر الابتسامات جاذبية على وجهه، أن يقنع كثيراً من الدبلوماسيين، المشكوك في رغبتهم بعدم العودة إلى ما وراء الستار الحديدي، بأنه شخصياً يريد الخير لهم. أرعد وأزبد ضد هؤلاء الحمقى في وارسو الذين لا يفهمون كيف يجب التعامل مع الأمور في الغرب. ويقترح بعدها رحلة مشتركة بالجو إلى وارسو، لعدة أيام، ليشرح لهؤلاء الحمقى كيفية تسوية بعض الإشكاليات التي سببت العديد من البرقيات. يتمعن الجانح في التفكير: النوايا الطيبة لِـ غما بديهية؛ وكل رحلة إلى وارسو هي برهان على الولاء تجاه الحكومة وتمدد بهذا الشكل فترة بقاء المرء في الخارج؛ وهكذا يرى أن لا شيء ينطوي على خطورة في المدى المنظور. يركب الدبلوماسي الطائرة في جو احتفالي بعد تبادل بضع نكات مع غما. ما إن يصل أرض المطار في وارسو حتى يدرك أنه وقع في مصيدة. بعد إنجازه مهمته، يأخذ غما أول طائرة بالاتجاه المعاكس. مراقبة ضمير العاملين لديه لم يكن أقل مهامه؛ كان في الواقع شرفاً له وعلامة على الثقة. كان خنجره يعمل بأفضل ما يمكن

متى استلزم الأمر مهارات المختص النفسي، وذلك في الحالات التي عادة ما يكلف بها البوليس السياسي.

لكن دعوني أعود إلى الماضي. عندما لم يكن يعرف طعم الشمبانيا. كانت كافيتيريا الجامعة حيث كنا نأكل، وإخلاصاً للتقاليد القديمة، تحمل مثلها مثل العديد من أبنية الجامعة، اسماً لاتينياً: مينسا[1]. كان ثمن الوجبات قليلاً للغاية، لكنها كانت سيئة بقدر رخصها. وبناء على ذلك كانت الموضوع المفضل لأبيات شعرية ساخرة كانت تنشد حول الصلابة منقطعة النظير لكرات اللحم وللحساء الذي يشبه الماء. وسط دخان سجائر سيئة، كنا نجلس هناك ونتناقش حول الشعر ونوزع على بعضنا أكاليل المجد بطريقة لم تكن تهم أحداً سوانا. ومع ذلك فإن مجموعتنا من الكتاب المبتدئين سوف تجذب اهتمام العديد من الناس في المستقبل وسوف تلعب دوراً مهماً في تاريخ بلدنا. في الوقت الذي كان فيه رفاقنا يركزون اهتمامهم على دراساتهم أو على الفوز بعمل جيد في المستقبل، كنا نحن نتوق إلى الشهرة ونحلم بإعادة تشكيل العالم. وكما يحدث غالباً، كان ثمن مواهبنا وذكائنا مدفوعاً من اضطراب توازننا الداخلي. داخل كل واحد منا كانت هناك جروح تعود إلى الطفولة أو الصبا، مختلفة في كل منا لكنها مميزة في عنصر أساسي، في شيء ما جعل من المستحيل بالنسبة لنا أن نعيش بانسجام مع آخرين من عمرنا، شيء ما جعلنا نشعر أننا «مختلفون» وهذا كان يقودنا للبحث عن التعويض. ليس من السهولة تعقب الدوافع الذاتية التي تولّد طموحاً مفرطاً. أظن أن غما كان حساساً للغاية في ما يخص عائلته. وهناك عنصر آخر أثر فيه بعمق وهو أمر حدث له عندما كان تلميذاً في المدرسة: قتل عن طريق الخطأ صديقاً أثناء الصيد. ربما ساعد الشعور بالذنب الذي ظهر كنتيجة لهذا الحادث على تشكيل قراراته المستقبلية.

---

(١) طاولة باللاتينية. (م)

ربما الأكثر أهمية من ذلك كان اضطراب توازننا الاجتماعي. كنا جميعنا متمردين على بيئتنا. ولا أحد منا كان من الطبقة العاملة[1]. كنا منحدرين من الإنتيليجنسيا، التي كانت في ذلك الجزء من أوروبا مرادفاً للنبالة الفقيرة أو لأسفل الطبقة الوسطى. كان والد غما، كما قلت، ضابطاً متقاعداً؛ جورج، شاعر، كان ابن محام ريفي؛ ثيودور، شاعر (لاحقاً أطلق عناصر من المقاومة السرية البولندية النار عليه بتهمة الدعاية للحزب)، حمل اسماً أرستقراطياً مع أن أمه كانت موظفة في بنك؛ هينريك، خطيب وكاتب وسياسي (أطلق الألمان عليه النار لاحقاً)، كان ابن مهندس سكك حديدية، وكان يفتخر بأنه يحمل أحد أكثر الأسماء شهرة في بولندا؛ ستيفان، شاعر، صار فيما بعد اقتصادياً بارزاً، متحدر من أسرة تجارية فاشلة نصف ألمانية؛ وبالنسبة لي فإن عائلتي تنتمي إلى النبالة الليتوانية، إلا أن والدي هاجر من الريف إلى المدينة ليصبح مهندساً. التمرد على البيئة يعني أن المرء يشعر *بالخجل* من بيئته. كان وضعنا الاجتماعي جميعنا غير محدد. مشاكلنا كانت مشاكل القرن العشرين ذاتها، إلا أن تقاليد عائلاتنا قيّدتنا إلى الأعراف والتقاليد التي كنا نظن أنها سخيفة ورجعية. كنا عالقين في الفراغ، ولم نكن استثناء في هذا الأمر. لم تختبر البلاد مرحلة ثورة صناعية حقيقية؛ والطبقة الوسطى كانت ضعيفة؛ كان العامل بالنسبة إلى بعض الناس مخلوقاً متوحشاً متسخ الوجه يعمل بإفراط أو يشرب بإفراط، وكان أسطورة بالنسبة إلى آخرين، وموضوعاً للعبادة. كان مجتمعنا مقسماً إلى «إنتيليجينسيا» كمضاد لِـ «الناس». وإلى الأخيرة كان ينتمي العمال والفلاحون. كنا من فئة «الإنتيليجينسيا»، إلا أننا تمردنا ضدها لأنها كانت متوجهة صوب الماضي بدل المستقبل. يمكن مقارنة وضعنا، من بعض النواحي، بوضع

---

(١) البروليتاريا. (م)

أولاد العائلات الفقيرة الأولى في الجنوب في الولايات المتحدة. كنا ننجرف بلا هدف، ولم نستطع إيجاد مكان لنرسو فيه. أطلق بعض الناس علينا اسم «نادي المثقفين» في جهد منهم لوضع المثقفين في تعارض مع «الإنتيليجينسيا».

تلك كانت سنوات أزمة اقتصادية حادة. انتشرت البطالة على نطاق واسع بين السكان. الجامعي الشاب الذي يعيش من دون مال ومن دون أمل بإيجاد عمل بعد إنهاء دراسته كان بمزاج متطرف. اتخذ هذا التطرف شكلين. بعضهم، مثل غما، في بداية مكوثه في الجامعة، أصبح وطنياً متشدداً. وجدوا حلول جميع المصاعب في التعريف المبهم لِـ «الثورة الوطنية». في الممارسة، كان هذا يعني تصرفاً عدائياً تجاه رفاقهم اليهود، الذين سيكونون، كمحامين وأطباء مستقبليين، منافسيهم المهنيين. انبثق «اليسار» في مواجهة هؤلاء الوطنيين، والذي كان برنامجه، المختلف بحسب المجموعات، متأرجحاً بين الاشتراكية وأشكال مختلفة من 'البرنامج الحكومي الجديد'[1]. خلال الانتخابات السنوية لِـ«مساعدات الأخويات»، التي كانت شيئاً من طبيعة إدارة مستقلة للطلاب التي تدير بيوت الطلاب، والـ مينسا، إلخ، اشتبك هذان الجناحان في معارك بالكلمات وأحياناً بالقبضات.

حاول كل من الشيوعيين والحكومة الفوز على «اليسار»، وذلك إن كان بإمكاني استخدام هذا المصطلح لوصف هذا الخليط من الجماعات المختلفة. حاول الحكم شبه الديكتاتوري المعتدل لِـ بيلسودسكي[2]،

---

(١) New Deal برنامج اقتصادي سياسي قدمه الرئيس روزفلت عام ١٩٣٣ لتحفيز النمو الاقتصادي. (م)

(٢) سياسي بولندي (١٨٦٧ ـ ١٩٣٥) كان رئيس بولندا بين عامي ١٩١٨ ـ ١٩٢٢، ثم قام بانقلاب عسكري عام ١٩٢٦ وحكم حتى وفاته عام ١٩٣٥. (م)

والمفتقر لبرنامج واضح، التودد بحياء للشبان في جهد منه لتجنيد قيادة جديدة. وحاول السعي وراء اليسار بوعود بالإصلاح، بعد رؤيته لنمو التطرف في الجامعات. كانت مجموعتنا، ولبعض الوقت، الدعامة الأساسية لمحاولات الحكومة تعزيز موقعها بين شباب الجامعة. اعتُبر أصدقاؤنا، ستيفان وهينريك، أكثر السياسيين الواعدين في «حكومة» الشباب في البلاد. إلا أن هذه المحاولات انتهت بالفشل. «أكثر السياسيين الشبان الواعدين» انشقوا عن الحكومة وذهبوا أكثر باتجاه اليسار؛ في حين دفعت آلية الأحداث الحكومة باتجاه اليمين أكثر. بدأت القومية ـ إن لم أقل الشمولية بكل معنى الكلمة في النسخة المحلية ـ بإحراز انتصارات أكبر. تخلّت الحكومة عن دعمها المشروع المرقع لِـ «حكومة اليسار» وبدأت تتودّد إلى القوميين.

دعونا نعتبر أن هذا يكفي كصورة عامة لسياسات ما قبل الحرب في المدينة التي تتدفق حممها الآن: فيلنا. تغطي قصتي هذه سنوات عديدة. خلال ذلك الوقت، وفي كل ربيع ما إن نبدأ بالتحضير للامتحانات حتى تكون الأشجار قد صارت خضراء؛ ومنذ ذلك الوقت، لم يكن الأخضر في أي مكان آخر بمثل بهجته تلك بالنسبة لي. على النهر، تقترب بضعة قوارب وهي تحمل المتنزهين إلى الشواطئ القريبة، وأخشاب طويلة تطفو خارجة من الغابة باتجاه المناشر. يتنزه العشاق الشبان ممسكين أيدي بعضهم تحت أقواس أروقة الجامعة. أن تنهض قبل انبلاج الفجر، وتأخذ الكاياك عند رصيف الميناء، وفي أشعة الشمس البازغة، تجذف في النهر الذي تندفع مياهه ما بين المنحدرات الرملية ومجموعات أشجار الصنوبر؛ تلك كانت متعة خالصة. غالباً ما كنا نعرج في نزهتنا على البحيرات القريبة التي ينبثق من وسطها أرخبيل من الجزر مثل باقات ورد كبيرة. كان العشب على تلك الجزر بهيجاً لم تمسه قدم إنسان من قبل، والعنادل تهدر بين أشجار الصفصاف. كنا نندفع باتجاه المياه ثم نسبح

خارجين منها، معكرين منظر انعكاس الغيوم والأشجار على سطحها الصقيل؛ أو نسبح على ظهرنا في الماء، ننظر إلى السماء ونغني بسعادة أغاني غير واضحة. عايشنا خيانات الحب، والحزن على الامتحانات الفاشلة، والمكائد المشتركة والحسد. ظهرت مقالاتنا وأشعارنا في الصحافة. تغيرت مواضيع النقاش أثناء تناول كرات اللحم القاسية في الـ مينسا. المناظرات والجدل حول مدلول الاستعارة في الشعر أفسحا المكان لصالح مناقشة نظريات جورج سوريل[1]، ولاحقاً ماركس ولينين.

افترق غما عن القوميين بسرعة؛ ومع ذلك فقد كان لديه تعاطف قليل مع «الحكومة اليسارية» أو مع الكاثوليك اليساريين. كتب شعراً نشر في مجلة كانت تصدرها مجموعتنا؛ إلا أن شعره، عكس الشعر الذي كان يكتبه ثيودور أو جورج أو أنا، لم يتعرض لا للهجوم عليه ولا للمديح. تلقاه النقاد بصمت. كان متمكناً من البراعة الفنية التي يحتاجها الشعر المعاصر، إلا أن ما كتبه كان بدون روح. أعتقد أن الحاسدين يكتبون بغباء؛ إلا أن أسلوبهم شخصي فريد، وإيقاعاتهم الشبيهة بتعاويذ مغناة تعبر عن مشاعر المؤلف، حنقهم وسخريتهم يزعجان القراء، إلا أنهما يحوزان على اهتمامهم. كان شعر غما تنظيمات مدروسة لاستعارات منتقاة بعناية لكنها لا تقول أي شيء.

أصبحت مجموعتنا راديكالية أكثر فأكثر. بعد انهيار «حكومة اليسار»، انبثق السؤال: ما هو «اليسار»؟ شاركت الديمقراطية الاشتراكية في بلادنا أخطاء الأحزاب الديمقراطية الاشتراكية في عموم القارة؛ كانت ضعيفة وراغبة في التسوية. بدأت روسيا تظهر في محادثاتنا أكثر من أي وقت

---

(١) مفكر وفيلسوف فرنسي (١٨٤٧ ـ ١٩٢٢) يعتبر الأب الروحي للحركات النقابية الثورية، له تأثير على كل من النازية والماركسية بسبب مفهومه لتأثير الخرافات على حياة الناس وكذلك بسبب دفاعه عن العنف. أشهر كتبه «أفكار حول العنف». (م)

مضى. كنا نعيش على بعد أقل من مئة ميل من حدود الاتحاد السوفيتي، ومع ذلك لم تكن لنا معرفة به أكثر من معرفتنا بسكان البرازيل. كانت الحدود مغلقة بإحكام. كان مكاننا يقع على أطراف عالم مختلف عن الشرق كلياً وكأننا على كوكب آخر. ذلك العالم الشرقي، والذي نعرفه من الكتب فقط، بدا لنا مثل عالم من التقدم عندما نقارنه مع ظروف يمكن لنا مراقبتها مبدئياً. اقتنعنا، بعد وزن الأمور بعقلانية، بأن المستقبل يكمن في الشرق. كانت بلادنا في حالة شلل. لم يكن للجماهير صوت في الحكومة. كان الفلتر الاجتماعي مخططاً بإحكام إلى درجة أن شباب الفلاحين والعمال لم يكن بإمكانهم الدخول إلى المدرسة الإعدادية والجامعات؛ لأن المصاريف، مع أنها منخفضة، كانت أكثر من إمكاناتهم. جرى حل المشاكل المعقدة للأقليات الوطنية (ولبلادنا نسبة كبيرة من الأقليات) بأكثر الطرق شوفينية. دفعت الحركة القومية، مدعومة بالبرجوازية ضيقة الأفق والإنتيليجينسيا المفلسة، الحكومة نحو تمييز عنصري يزداد حدة باستمرار. كانت البلاد تتجه نحو التغيير الذي كان يحدث في ألمانيا المجاورة، ألمانيا ذاتها التي هددت بالحرب ودمار بولندا. هل يمكن الاستغراب أننا نظرنا باتجاه روسيا كبلد وجد الحل لكل المشاكل التي تقلقنا، كبلد يمكن له وحده إنقاذنا من المصيبة التي أمكننا تصورها بسهولة بينما كنا نستمع إلى خطابات هتلر عبر الراديو؟

ومع ذلك، لم يكن من السهولة أن تصبح شيوعياً، لأن الشيوعية تعني مراجعة شاملة لكل أفكار المرء حول القومية. على مدى قرون كانت بولندا في حالة حرب دائمة مع روسيا. في زمن سابق قاد الملوك البولنديون قواتهم حتى أبواب «روما الشرق». ثم مال الميزان لمصلحة موسكو حتى في النهاية، وخلال القرن التاسع عشر بكامله، أصبح القسم الأكبر من بولندا تحت حكم القيصر الروسي. بقبولك الشيوعية، فأنت تقبل فكرة أن كل هذه الصراعات بين الأمتين كانت عبارة عن

صراعات بين طبقتيهما الحاكمتين فقط. كان من الضروري نسيان الماضي. أنت تعترف أن بولندا ـ بعد فترة استقلالها القصيرة الناتجة عن معاهدة فرساي للسلام ـ ستكون، على ضوء انتصار الشيوعية، مرة أخرى إقليماً روسياً. الأقاليم البولندية الشرقية، والمدينة التي كنا نعيش فيها، سوف تندمج مباشرة في الاتحاد السوفيتي لأن موسكو تعتبرها جزءاً من جمهوريات بيلاروسيا وأوكرانيا. بالنسبة للبقية، سوف تصبح بديهياً جمهورية أخرى إضافية في الاتحاد. لم يبذل الشيوعيون البولنديون أي جهد لإخفاء أن ذلك كان برنامج الحزب.

تخلّي المرء عن ولائه لبلده واجتثاث الشعور الوطني يغرسان في الذهن في المدرسة وفي الجامعة؛ هذا هو ثمن الدخول في طريق التقدم والارتقاء. ليس كل إنسان مستعداً لدفع هذا الثمن. تفتتت مجموعتنا. «السياسيون الحكوميون الشبان الواعدون»، ستيفان وهيندريك، صاروا ستالينيين؛ وانسحبنا أنا وجورج. هؤلاء الذين عبروا الخط ظنوا أن بقيتنا شعراء ضعفاء، دودة كتب غير قادرة على الفعل. ربما لم يكن رأيهم بعيداً عن الحقيقة. لست واثقاً، ومع ذلك، فإن هذا الثبات العنيد هو أعظم فضائل الإنسان.

أصبح غما ستالينياً. أظن أنه شعر بالضيق لكتابته ذلك الشعر الخالي من الإحساس. لم يكن مصنوعاً من أجل الأدب. كلما جلس أمام ورقة بيضاء أحس بالفراغ في داخله. كان عاجزاً عن اختبار المتع الانفعالية المكثفة للكاتب، سواء تلك التي تحدث أثناء عملية الإبداع أو عند إنجاز العمل. كانت الفترة بين قوميته وستالينيّته بالنسبة له مثل الليمبو، فترة من المسارات الفارغة ومن التحرر من الوهم.

كان الحزب الشيوعي غير قانوني في بلدنا. العضوية فيه تستحق العقوبة تحت نص قانوني يعرف أي محاولة لتجريد بولندا من أي

أقاليمها كجريمة جنائية. حاول قادة الحزب، بعد إدراكهم أنهم لن يكسبوا شيئاً في ذلك الوقت من النشاطات غير القانونية، الوصول والهيمنة على الرأي العام من خلال المتعاطفين غير المنخرطين مباشرة في الحزب. ظهر عدد من المطبوعات في بولندا تتبع خط الحزب، وتُهيّئه على مستوى القراء الغافلين. بدأت المجموعة التي وجد غما نفسه فيها بتحرير واحدة من تلك الدوريات. كان التواصل مع رسل الحزب يحصل في السر، غالباً خلال رحلات إلى الغابات المجاورة. في هذا الوقت كان معظم أفراد مجموعتنا الأصلية قد أنهوا دراستهم. كانت هذه فترة الحرب في إسبانيا والجبهة الشيوعية «دفاعاً عن الثقافة»، وذلك عندما كان الحزب يحاول أن يحشد كل قوى التحرر تحت شعار شعبي رائج.

كتب غما مقالات، وتحدث في اجتماعات، وشارك في مسيرات عيد العمال. لقد فعل. عندما أقفلت السلطات الدورية، واعتقلت المحررين وأرسلتهم إلى المحاكمات، وجد نفسه، مع الآخرين، في قفص الاتهام. خلقت المحاكمة ضجة كبيرة في المدينة؛ كانت صفعة كبيرة للحكومة لأنها أظهرت أن هؤلاء الشبان، الذين كانت تعتمد عليهم بالدرجة الأولى، كانوا يتجهون بسرعة صوب الشيوعية. غضب العديد من الليبراليين من قسوة السلطات تجاه هؤلاء الخريجين الجامعيين، هؤلاء الدكاترة الشبان في القانون أو في الفلسفة. دافع عنهم أفضل المحامين في المدينة. جادل المدعى عليهم وكذبوا بإقناع وباستمرار؛ كانوا مدرَّبين عقلياً بشكل أفضل من النائب العام، ولم يتنازلوا أمامه في معرفتهم بالقانون. تلقوا عقوبات متسامحة. حكم على غما بالبراءة لنقص الأدلة.

خلال السنوات التي سبقت مباشرة اندلاع الحرب العالمية الثانية، اشتغل غما في اختصاصه، حيث عمل أبحاثاً أدبية. كتب كتاباً حول بنية القصة القصيرة حيث لا يمكن أن تفضح أبداً ميوله السياسية. وبشكل

مشابه، كان من الصعب اكتشاف أي آراء ثورية واضحة في ديواني الشعر الذين نشرهما. تزوج وأنجب ابنة. كانت حياته كفاحاً مستمراً ضد المشاكل المادية. لأنه كان معروفاً أنه شيوعي، لم يكن باستطاعته الأمل في منصب حكومي، لذلك فقد دعم نفسه بأعمال أدبية عرضية. من وقت إلى آخر، كان ينشر مقالاً معتدلاً حول الأدب في منشورات يسارية. وانتظر ساعته.

جاءت هذه الساعة بسرعة. هاجم هتلر بولندا، وكان زحفه خاطفاً. تحرك الجيش الأحمر لملاقاته واحتل، بموجب اتفاقية ريبينتروب - مولوتوف، تلك المناطق التي كان برنامج الحزب يصرح علناً وباستمرار أنها يجب أن تنضم إلى الاتحاد. كان تأثير ذلك الهجوم مثل تأثير النار على وكر للنمل. آلاف من الناس الجائعين والخائفين سدوا الطرقات: جنود من الجيش المهزوم يحاولون العودة إلى بيوتهم، رجال شرطة يحاولون التخلص من زيهم الرسمي، نساء يبحثن عن أزواجهن، مجموعات من الرجال كانت ترغب في القتال إلا أنها لم تجد أسلحة. كان هذا زمن الهجرة العالمية. هربت حشود كبيرة من الناس من الشرق إلى المناطق المحتلة من قبل الألمان في الغرب؛ وحشود مشابهة هربت من الألمان إلى الشرق والحكم السوفيتي. نهاية الدولة وسمت بفوضى لا يمكن أن تحدث ربما إلا في القرن العشرين.

سحب غما إلى الخدمة العسكرية إلا أنه أمضى بضعة أيام فقط في الجيش، جاءت الهزيمة سريعاً. عرض الاتحاد السوفيتي برحابة صدر مدينة فيلنا على ليتوانيا، عربون صداقة من جارها الجبار لمدة سنة قبل أن يتم ابتلاعها في النهاية. غما، التواق إلى الفعل، انتقل إلى مدينة لفوف[1]، أكبر مدينة تحت الاحتلال السوفيتي. وهناك التقى بكتاب آخرين من المؤيدين

---

(١) مدينة في غرب أوكرانيا. (م)

للستالينية، وتم تنظيمهم بسرعة. حصلوا على منزل بدعم من السلطات الجديدة، حيث أقاموا فيه مطعماً صغيراً وأماكن للمعيشة؛ وهناك انطلقوا للعمل على نمط جديد من الكتابة ـ يتألف في الأغلب من الترجمة من الروسية، أو من بروباغاندا ليست مفرطة في التدقيق.

في هذه الظروف الجديدة، حاز غما بسرعة على ثقة الاختصاصيين الأدبيين الذين أُرسلوا من روسيا للإشراف على «تنظيف الثقافة» للأقاليم المكتسبة حديثاً. العديد من رفاقه، على الرغم من أنهم شيوعيون نظرياً، مزقتهم الصراعات الداخلية. حولتهم المصائب التي ألمت بوطنهم إلى حالة من الانهيار العصبي. وحشية الغزاة وعداوتهم تجاه كل البولنديين ملأتاهم بالخوف. كانوا للمرة الأولى على اتصال بالعالم الجديد المشؤوم والذي، وحتى الآن، كانوا يعرفونه فقط من خلال القصص المنمّقة. إلا أن غما لم يظهر أي شك؛ كان قد اتخذ قراره. أشعر بإغراء أن أُوضّح ذلك على قاعدة صوته وضحكته الجافة غير السارة، والذي يمكن أن يقود المرء إلى الاشتباه بأن حياته العاطفية كانت دائماً بدائية نوعاً ما. كان يعرف الغضب والكراهية والخوف والحماس؛ لكن العواطف التأملية كانت غريبة عليه؛ وهنا يكمن ضعف موهبته.

تشبث غما بالعقيدة بسبب إدانته بالكتابة الفكرية المحضة المجردة من العواطف. كل ما كان عليه قوله كان يمكن الصراخ به في الاجتماعات أو طباعته في منشورات البروباغاندا. كان بإمكانه التقدم من دون أن يتأثر بأية مضاعفات عاطفية؛ كان بإمكانه التعبير عن نفسه بأسلوب واحد. عزّز إتقانه اللغة الروسية نجاحه (ليس ككاتب بل كسياسي أدبي، والذي هو النوع الأهم من النجاح الأدبي في النظام الستاليني). لا ننسى أنه كان نصف روسي، وبالتالي كان بإمكانه الوصول بسهولة أكثر من الآخرين إلى تفاهم مع الحكام الجدد. جرى تقييمه بأنه أحد «الموثوقين».

إلا أن معظم الناس في المناطق المكتسبة حديثاً لم يكونوا مرتاحين

بهذه الدرجة. كانوا يرتجفون خوفاً. أفهمتهم الاعتقالات الأولى أن يتوقعوا الأسوأ؛ ومخاوفهم كانت مبنية على أساسات صحيحة لأن الأسوأ جاء سريعاً، على شكل ترحيل جماعي. عند الفجر، طرق عملاء وزارة الداخلية السوفيتية[1] على أبواب المنازل والأكواخ؛ أعطوا مهلاً قصيرة لعائلات المعتقلين ليجمعوا أشياءهم الأكثر ضرورة؛ نصحوهم أن يرتدوا ثياباً دافئة. حملت سيارات ماشية سريعة السجناء، رجالاً ونساء وأطفال. آلاف مؤلفة انسحبت باتجاه الشرق. وسريعاً ما أصبح الرقم عشرات الآلاف، وفي النهاية مئات الآلاف. بعد أسابيع عدة أو أشهر من الترحال، وصلت وسائل النقل البشرية إلى وجهاتها: معسكرات العمل القسري في المناطق القطبية، أو المزارع الجماعية في آسيا. بين المرحّلين كان والد غما ووالدته وشقيقته المراهقة. قيل إن الوالد لعن ابنه غير الطبيعي الذي كان بإمكانه كتابة مدائح للحكام الذين كانوا السبب في محنة مواطنيه. مات الوالد في مكان ما من تلك الأماكن الشاسعة البعيدة حيث تبدو آلاف الأميال مسافة متواضعة، لكن الوالدة والابنة عاشتا مثل العبيد. في ذلك الوقت، كان غما يحرر خطابات ملتهبة تحريضية حول المتعة العظيمة في العيش والعمل في هذا النظام الجديد الأفضل من بين كل الأنظمة والذي يحول أحلام الإنسان إلى واقع. من يمكنه أن يخمن كيف كان يشعر عندها؟ حتى لو حاول الدفاع عن عائلته، لم يكن بإمكانه إنقاذها؛ وعلى الرغم من أنه كان في السجلات الجيدة للداخلية السوفيتية، إلا أنه كان خائفاً.

لم يكن الروس يثقون بالشيوعيين من القوميات الأخرى؛ وعلى الأخص، بالشيوعيين البولنديين، كأمثلة محددة من مظاهرات سنوات ١٩١٧ ـ ١٩٣٩. كثير من الناشطين الشيوعيين البولنديين الذين فروا إلى

---

(١) NKVD (م)

الاتحاد السوفيتي خوفاً من الاضطهاد اتهموا هناك بجرائم وهمية وتمت تصفيتهم. حدث هذا لثلاثة شعراء شيوعيين بولنديين مشهورين: فاندورسكي، ستاندي، برونو جايسينسكي. لا تذكر أسماؤهم أبداً اليوم؛ ولن يعاد نشر أعمالهم ثانية أبداً. مع أن رواية جايسينسكي *'أحرقتُ باريس'* ظهرت مسلسلة في فرنسا في مجلة *'لا أومانتي'*، وحظي بالشهرة العالمية ذاتها التي يمتع بها اليوم شعراء شيوعيون آخرون مثل ناظم حكمت وبابلو نيرودا. مات في مخيم أعمال شاقة إجبارية قرب الدائرة القطبية الشمالية.

لم تتجنب موجة الاعتقالات المجموعة الصغيرة من الأفراد «الموثوقين». كان الشيوعيون البولنديون باستمرار تحت شبهة الميول القومية. اكتشاف أنهم عانوا بسبب المصاعب الاقتصادية لأمتهم كان سبباً كافياً للقمع. في أحد الأيام، وبشكل مفاجئ، بدأ عناصر وزارة الداخلية الروسية بتنظيف البيوت في الدائرة التي ينتمي غما إليها. أحد المعتقلين كان الشاعر الشهير 'W.B.' لو أن السلطات الشيوعية في فرنسا اعتقلت الشاعر أراغون، أو لو أن الشيوعيين الأمريكيين قد سجنوا هوارد فاست، فإن تأثير ذلك على عامة الناس سيكون مشابهاً تقريباً لذلك الذي أحدثه اعتقال W. B. كان شاعراً ثورياً معبوداً من كامل اليسار ويحظى باحترام الجميع، حتى خصومه السياسيين، إلى درجة عدم منعه من نشر أشعاره. وبناء على ذلك، كان يحظى بمكانة مميزة في بلادنا. التجأ إلى منطقة سوفيتية هرباً من وارسو المحتلة من قبل الألمان.

بعد اعتقال زملائه، استسلم غما لنوبة خوف عنيفة. لم يخف مرة في حياته من قبل بهذا القدر. افترض أن هذه هي البداية فقط وأنه في الجولة القادمة فإن كل الكتاب الذين ما زالوا أحراراً سوف يجدون أنفسهم وراء القضبان. هرع محموماً وهو يحملق برعب إلى زملائه الشيوعيين بطلب لإجراءات وقائية سريعة. كان يريد إصدار بيان رسمي يشجب فيه الذين تم اعتقالهم، ومن بينهم W. B، على أنهم فاشيون. جادل أن مثل هذا

البيان، موقعاً من مجموعة من الأسماء اللامعة، سوف يشكل برهاناً على التشدد. إلا أن زملاءه كانوا غير مستعدين لإصدار تصريح علني يتهمون فيه أصدقاءهم بأنهم فاشيون. كان هذا الأمر بالنسبة لهم خطوة متطرفة جداً. كانوا شيوعيين متمرسين وشرحوا له أن مثل هذه الخطوة ستكون غير حصيفة سياسياً. سوف تسبب الأذى للموقعين عليها لأن الجبن أملاها بشكل جلي. بالإضافة إلى ذلك، فإنه من الصعب التنبؤ بمآل الأمور في المستقبل. الحذر مطلوب. ولم يصدر البيان.

في ذلك الوقت كان غما بالكاد قد بدأ بمهنته ولم يتقن بعد شرائع الاستراتيجية السياسية المعقدة. كانت ردود فعله غير منضبطة. كان عليه أن يتعلم أكثر كيف يتصرف بمكر حقيقي.

...

ثم هاجم هتلر روسيا، ووصل جيشه خلال بضعة أيام إلى مدينة لفوف. لم يكن بإمكان غما البقاء في المدينة؛ كان معروفاً جداً أنه كاتب ومتحدث شيوعي. في أجواء الرعب العام الذي رافق الإخلاء السريع للمكاتب، ولرجال الداخلية السوفيتية، والجيش الهارب، نجح في الوثوب إلى قطار متجه صوب الشرق. ترك زوجته وابنته في المدينة. والحقيقة أن الحياة الزوجية لم تكن جيدة للطرفين. كانت الزوجة تكره النظام الجديد، كما شعر كل فرد تقريباً أتيحت له الفرصة لمشاهدة آلية عمله. لم توافق على مهنة زوجها الجديدة. افترقا، وثبت أن الفراق نهائي.

وجد غما نفسه في روسيا. كانت سنواته هناك سنوات للدراسة. العديد من البولنديين الذين وصلوا روسيا في عربات الماشية كانوا في ذلك الوقت منتشرين في أنحاء روسيا. وصل مجموع أعدادهم، ومن ضمنهم الضباط والجنود المتدربون من الجيش البولندي، إلى نحو مليون ونصف المليون. صنفتهم موسكو بأنهم عناصر عدائية وتعاملت معهم على هذا الأساس. لم يتخلَّ الكرملين أبداً، حتى في مرحلة انسحاب

قواته، عن خططه بعيدة المدى حول بولندا الجديدة التي سوف تبزغ في المستقبل. كانت بولندا أهم دولة في حسابات الكرملين لأنها كانت معبراً إلى أوروبا. وبما أن «كوادر» بولندا الجديدة لم يكن بالإمكان تجنيدهم من بين المرحّلين، كان على الحزب أن يستخدم مجموعة صغيرة من المثقفين الشيوعيين «الموثوقين». قابل غما في روسيا زملاءه أيام الجامعة الذين حاكموه ذات مرة؛ وكانوا هم، بالإضافة إلى بضعة أفراد آخرين، من أسس جمعية حملت الاسم المشرف: «اتحاد الوطنيين». أصبحت هذه الجمعية نواة الحكومة التي تحكم في وارسو اليوم.

حتى قبل الحرب فإن أعضاء «اتحاد الوطنيين» وافق على التنازل عن استقلال بلدهم تحت اسم منطق التاريخ. أثناء وجودهم في روسيا بدؤوا بدفع هذا الثمن في الممارسة، لأنهم لم يكونوا أحراراً لإظهار أي تضامن مع جموع السجناء البولنديين والعمال المستعبدين. المرحّلون (لم يكونوا فقط إقطاعيين سابقين وصناعيين وموظفين حكوميين، بل معظمهم كان من الفلاحين والحطابين ورجال الشرطة وتجار يهود صغار الخ.) كانوا لا شيء أكثر من كتلة بشرية غير متمايزة. وسم تفكيرهم بوسم بولندا النبيلة البرجوازية؛ كانوا يتذكرون أيام ما قبل الحرب كالفردوس المفقود. كيف يمكن التصرف معهم إلا بإبقائهم في معسكرات العمل أو في مزارع تعاونية نائية؟ يمكن لأعضاء «اتحاد الوطنيين» التعاطف معهم كبشر، لكن لم يكن من المسموح لتعاطفهم أن يؤثر على قراراتهم السياسية. على أي حال فإن التيفوئيد والجوع وأمراض سوء التغذية كانت تدمر هذه المادة البشرية بفعالية، إلى درجة أنه بعد بضع سنوات سوف تتوقف عن كونها مشكلة.

فهم غما، الذي كانت عائلته بين المرحّلين، السبب الذي يجعلهم يفكرون بِـ بولندا قبل الحرب كالفردوس المفقود. مصيرهم، على الرغم من أنه لم يختلف مادياً عما يتعرض له ملايين السوفيت، كان صعباً

بشكل خاص لأنهم لم يكونوا معتادين على الجوع والمناخ الصعب. عندما أبرمت حكومة المنفى في لندن معاهدة مع موسكو تدعو لتشكيل جيش بولندي داخل الاتحاد السوفيتي والعفو العام عن المساجين السياسيين البولنديين، تدفق حشد كبير من الناس من معسكرات العمل الشمالية واندفعوا إلى الجنوب. ملئت شوارع المدن الروسية الجنوبية الشرقية بجثث هؤلاء المتسولين البائسين. من هؤلاء المنهكين كلياً، نصف الموتى الذين نجوا من الرحلة، تشكّل جيش كان يأخذ أوامره من حكومة المنفى في لندن. بالنسبة إلى غما، وكذلك إلى الحكام الروس، كان هذا جيش من العدو الطبقي؛ ومثل الإنكليز والأمريكان، كان تحالفاً مؤقتاً فقط.

كانت القيادة البولندية تبحث عن ضباط. كان آلاف عدة من الضباط البولنديين مدرجين للتدريب في سياق معاهدة مولوتوف ـ ريبينتروب. لكن لم يمكن العثور عليهم الآن. علم غما أن جهود بولنديي لندن في البحث لن تكلل بالنجاح. كانت هذه مسألة حساسة. الأمم المتحضرة لن تقوم، بشكل عام، بقتل أعضاء من القوات العسكرية المتدربة لديها لبلدان ليست حتى في حالة حرب معها؛ ومع ذلك، فإن منطق التاريخ يتطلب أحياناً مثل هذه المعايير. كان الضباط البولنديون هم «كادر» النظام القديم في بولندا. أغلبيتهم كانوا من الضباط الاحتياط؛ في الحياة المدنية كانوا معلمين ومحامين وأطباء وموظفين حكوميين، أي الإنتيليجينسيا بالمختصر، والذين كانت روابطهم مع الماضي تقف عائقاً في وجه الثورة التي سوف تُفرض على بولندا. بالأخذ بعين الاعتبار أن الألمان من جانبهم كانوا يقومون بعمل ممتاز في تلك البلاد في تصفية طبقتها من الإنتيليجينسيا، فإن كادراً مؤلفاً من أكثر من عشرة آلاف يشكل رقماً مهماً، ولن يكون من غير المبرر تماماً استخدام طرق عنيفة متطرفة في التخلص منهم. كلما سمعوا عن الجهود غير المثمرة لحكومة لندن

لإيجاد أي أثر للمتدربين، كان غما وأعضاء آخرون من اتحاد الوطنيين يتبادلون نظرات ساخرة.

أحد الضباط المتدربين الشبان كان أستاذاً في الجامعة التي درسنا فيها أنا وغما. كان الأستاذ ليبرالياً من الذين تعاطفوا مع غما ورفاقه عند اعتقالهم. وقد كتب دراسات عدة في الاقتصاد لم يجامل فيها الاتحاد السوفيتي. أدرج اسمه في أحد الملفات السرية في موسكو. تطلب الأمر أشهراً عدة حتى وجدته سلطات وزارة الداخلية السوفيتية في أحد المعسكرات. جاء اكتشافهم في وقته تماماً: وصلت البرقية التي تطلب ترحيله الفوري إلى سجن في موسكو إلى محطة القطار حيث كان قطار المتدربين يفرغ في الوقت ذاته من حمولته، تمهيداً لأخذهم إلى الغابات المجاورة لإعدامهم. لم يشاركهم الأستاذ مصيرهم لأنه، وكما تتطلب البيروقراطية، فإن القضايا الحساسة يجب أن تدرس باجتهاد استثنائي. خرج بعد العفو من روسيا.

العديد من البولنديين الذين عاينوا الحياة بأنفسهم داخل الاتحاد السوفيتي عانوا من تبدّل في عواطفهم. بعد إقامة مؤقتة في السجون أو في معسكرات العمل، دخل شيوعيون سابقون في جيش حكومة لندن. أحد الذين أطلق سراحهم نتيجة للعفو كان الشاعر W. B. عندما تم سحب الجيش البولندي من روسيا إلى الشرق الأدنى (ليأخذ دوراً لاحقاً في معارك إيطاليا)، كان W.B سعيداً بمغادرة بلد الآمال غير المحققة بعد ثلاثين عاماً. ومع ذلك فبعد نهاية الحرب، لم يتمكن من تحمل البقاء في المنفى. عاد إلى بولندا التي يحكمها غما وآخرون يشبهونه. سامح. واليوم يتعلم كل ولد في المدرسة قصيدته الغنائية '*تحية إلى ستالين*' عن ظهر قلب.

بصرف النظر عن أي تذبذب داخلي أو لحظات يأس، فقد تمكن غما ورفاقه في اتحاد الوطنيين من المواظبة والاستمرار. قامروا بأعلى رهان، وحققوا توقعاتهم بالكامل. تأرجح تيار النصر ثم انقلب لمصلحة روسيا. بدأ جيش بولندي جديد بالتشكل في الاتحاد السوفيتي. كان ذلك

لدخول بولندا مع الجيش الأحمر والعمل كوزارة لحكومة بولندية جديدة مؤيدة للسوفيت. كان غما من بين أوائل المنظمين لهذا الجيش. وبما أنه لم يكن ثمة ضباط بولنديون، فقد شغل الرتب العالية ضباط روس. لكن لا يمكن الشكوى من نقص الجنود. تمكن عدد قليل فقط من المبعدين من الوصول إلى بلاد فارس مع جيش لندن. بالنسبة للذين بقوا فقد كانت الفرصة الوحيدة للخلاص، وذلك يعني الهروب خارج حدود الاتحاد السوفيتي، كانت في التطوع في الجيش الجديد الذي تشرف عليه سياسياً وزارة الداخلية السوفيتية واتحاد الوطنيين.

جاء صيف عام ١٩٤٤. وضع الجيش الأحمر، ومعه الجيش البولندي الجديد، أقدامه على التراب البولندي. كيف تم تسديد سنوات المعاناة والذل والمناورات الذكية! كانت هذه هي نتيجة الرهان على حصان جيد! حيًا غما بسعادة المدن الصغيرة المدمرة بنيران المدفعية، والأراضي الضيقة التي شكلت راحة للعين بعد منظر الاتساع الرتيب الشاسع للمزارع التعاونية الروسية. حملته سيارة الجيب على طرقات محاطة بالحديد الملتوي للدبابات الألمانية المحروقة باتجاه السلطة والتجسيد العملي لما كان حتى اليوم نقاشات نظرية مليئة باقتباسات من لينين وستالين. كانت هذه مكافأة الذين يعرفون كيف يفكرون بشكل صحيح، الذين يفهمون 'منطق التاريخ'، والذين لا يستسلمون للعواطف التافهة! كانوا هم، وليس هؤلاء البكاؤون الحمقى من جماعة لندن، من جلب تحرير بولندا من الألمان. سوف تخضع البلاد بالطبع لعملية جراحية كبيرة، أحس غما بحماس جراح جيد وهو يدخل غرفة العمليات.

أحضر غما، الذي أصبح الآن ضابطاً سياسياً برتبة رائد، معه من روسيا زوجة جديدة، زوجة جندية بولندية. من الصعب تحديد عمرها وهي مرتدية البدلة العسكرية والبوط الروسي الثقيل. في الحقيقة فقد كانت شابة جداً، لكنها اجتازت كثيراً من المحن والمعاناة في روسيا. كانت بالكاد في مراهقتها عندما تم اعتقالها مع أختها وأخيها وأمها

وترحليها من وسط أوروبا إلى السهوب الآسيوية. الصيف هناك حار مثل صيف البلدان الاستوائية؛ والشتاء قاس جداً إلى درجة أن الدموع التي تنهمر من العين بسبب البرد تتحول في الحال إلى كتل جليدية. رغيف الخبز ثروة صغيرة؛ يحطم العمل الشاق قوة الأجسام التي تعاني من نقص التغذية. البوليس يشرف عليهم واتساع ورحابة القارة الآسيوية يقضيان على أي أمل بالهرب. لم تكن الفتاة الشابة، ابنة الطبقة الوسطى، معتادة على العمل الجسدي الشاق، لكن كان عليها أن تساند عائلتها. نجحت بعد بعض الوقت في الدخول في دورة لتعليم قيادة التراكتور، وبعد إكمالها قادت تراكتورات روسية ضخمة في سهوب كازاخستان. لم يكن تعاطفها كبيراً مع النظام الستاليني بعد هذه التجارب. في الحقيقة، ومثلها مثل كل الجيش البولندي تقريباً انتهت إلى كراهيته. ومع ذلك ففي النهاية وجدت نفسها في بولندا، ولعبة المقامرة العالية التي كان غما يلعبها كانت لعبتها هي أيضاً.

وصل الجيش الأحمر إلى نهر فيستولا. بدأت الحكومة الجديدة، التي كانت معروفة حتى الآن بِـ 'لجنة التحرير'، بدأت عملها في مدينة لوبلين. واجه اتحاد الوطنيين صعوبات كبيرة ومهام كبيرة. كانت المخاوف قليلة من أن يسبب الحلفاء الغربيون أية متاعب. كانت العقبات ذات طبيعة داخلية؛ انبثقت من السلوك العدائي للناس. مرة ثانية انفجر الخلاف القديم بين ولاءين. في المناطق التي يسيطر عليها الروس الآن، كانت هناك وحدات كبيرة من الموالين، مما يسمى 'جيش الوطن'، الموالي لحكومة المنفى في لندن، عملت ضد الاحتلال الألماني. والآن فإن هذه الوحدات كانت غير مسلحة، وتم تجنيد أعضائها في الجيش البولندي الجديد أو اعتقالهم وترحيلهم إلى روسيا. روى غما بفكاهة ما حدث في فيلنا، مدينة شبابنا. اندلعت انتفاضة ضد الألمان، ودخلت كتائب من 'جيش الوطن' المدينة بشكل متزامن مع القوات الروسية. ثم

أقامت القيادة الروسية مأدبة كبيرة دعت إليها ضباط 'جيش الوطن'. كانت هذه، كما قال غما، وليمة على الطريقة السلافية القديمة، وجبة فخمة حيث، وفق الأسطورة، وسط العناقات الودية وتبادل الأنخاب والأغاني، يجري بهدوء تسميم الأقرباء. أثناء اتجاههم إلى المأدبة، تم اعتقال ضباط 'جيش الوطن'.

من لوبلين، راقب غما كثيراً من الشيء نفسه، لكن على نطاق أوسع بما لا يقاس، مما كان يحدث في وارسو. في ذلك الوقت وقف الجيش الأحمر عند حدود فيستولا، ووارسو على الجانب الآخر من النهر. حث راديو 'لجنة التحرير' سكان العاصمة على التمرد ضد الألمان. ومع ذلك فما إن اندلعت الانتفاضة حتى بدأ الراديو، بعد أن تلقى تعليمات جديدة، بمراكمة الإساءات تجاه القادة. بالطبع: كانوا يتصرفون بناء على تعليمات من الاتحاد السوفيتي المنافس في الصراع على السلطة. وليمة وفق التقاليد السلافية كانت مقياساً غير ملائم في هذا النموذج؛ وارسو نفسها، مركز المعارضة للروس والألمان على حد سواء، كان يجب أن تُدمر. حدق ضباط الجيش الأحمر من خلال مناظيرهم المقربة على الشوارع المتحاربة على الجانب الآخر من النهر. أعاق الدخان رؤيتهم أكثر فأكثر. يوماً بعد يوم، أسبوعاً بعد أسبوع، استمرت المعركة، حتى في النهاية اتحدت النيران لتشكل حائطاً من لهب. استمع غما وأصدقاؤه إلى تقارير خطيرة عما كان يحصل في ذلك الجحيم، من أفواه متمردين تمكنوا من اجتياز النهر سباحة. في الحقيقة، فإن الثمن الذي ينبغي على المرء دفعه كي يبقى مخلصاً لمنطق التاريخ كان مرعباً. على المرء أن يراقب بحيادية موت الآلاف، وأن يحمل ضميره عذاب النساء والأطفال الذين تحولوا إلى مشاعل بشرية. من هو المذنب؟ هل هي حكومة المنفى في لندن لأنها أرادت استخدام الانتفاضة كورقة لعب رابحة في لعبتها من أجل السلطة؟ أم هو الكرملين لأنه رفض تقديم العون للمدينة بسبب اقتناعه بأن الاستقلال الوطني هو مفهوم برجوازي؟ أو لا أحد؟

جلس الشيوعيون المثقفون حول مائدة بزيهم الرسمي الصوفي الثقيل يصغون إلى قصة فتاة شابة، واحدة من أولئك الذين نجحوا باجتياز النهر سباحة. عيناها جزعتان، وكانت تعاني من الحمى أثناء كلامها. «تم سحق وحدتنا ودفعها إلى النهر. نجح عدد قليل منا في الانضمام إلى وحدات أخرى. كل الذين بقوا على الضفة كانوا جرحى. سوف تهاجم قوات الـ إس إس عند الفجر. هذا يعني أننا سوف نُعدم جميعاً. ماذا كان عليّ أن أفعل؟ هل أبقى مع رفاقي الجرحى؟ لكن ليس بإمكاني مساعدتهم. قررت السباحة. فرصي بالعبور كانت ضئيلة لأن النهر مضاء بالمصابيح الكاشفة. هناك مدفعية ألمانية معششة في كل مكان. شاهدت في المياه الضحلة وسط النهر جثثاً عديدة لأناس حاولوا العبور سباحة. حملهم التيار إلى الضفاف الرملية. كنت خائرة القوى. كان من الصعب علينا إيجاد الطعام، وكنت مريضة. التيار قوي للغاية. أطلقوا النار عليّ، لذلك حاولت السباحة تحت الماء قدر ما أستطيع».

بعد شهرين من المعركة، كان الألمان أسياد الأنقاض في المدينة. لكن كان أمام المثقفين الشيوعيين كثير من العمل مما لم يبقِ لديهم الوقت للتأمل في مصيبة وارسو. قبل كل شيء، كان عليهم إطلاق عمل الصحف. لأن الشيوعيين يدركون جيداً أن التحكم بعقول البشر يعني التحكم بالبلاد بأسرها، والكلمة هي حجر الزاوية في هذا النظام. أصبح غما أحد المنظمين الرئيسيين للصحافة في لوبلين.

في سياق تلك السنوات، صار كاتباً أفضل مما كان قبل الحرب. نجح بسبب اتباعه حمية عقائدية صارمة؛ لأن «الواقعية الاشتراكية» تقوي المواهب الضعيفة وتقوض العظيمة منها. بدائيته، التي توقف منذ زمن طويل عن الشعور بالخجل منها، زوّدت الآن أعماله بمظهر من الصدق. صوته الحقيقي، الذي حاول ذات مرة أن يجعله أكثر نعومة، نطق الآن في شعره بشكل حاد وصاخب. كتب أيضاً عدداً من القصص التقليدية

عن الحرب وفظائع النازية، صيغت جميعها على النموذج الذي سوف ينتج آلاف الصفحات من النثر الروسي.

في كانون الثاني/ يناير من عام ١٩٤٥، بدأ الجيش الأحمر هجومه، عبر نهر فيستولا واقترب بهدوء من برلين. انتقل غما أيضاً إلى الغرب. أرسله الحزب إلى كراكاو، المدينة التي لجأ إليها العدد الأكبر من الكتاب والباحثين والفنانين بعد سقوط وارسو. هناك تذوق متعة الديكتاتورية. مخلوقات غريبة ترتدي بقايا فراء وتلتف بسترات فلاحية قديمة وتنتعل جزماً رثة بدون سيور بدأت تتسرب من الحفر في البيوت القديمة، في الحقيقة من تحت أرضيات هذه البيوت. من بينهم المثقفون الذين تمكنوا من النجاة خلال سنوات الاحتلال الألماني. تذكر العديد منهم غما الشاعر الشاب قبل الحرب الذي تجاهلوا أعماله. والآن أدركوا أنه يتمتع بالسلطة الكاملة. تتوقف على كلمة منه إمكانية حصولهم على فرصة للنشر أو للسكن أو الدخل أو عمل في جريدة أو مجلة أو تأسيس دار نشر. اقتربوا منه بقلق. لم يكن أيٍ منهم قبل الحرب ولا خلال نشاطهم السري شيوعياً. إلا أن الحكومة الجديدة كانت حقيقة واقعية. لا شيء يمكن أن يمنع الأحداث أن تتطور وفق مشيئة موسكو وكذلك مشيئة غما وأصدقائه. بابتسامة صداقة عريضة ضغط على الأيدي الممدودة لهؤلاء الناس وضحك بينه وبين نفسه. بعضهم كان حروناً؛ وبعضهم حاول ألا يُظهر كم كان معروفه يعني لهم؛ وبعضهم كان ذليلاً بشكل علني. خلال وقت قصير، صار محاطاً ببلاط من الرجال الموافقين على كل شيء الذين يعبسون عندما يعبس ويقهقهون بصوت عالٍ إن تكرم بنكتة.

من المحتمل أنه لن يكون مثل هذا الشخص الشعبي بهذه السرعة لو أنه تصرف بتهور ووحشية كما كان يفعل من قبل. إلا أن سنوات من الدراسة دعمته. مراقبة الحياة في روسيا وساعات طويلة من النقاشات

الاستراتيجية والتكتيك الستاليني حضرته مع رفاقه من أجل العمل الذي ينتظرهم. القاعدة الأولى والأكثر أهمية ألا يخيف الناس، وأن يبدو متحرراً ومفيداً، وأن يعطي الناس فرصة لكسب عيشهم في حين تكون طلباته في الحد الأدنى. لم يكن معظم الناس مستعدين لِـ "الديامانت"[1]؛ عقليتهم كانت لا تزال تشبه عقلية أولئك الحمقى في الغرب. إن خلق بؤر مقاومة نفسية سوف يكون غلطة قاتلة. يجب أن تكون عملية إعادة التثقيف تدريجية ودقيقة. مبدؤه الثاني كان التحييد الفوري والمذل لأي شخص تمرد على الأساليب الجذرية للحكومة أو مراقبي المطبوعات أو الشرطة. القاعدة الثالثة كانت القبول بأي أحد من الممكن أن يكون مفيداً بغض النظر عن ماضيه السياسي، مع استثناء المتعاونين المؤكدين مع الفاشيين أو النازيين.

من خلال الالتزام بإخلاص بهذه المبادئ، جلب العديد من الأسرى إلى معسكر الحكومة. صاروا أتباعاً للحكومة ليس لأنهم رغبوا في ذلك، وليس أيضاً بسبب بياناتهم العلنيّة، إنما بسبب حقائق صارمة. صادرت الحكومة كل المطابع وكل دور النشر الكبيرة في عموم البلاد. كل كاتب أو باحث كانت لديه مخطوطات عدة يعود تاريخها إلى فترة الحرب عندما كانت دور النشر متوقفة عن العمل، والكل كان متلهفاً للنشر. منذ اللحظة التي يظهر فيها اسمه على صفحات دورية تديرها الحكومة، منذ اللحظة التي يطبع فيها كتابه في دار نشر تملكها الحكومة، لا يمكن للكاتب بعدها أن يجزم أنه كان معادياً للسلطات الجديدة. قُدمت مع الوقت تنازلات لعدد قليل من المنشورات الكاثوليكية ولعدد محدود من الناشرين الصغار المستقلين، لكنها أبقيت محدودة بعناية شديدة حتى لا تجتذب أفضل الكتاب.

لم يُمارَس كثير من الضغط، ولا كانت المتطلبات كبيرة على أحد.

---

(١) الجدلية المادية وفق ماركس وأنغلز. (م)

رفرفت الأعلام الوطنية في المدن، وأنجزت بهدوء الاعتقالات بحق أعضاء 'جيش الوطن'. بُذلت جهود حثيثة لضمان وجود وسائل تصريف كافية للمشاعر الوطنية. الشعارات كانت الحرية والديمقراطية. متّبعة تكتيكات لينين، أعلنت الحكومة عن تقسيم الأراضي بين الفلاحين. أي شخص تجرأ على الكلام حول التعاونيات في ذلك الوقت كان يعاقب كعدو للشعب لنشره الذعر والافتراء على الحكومة.

من البديهي أن ملاّك الأراضي الذين تمت مصادرة أراضيهم لم يكونوا راضين. ومع ذلك، فقد كانت معظم الممتلكات، مثل المصانع والمناجم، قد وضعت تحت الإدارة الألمانية الإلزامية خلال الاحتلال النازي وبالتالي فقد كانت مسلوبة من مالكيها في الواقع. إن كراهية طبقة الفلاحين للإقطاع لم تكن عنيفة في بلدنا لذلك لم يتم إيذاء الملاك المطرودين. لم يشعر قاطنو المدينة بأي تعاطف خاص مع تلك المجموعة من الإقطاعيين القروسطيين ملاك الأراضي؛ في الحقيقة، لم يكن أحد مستاء من خسارتهم النفوذ. بالنسبة للمثقفين، كانوا يفكرون بأن المصانع والمناجم فقط ما يجب أن تكون ملكيتها للدولة. علينا أن نتذكر أن خمس سنوات ونصف السنة من الحكم النازي قد طمست كل احترام للملكية الفردية. وهكذا فقد بدا أن إصلاحاً زراعياً جذرياً مسوغ بشكل عام. ركز المثقفون على شيء آخر، على حدود حرية التعبير. في ذلك الوقت، كانوا متحررين إلى حد ما. شيء واحد كان مؤكداً: لم يكن بإمكان أحد كتابة أي شيء من الممكن أن يلقي بأي ظلال تشهير على مؤسسات الاتحاد السوفيتي. حرص مراقبو المطبوعات على تطبيق هذا القانون بصرامة. ومع ذلك، لم يكن تمجيد روسيا إجبارياً، كما حدث لاحقاً؛ كان يمكن للمرء البقاء صامتاً بخصوص هذا الموضوع. خارج هذا المجال، أُعطي الكتاب حرية كبيرة.

على الرغم من كل شيء، فقد سيطرت على البلاد بأكملها عاطفة

واحدة: الكراهية. الفلاحون الذين استلموا الأراضي، كارهين؛ العمال وموظفو المكاتب الذين انضموا إلى الحزب، كارهين؛ الاشتراكيون، المشاركون اسمياً في الحكومة، كارهين؛ الكتاب، الساعون لنشر مخطوطاتهم، كارهين. لم تكن هذه حكومتهم الخاصة بهم، كانت تدين بوجودها لجيش أجنبي. سرير الزوجية الذي تم تحضيره لزفاف الحكومة مع الأمة كان مزخرفاً بالرموز الوطنية والأعلام، لكن من تحت هذا السرير برزت جزمة عميل الداخلية الروسي.

الناس الذين كانوا يترددون لِـ غما كانوا كارهين أيضاً. كان يعرف ذلك، وكان هذا مصدر سعادة له. كان يضرب على الجرح المفتوح، ثم يراقب ردة فعل مستمعيه. الرعب والغيظ اللذان يظهران على وجوههم سرعان ما يفسحان المجال لابتسامة متملقة. هذا هو المطلوب. كان يمسك بهؤلاء الناس في يده. ضربة من قلمه يمكن لها أن تزيل مقالاتهم أو قصائدهم من صفحات مجلة عند التجربة الطباعية قبل النشر؛ يمكن لكلمة منه أن تجعل دور النشر ترفض طباعة كتبهم. كان عليهم أن يسيطروا على أنفسهم. ومع ذلك، وعلى الرغم من كونه يتلاعب بهم، فقد كان ودوداً ومفيداً؛ سمح لهم أن يكسبوا رزقهم، وحمى مهنهم.

التقيته في كراكاو. انقضت سنوات عدة منذ حواراتنا في الـ مينسا؛ خلال أحدها رميت علبة ثقاب عن عمد في حسائه وبما أنه كان معرضاً لنوبات غضب، فقد انتهت الحادثة بالتلاكم. خلال السنوات الفاصلة كنت قد أنهيت دراستي في باريس، وأقمت لاحقاً في وارسو. تركت مدينة جامعتنا لأنني طردت من وظيفتي بناء على طلب إدارة المدينة. اتهمت بالتعاطف مع الشيوعية (يبدو أن التفريق بين الستالينية ويسار معاداة الستالينية خلّف صعوبات لا يمكن التغلب عليها لكل الشرطة حول العالم) وبكوني ودوداً للغاية تجاه الليتوانيين والبيلاروسيين. الاتهام الأخير كان محقاً جداً. والآن أنا لاجئ من وارسو. ثروتي الوحيدة كانت

تتألف من ثياب العمل التي أرتديها بالإضافة إلى كيس من القنب يحتوي على مخطوطاتي وعدة الحلاقة وإصدار زهيد القيمة من *أوبرا الشحاذ* لِ غاي. من وجهة نظر مصلحة الاتحاد السوفيتي، فأنا لا أستحق أي شيء بسبب ما فعلته خلال الحرب؛ على العكس من ذلك، فقد ارتكبت خطايا مؤكدة. ومع ذلك، أصبحت الآن مفيداً وهناك حاجة لي؛ لم يكن سجلي خلال فترة الاحتلال الألماني بهذا السوء؛ ويمكن أن يكون قلمي قيماً للنظام الجديد.

كان لقائي مع غما ودياً تقريباً. كلبان؛ صلبان نوعاً ما، لكن مهذبان. كنا على أهبة الاستعداد خشية التكشير عن أسناننا. تذكر المنافسة الأدبية بيننا التي سببت له سابقاً كثيراً من الإغاظة؛ تذكر أيضاً رسالتي المفتوحة ضد الستالينيين، والتي وضعتني إلى حد ما في موقع المنشقين الغربيين للزمن الحالي. ومع ذلك فقد كان لديه ـ مثلي تماماً ـ ارتباط عاطفي تجاه رفاق الجامعة السابقين. ساعد هذا الشيء في كسر الجليد. كان هذا اللقاء الحركة الأولى في اللعبة بيننا التي سوف تستمر وقتاً طويلاً.

لم تكن هذه اللعبة محدودة بيننا نحن الاثنين. كل المثقفين الذين بقوا في بولندا أثناء الاحتلال النازي شكلوا فريقاً ضد المجموعة التي عادت من الشرق. كان الانقسام واضحاً. كانت أمور أكثر أهمية بكثير على المحك من مجرد منافسة فردية. بعد تجربة الحرب، لم يعد أي منا، حتى القوميين السابقين، يشكك بضرورة الإصلاحات التي كانت تتأسس. كانت أمتنا سوف تتحول إلى أمة من العمال والفلاحين وكان هذا صواباً. إلا أن الفلاح لم يكن راضياً على الرغم من أنه أعطي أرضاً؛ كان خائفاً. لم يكن لدى العامل أدنى شعور بأن المعامل تنتمي إليه، على الرغم من أنه عمل على تشغيلها بكثير من إنكار الذات، وعلى الرغم من أن البروباغاندا قد أكِدت له بأنها له. ارتعد صغار المتعهدين والتجار لدى معرفتهم بأن مصيرهم الزوال كمجموعة.

كانت هذه في الحقيقة ثورة فريدة من نوعها؛ لم يكن هناك حتى أي أثر للديناميكية الثورية فيها؛ أنجزت بالكامل بناء على فرمان رسمي. كان المثقفون الذي بقوا في بولندا أثناء الحرب حساسين بشكل خاص لمزاج البلاد. عزا غما ورفاقه بتسرع مزاج الناس لما سموه «النجاة من عواقب البرجوازية»، إلا أن هذه الصيغة فشلت في الإلمام بالحقيقة. شعرت الجماهير أن لا شيء اعتمد عليها، وأن لا شيء سوف يعتمد عليها لاحقاً. من الآن فصاعداً كل النقاشات سوف تكون لتبرير قرارات المركز فقط. هل على المرء أن يقاوم؟ لكن في نظام حيث كل شيء يصبح تدريجياً ملكية الدولة، فإن التخريب سوف يضرب مصالح السكان برمتهم. وحدها المعارضة العقلية كانت ممكنة؛ والمثقفون، على الأقل غالبيتهم، شعروا بعمق أن هذا هو واجبهم. عن طريق نشر المقالات والكتب أرضوا الصياد. ابتلعت السمكة الطعم، وكما نعرف، عندما يحصل هذا الشيء على المرء أن يرخي الخيط قليلاً. بقي الخيط رخواً؛ وريثما يقرر الصياد سحب السمكة، استمرت أحداث ثقافية معينة قيمة كان من المستحيل استمرارها في مثل هذه البلدان، على سبيل المثال، مثل دول البلطيق التي اندمجت مباشرة في الاتحاد السوفيتي. السؤال المطروح كان إلى متى يمكن لهذه الحالة الراهنة أن تستمر. من الممكن أن تستمر خمساً أو عشراً أو حتى خمس عشرة سنة. كانت هذه هي اللعبة الوحيدة الممكنة. لا يمكن الاعتماد على الغرب، ومسألة الهجرة السياسية كانت أقل أهمية حتى.

ومع ذلك، فقد دخلت عوامل شخصية معينة في اللعبة بيني وبين غما. الاهتمام الذي أبداه تجاه أعضاء من مجموعتنا القديمة لم يكن دافعه بالكامل الذكريات القديمة لأيامنا في الجامعة. لم يتمكن من تحرير نفسه من الشعور بالذنب الذي يعود لأيام طفولته؛ وفقط عن طريق هداية الأفراد الذين لم يكونوا ستالينيين منا كان يمكن له الشعور بأن أفعال

ماضيه مبررة. المشكلة أنه كان متشائماً للغاية حول مستقبل البشرية، في حين أن هؤلاء الذين كان يحاول هدايتهم لم يكونوا كذلك. أعلن صراحة الولاء لِـ المركز، في حين أنه في الواقع، وبعد السنوات التي أمضاها في روسيا، كان مقتنعاً أن التاريخ هو المحمية الخاصة للشيطان، وأن كل من يخدم التاريخ يكون قد وقّع اتفاقية شيطانية. كان يعلم كثيراً؛ لذلك لم يحتفظ بأي أوهام وازدرى أولئك الذين يملكون من السذاجة ما يكفي لتغذيتها. جلْب ملعونين جدد إلى القطيع كان أحد أساليبه لإنقاص عدد الناس الأحرار فكرياً من الداخل، الذين يحكمون عليه لمجرد وجودهم.

لم تكن لعبتنا تجري داخل حدود بولندا وحدها. بمساعدة غما تم إرسال جورج، الذي صار شاعراً كاثوليكياً، إلى فرنسا كملحق ثقافي؛ وأنا تم تعييني ملحقاً ثقافياً في الولايات المتحدة. تقدم الإقامة في الخارج فرصاً مهمة. من على تلك المسافة، كان بإمكاني نشر مقالات وأشعار صفيقة، كل كلمة فيها تشكل إهانة لِـ النهج. كلما أحسست أن الوتر مشدود جداً، كنت أكتب شيئاً يمكن أن يُفهم أنه اقتراب من الهداية. كتب لي غما رسائل دافئة كاذبة. كلانا ارتكب أخطاء. كان يعلم أن خطر انشقاقي ليس كبيراً. أحسست أكثر من أي شخص آخر تقريباً بالارتباط ببلدي. كنت شاعراً؛ لا يمكنني الكتابة إلا بلغتي الأم؛ وفقط في بولندا هناك جمهور ـ يتكون بشكل رئيس من الشباب ـ يمكنني التواصل معه. أدرك أنني أخاف أن أصبح منفياً، أخاف أن أحكم على نفسي بالعقم والفراغ اللاثقين بكل هجرة. إلا أنه غالى في تقدير ارتباطي بمهنة الأدب. ومن ناحية أخرى، كنت أعرف أن رسائله زائفة، إلا أنه لم يكن بإمكاني صرف النظر عن فكرة أن ثمة ذرة من الإخلاص في إيمانه بالصداقة. أعتقد أيضاً أنه كان لديه من الذكاء ما يكفي بحيث لا يتوقع مني توقيع الاتفاقية التي وقعها. إلا أنني كنت مخطئاً، لأنه جاء اليوم الذي قرر فيه هدايتي بالحيلة والقوة. أخطأني خنجره، ولهذا أنا حر في كتابة هذه اللوحة.

ذهب غما أيضاً إلى الخارج. غادر بولندا بعد أن تمت السيطرة على الاضطرابات البدائية التي حدثت بعد الحرب. كانت تبدو فترة من الاستقرار النسبي على مرمى النظر. تم القضاء على حزب الفلاحين واستيعاب الحزب الاشتراكي، لكن هذه العمليات لم توحِ بأنها ستتسبب في إزعاج كبير. في العموم كانت هذه حقبة 'السياسة الاقتصادية الجديدة'[1]. اللبرلة كانت الكلمة في الشؤون الثقافية. غما الذي اعتقد أنه يحتاج إلى القليل من السكينة بعد توتر الأعصاب للسنوات الأخيرة، أخذ وظيفة في السلك الدبلوماسي.

أرسل زوجته الجديدة إلى مدرسة في سويسرا لتعلم اللغات أجنبية والسلوك اللائق. خلال فترة قصيرة تحولت من العروس الجندية بالجزمة الروسية الرثة إلى دمية جميلة بشعر أشقر لامع ورموش طويلة مطلية. أصبحت أنيقة للغاية، وارتدت من أفخم الموضة الباريسية. وفي هذه الأثناء، كرس هو معظم وقته للكتابة. كتب رواية حول محاكمة مجموعة من الستالينيين الشبان في مدينة جامعتنا، المحاكمة التي كان فيها هو بنفسه مدعى عليه. نشرت في الحال، ونالت نقداً إيجابياً. ومع ذلك، فلم تُمجّد كثيراً كما يمكن للمرء أن يتوقع. لم تكن «الواقعية الاشتراكية» قد جعلت الأدب البولندي عقيماً بعد؛ في حين أن كتابه كان من تلك التمارين الأيديولوجية التي تسمى روايات في روسيا.

عندما كنا شباناً، كانت فيلنا مدينة فاتنة بشكل غير معتاد، ليس بسبب عمارتها أو وقوعها وسط الغابات والتلال فقط، بل بسبب عدد اللغات الحية والثقافات التي كانت موجودة هناك. ولا أي من هذا وجد طريقه إلى روايته. باهتاً، وغير قادر على استحضار أي شيء محسوس، كان

---

(١) NEP فترة من السياسة الاقتصادية حيث سيطرت الدولة على المعامل الكبرى والاقتصاد الخارجي بينما سمح لشركات صغيرة أن تكون ملكية خاصة. (م)

نثره مجرد وسيلة لرسم الأحداث والأشخاص. ومع ذلك فإن الأحداث والناس لم يبلوا بلاء حسناً. تعرفت على الأشخاص الحقيقيين في أبطاله، ووجدت كم أنه رسم شخصياته بشكل غير دقيق. غالباً ما يقوم الروائي بتعديل الشخصيات التي يعرفها؛ يقوم بزيادة تركيز ألوانه، يختار ويلفت الانتباه إلى تلك الخصال النفسية الأكثر تميزاً. عندما يكافح الكاتب لتقديم الواقع بكل صدق يصبح مقتنعاً بأن غير الحقيقي يصبح مع الوقت هو الحقيقة العظمى. العالم غني جداً ومعقد جداً إلى درجة أنه كلما حاول الإنسان ألا يهمل أي جزء من الحقيقة يجد أنه يكشف عجائب تراوغ القلم.

عدم دقة غما كان من نوع مختلف. خلق، بشكل متوافق مع النهج، أنماطاً سياسية تجريدية. حاول ضغط الناس الأحياء ضمن هذه الأشكال مسبقة الصنع؛ إن لم يكونوا مناسبين للقالب، كان يقوم بلا أدنى تردد بقطع سيقانهم أو رؤوسهم. اختصر ستيفان وهيندريك، وهم أبطاله، إلى مجموع نشاطاتهما السياسية. لكن بما أنني أعرفهما جيداً، فأنا أعلم كم كانت شخصيتهما معقدة. هينريك، الذي مات أمام فريق إعدام ألماني، لم يكن رجلاً سعيداً، كان في حالة حرب داخلية مع نفسه؛ وكان المثال الأكثر سطوعاً وتراجيدية عن الشيوعي البولندي الممزق بين ولاءين. ستيفان، الذي أصبح بعد عودته من موسكو أحد ديكتاتوريي الاقتصاد البولندي، كان دائماً لغزاً بالنسبة لي. والآن وقد صار رجلاً متجهماً ذا بنية ثقيلة، والنموذج المثالي للموظف السوفيتي، فقد تغير كلياً عنه في تلك الأيام عندما كان متردداً حول اعتناق الستالينية. عرفته عندما كان يكتب الشعر والمقالات الأدبية البارعة. كان عندها مثل **فاوست** شاب؛ مخموراً بجمال العالم، ساخراً وعبقرياً ومفترساً. كان عنوان رواية غما: ***الواقع***، لكن كان هناك القليل من الواقعية فيها. كانت محاكاة زائفة حول بولندا ما قبل الحرب حاولت بغير نجاح أن تشيطن البوليس والقضاء المتراخيين غير الفعالين إلى حد كبير في ذلك الوقت.

بعد إنهائه روايته، بدأ غما بالشعور بالضجر قليلاً. بدأ يسافر. زار العديد من الدول الأوروبية، وذهب إلى أفريقيا. في ذلك الزمن، وعندما كنا نتحاور في الـ مينسا، كنا نحلم بالسفر. اتضح أن شكوكنا حول إمكانية أن نحقق أحلامنا في يوم ما غير ضرورية؛ سوف نعرف كلنا هذا النوع من الضلال بشكل جيد جداً. يبدو أن المتعة التي جناها من السفر لم تكن مصقولة بما يكفي. كان لديه اهتمام قليل بالعمارة والفن؛ ولم يكن فضولياً لمعرفة نماذج الحياة في الحضارات المختلفة. لو أن الأمر كان بالعكس لكان كاتباً أفضل. كان السفر بالنسبة له طريقة ممتعة لقتل الوقت ولإرضاء الطموح الشبابي لقروي سابق.

خارج نطاق السفر، كانت متعته الكبيرة في ممارسة ألعاب مع أجانب. قناعتهم أنه «ليبرالي» لم تكن بعيدة كثيراً عن الحقيقة. لا يمكن وصف ثوراته، عندما كان يثور غاضباً على طرق معينة وحشية للستالينية، على أنها زائفة تماماً. كان يعتبر نفسه خادماً للشيطان الذي يحكم التاريخ، إلا أنه لم يكن يحب سيده. وعن طريق التمرد ضده لم يكن ينفس توتره الداخلي فقط بل كان يفوز برأي جيد لنفسه في الغرب. كان سيده الشيطاني متساهلاً، ما ضمن له متعة تمردات متقطعة؛ عندما تكون مفيدة فقط. مراقباً الوجوه أمامه، ابتسم غما من سذاجة الناس.

في الأوقات التي لم يكن مشغولاً فيها بالواجبات الدبلوماسية أو حفلات الاستقبال أو دورات التدريب السياسي لطاقمه، كان يقيم حفلات بريدج. كان لاعب بريدج ممتازاً ورائعاً. كان يشكو من أنه متعب إلى درجة كبيرة بعد العمل بحيث لا يمكنه فعل شيء إلا لعب الورق، وأن العمل الدبلوماسي يمنعه من الكتابة. في الحقيقة، لم يكن هذا الأمر صحيحاً تماماً. كان قد وصل في عمر مبكر إلى قمة عمله. لو أنه رغب في الأمر بشدة لكان وصل إلى مرتبة وزير دولة في بلد تحكم الوزير فيها قرارات 'اللجنة المركزية للحزب'. كان عضواً في اللجنة المركزية. ما هو

التالي؟ خلال فترة إقامته في العاصمة الغربية الجميلة، أخذ فرصته، واكتشف أنه لا يملك أي شيء. حسناً، ربما صرخ: «ماذا فعلت بشبابك؟»[1]. ماذا فعل حقاً بشبابه؟ هل هناك حقاً شيء يمكن له أن ينسبه لنفسه ولا يكون نتاجاً للحتمية التاريخية؟ كان يقارب أربعينيات عمره، وكان المشهد واضحاً بالنسبة له. كانت مشاعر الهزيمة الأدبية القديمة تعود إليه. شعر أنه فارغ مثل غربال تمر الريح من خلاله. أطاحت رياح الضرورة التاريخية تلك كل المعاني من الأدب. معادلة أيديولوجية ذكية أخرى، صفحات أخرى من النثر العقائدي! لماذا الكتابة عندما يعرف الجميع مقدماً ماذا يجب أن يقال حرفياً؟ لعب البريدج في صالونه المذهب الممتلئ بالمرايا ليس لأنه كان متعباً بل لأنه كان خائفاً أن يجد نفسه وحيداً أمام صفحة بيضاء فارغة.

اعتاد بالتدريج على أسلوب الحياة هذا. إلا أن الحزب لم يكن يحب أن تصبح الراحة عادة. كانت تغييرات تحصل في بولندا. في النهاية صار التشدد الصارم مطلوباً من كافة الكتاب. كانت هناك حاجة لِ غما في موقع العمل. غادر قصر القرن الثامن عشر والعاصمة الغربية الجميلة بكثير من الأسى. عرف أن العالم الشرقي الذي يعود إليه أفضل بكثير. معارك عنيفة ومؤامرات، وفزع مستمر من غضب موسكو كان بانتظاره. لن ينفع الأسى؛ عليه الذهاب.

المنصب الذي استلمه عند عودته كان أعلى من منصب سفير في دولةٍ رئيسةٍ غربية. أصبح، وهذه المرة رسمياً، المراقب السياسي على كل الكتاب، حارس ضمائرهم. كانت وظيفته الحرص على أن يتطور الأدب البولندي بانسجام مع خط الحزب. كانت الحكومة قد قدمت للتو لاتحاد الكتاب مبنى جديد في وارسو يحوي على مدرج ضخم وقاعات

---

(١) بالفرنسية. بيت شعري للشاعر بول فيرلين (١٨٤٤ ـ ١٨٩٦). (م)

مؤتمرات ومكاتب ومطعم وأماكن سكنية للكتاب. وتم تعيينه هناك، يحضر مؤتمرات لا تنتهي مع الكتاب والناشرين والبوليس السري وممثلي الاتحادات المشابهة.

أعطي شقة في مبنى حكومي كانت محجوزة للمقامات الرفيعة. لا يمكن السماح بالدخول إلى هذا المربع السكني من دون ترتيبات سابقة على الهاتف. إلا أن هذه الأرقام الهاتفية غير مدرجة في دليل التلفون؛ يتم إصدارها للأفراد الموثوق بهم فقط. يتكلم عنصر الأمن على المدخل بالهاتف مع الطوابق العليا للتأكد أن اللقاء قد تمت الموافقة عليه فعلياً؛ ويسمح للضيف بالدخول بعد أن يأخذ أوراقه الثبوتية.

كان غما محقاً في توقعه فترة من الدسائس. في العموم، لم تكن لديه مخاوف كبيرة من الكتاب الآخرين لأنه كان رئيسهم من ناحية العمل الوظيفي؛ على الرغم من أن بينهم أفراداً معينين خطرين كانوا أقوى منه في المادية الجدلية وأكثر ثورية في عقليتهم. الصراع الحقيقي على السلطة كان ينشب في الأعلى، في الفئة الأعلى من الحزب. هناك كان لديه العديد من الأعداء. على الرغم من سنوات تدريبه الطويلة، فإن الإقطاعي الريفي الناري داخله لا يزال يقع في الغضب كلما اعترض عليه أحد ما. في مثل تلك اللحظات، كان يعامل البشر وكأنهم خدم في مزرعته الخاصة. كسفير، كان بإمكانه السماح لنفسه بمثل هذه الوحشية من دون الخوف من الانتقام، لكن الآن فإن هذا يسبب له المتاعب. بالإضافة إلى ذلك، كان الخط الرسمي قد تصلب كثيراً في بولندا إلى درجة أن كلمة صادقة واحدة، حتى لو قيلت للفوز بالمهتدين، يمكن ترفع العواقب الكارثية. بعد فترة قصيرة من عودته، ارتكب إحدى أكبر الأخطاء الفادحة في مهنته السياسية. حدث هذا في اجتماع انعقد مباشرة بعد اندلاع الحرب في كوريا. كان غما يجيب عن أسئلة «البروباغاندا الهامسة»، صرخ بكراهية، «نعم، لقد كنا المبادرين بالهجوم، لأننا أقوى».

تطلب إصلاح الضرر الذي تسببت فيه انفجاره المؤسف كثيراً من العمل. كما نعلم، وحسب الخط الرسمي، فإن كوريا الشمالية هي من تمت مهاجمتها.

كان عليه أيضاً أن يعمل بجدية من أجل كتاباته. وحده الكاتب «النشط» يمكن له أن يكون عضواً في اتحاد الكتاب. كل كاتب مجبر على النشر تحت تهديد الفصل من الاتحاد وبالتالي فقدان كل مزاياه. الإلزام بالبقاء نشطاً كان لا يقيد كثيراً الزعماء.

قال أحدهم في وارسو عن غما: «إنه يقاتل في هذه الحرب ضد الإمبريالية والبروباغاندا الغربية تحت حجة السلام، إلا أنه يحلم بأمر واحد: الحرب. لأنه إن اندلعت الحرب، فسيكون هناك خطابات ورحلات طيران وتقارير صحافية من الجبهة؛ ولن يكون عليه الجلوس كل يوم خلف مكتبه وتعذيب نفسه بسبب رواية. لكن فقط من باب النكاية، سيكون هناك سلام؛ وسيكون لديه خمسة مكاتب في شقته الأنيقة، وعلى كل منها، بداية رواية. وسوف يعوي يومياً من اليأس مدركاً أن كل ما يكتبه ميت كالصخر».

لا يمكن لأحد حسد هذا الرجل على خياره. كلما نظر إلى بلده يدرك أن جرعات أعظم من المعاناة تنتظر الناس. وكلما نظر إلى نفسه يدرك أن لا كلمة واحدة مما نطق به تخصه. إنه يفكر: أنا كاذب. ويجعل الحتمية التاريخية مسؤولة عن أكاذيبه. لكن أحياناً تستحوذ عليه فكرة أن الشيطان الذي باعه البشر أرواحهم يدين بقوته للبشر بأنفسهم، وأن الحتمية التاريخية هي من اختلاق العقول البشرية.

## الفصل ٧

# ديلتا، التروبادور[١]

(١) الشاعر أو الموسيقي الجوال في أوروبا القرون الوسطى. (م)

تحمل كلمة «شاعر»، في أوروبا الوسطى، بشكل أو بآخر معاني مختلفة عن تلك السائدة في الغرب. هناك لا يقتصر عمل الشاعر على ترتيب الكلمات في رصف جميل. تقتضي التقاليد بأن عليه أن يكون «شاعراً غنائياً ملحمياً». وأن الناس يجب أن تغني أغانيه طويلاً، وأن يتحدث في أشعاره عن مواضيع تهم كل المواطنين. فهمت كل حقبة من التاريخ واجبات الشاعر بشكل مختلف. على الأرجح أن ديلتا سيكون أسعد في الزمن الذي كان فيه الملوك والنبلاء يتعهدون للشاعر بقصر أثناء ولائمهم مقابل أغنية أو دعابة. حتى ملابس العصور السابقة كانت ستناسب مظهره أكثر من بدلة العمل في قرننا؛ ووحده شعر طويل وعصا مزخرفة في يده يمكن أن يخلقا صورة تناسب شخصيته.

كان ديلتا يمتلك لوناً غجرياً غامقاً، وكان منمشاً، وليس طويلاً، وعندما يضحك فإن فمه السميك ينحرف بتكشيرة مضحكة. كان يمشط شعره إلى الوراء من جبين عالٍ. كان رأسه كبيراً بشكل لا يتناسب مع جسده القصير، ما يجعله يبدو بشكل ما مثل قزم أو مهرج، كما نراه في لوحات البلاطات الملكية. كان يرتدي ربطات عنق بعقدة كبيرة مفكوكة دائماً، وبخلاف ذلك يكشف عن نزعة غريبة في ارتداء الملابس. إن الذين يلجؤون إلى المزايا الغريبة الظاهرية لتقديم أنفسهم كأعضاء في الجماعة الأرستقراطية غالباً ما يكونون فنانين من الدرجة الثانية. إلا أن

«ميوله الفنية» كانت جزءاً من تصرفاته بشكل عام. يمكن القول إنّه كان مع كل إيماءة وكل نغمة في صوته يلعب مع العالم؛ كان يشدد في نبرته على الخلاف بين إيقاعه الخاص وبيئته. كان إيقاعه موحياً. ألقى قصائده بشكل رائع مهيب في قاعات ضخمة مليئة بالناس. كان ممثلاً جيداً؛ سيطر على الحضور، وعرف كيف يضبط مستمعيه صعوداً إلى الذروة من دون أن يترك التصاعد في التوتر ينهار. فرض قصائده بأناة، متوقفاً بين الكلمات؛ ومع أنه كان يتكلم، فقد غنّى. في مثل هذه الأوقات، كان مثل تعويذة إيقاعية حية؛ تغيّر، كبر في منزلته.

لا أحد يعرف أصوله. عدل سيرته الشخصية لتناسب احتياجات اللحظة. مرة كان والده قندلفتاً؛ ومرة أخرى مالك مطعم. في بعض الأوقات كانت عائلته تشيكية؛ وفي أوقات أخرى كانت لديها صلات قربى في موسكو. الحدود بين الخيال والحقيقة لم تكن موجودة عنده.

أما كيف تعلم اللغات الأجنبية فقد كان ذلك لغزاً آخر. من الصعب تخيله جالساً يقرأ في القواميس والقواعد. ومع ذلك فقد كان يستشهد بوفرة بأشعار لاتينية وإنكليزية وفرنسية وألمانية. درس في الجامعة مدة قصيرة، حيث أصبح مشهوراً بسبب كتابته مقالاً عن شاعر إنكليزي من القرن السابع عشر لم يوجد قط. بعد إعطاء سيرة ذاتية شاملة عن الشاعر، تابعت المقالة في تحليل مفصل حول الظروف التي ظهرت بها أعماله الفريدة. مشعوذ، أو محتال؛ هذا ما كان يريد أن يكون في ذلك الوقت، وكان دائماً يستمتع كثيراً عندما يجد أستاذه المدقق نفسه في محنة، مرتبكاً بسبب تلك الأدلة الواضحة على سعة المعرفة.

كان ديلتا كحولياً مزمناً، عادة في دورات تستمر أياماً. أوصله الكحول إلى حالات هلوسة نادراً ما كانت تحصل لغيره من السكارى. قد يطلب كأساً من البيرة في مكتب سفريات. قد يطلب تاكسي ويطلب

من السائق التوقف عند تقاطع رئيس، وبعد أن يلقي خطاباً على الحشود المذهولة، يلقي بمعطفه بلا مبالاة ويبول عليه. أو أنه يأتي إلى أصدقائه وهو يشكو من أنه واجه صعوبة في إيجاد منازلهم لأن «جماعته»، وفق أقواله، الذين وزعهم في أرجاء المدينة ليدلوه على الطريق، قد تنكروا إلى درجة كبيرة بحيث تعذر عليه التعرف عليهم. يظهر مثل هذا الغلو أن الكحول هوى به إلى عالم هوفمان أو إدغار آلان بو. أصبح شخصاً أسطورياً تروى أحدث مغامراته في المقاهي الأدبية.

كان شعر ديلتا مصدراً إضافياً للأسطورة. كان لا يشبه أي شيء كتب في أوروبا في النصف الأول من القرن العشرين. لم يتأثر بأية مدرسة شعرية. كان يعيش في هالة الحضارة الإيطالية ـ اللاتينية التي حفرت آثارها بعمق في بلادنا. الملحقات التي استعارها من شعر الماضي نظمها مع بعضها بأسلوب يذكرنا بخيالاته السكرى. كان شعره مشهداً من الملائكة الباروكيين السمان، وسحرة مخطوفين عبر نافذة من قبل قوة غامضة ما (تم الاحتفاظ بهم في اللحظة الأخيرة عن طريق عضة زوجية في الأذن)، وصيد باستخدام الجوارح، ومنجمين يتنبؤون بنهاية العالم. تتخللها أصوات فونوغراف يعزف ألحاناً لِ باخ وموزارت، وبطاطا في التربة تحلم بالفودكا التي ستصنع منها، كواكب على شكل نساء شابات يرتدين سراويل زرقاء، وناس يرقصون في الضواحي. شعره كان تراجيدياً وكوميدياً، لا معنى له ومع ذلك مليئاً بالمعاني. هذا الخليط اللا منطقي من العناصر المتباينة يختلف عن الأنواع الشعرية المنحلة للشعر الحديث في جانب واحد: على الرغم من التجميع الغريب للصور التي يقدمها، إلا أنها لم تكن مبهمة. يستسلم القارئ لسحر موسيقاها، يبتلع أجزاء من التجريد عادة ما تكون مزعجة له عند شعراء آخرين، يضحك على الانحرافات الفجائية للكاتب، بالمختصر، يدخل بشكل غير مرتاب في مملكة تحكمها قوانين لا تشبه تلك الموجودة في الحياة اليومية العادية.

نشر كثيراً من الشعر الفكاهي، موقعاً إياه بأسماء مستعارة عديدة. قدرته الإبداعية في إيجاد مواضيع بدت وكأنها لا تنضب. من بين أشياء أخرى عديدة، كتب سلسة عنونها بـ *أغاني صغيرة لرئيس مكتب القبور*. كان يحب أن يضمن لائحة خيالية لأعماله في كل كتاب؛ أتذكر عنواناً مثل: «مقدمة في أكل لحوم البشر ـ محاضرات جامعية مختزلة: متجر الأدوية ترويلوس، الناشر، الطبعة نافدة». ولأنه كان ذا شعبية بين القراء، فلم تنقصه العروض من الناشرين والراديو. قلمه، الذي كان وسيلة دعمه الوحيدة، كان يؤمّن له حياة جيدة؛ لكنه احتاج المال باستمرار لأنه كان يسكر بأتعابه مباشرة.

عندما يكون صاحياً، لا يمكن لأحد التصديق أنه كاتب الأشعار ذاته الذي يضحك الجمهور. صموت ومتجهم وخبيث، يصبح حيوياً فقط عند رؤية المال. عند المساومة، يصبح متصلباً لا يرحم. ما إن يحدد مبلغ المال، فلا يمكن لأي نوع من الجدل أن يجعله يقدم تنازلات. والأسوأ أنه كان يطلب الدفع حالاً، ما يسبب معضلة رهيبة لمحرريه. كانوا يريدون شعره؛ لكن إعطاءه المال يمكن أن يؤدي إلى خطورة أنه سوف يبدأ بدورات الشرب وينسى التزاماته. وجد بعض المحررين حلاً: سوف يعطونه المال، ثم يرفضون تركه ثانية واحدة حتى يسلمهم المخطوط. تحصل مثل هذه الصفقات عادة في بيوت القهوة. يكون المال على الطاولة بين الطرفين المتعاقدين. ديلتا، وبعد جهود عقيمة لتليين مقاومته، سوف يخرج قلمه، ويكتب الشعر (والذي يكون وبحسب مزاجه جيداً أو عادياً)، ويلتقط المال ثم ينصرف للشرب.

كان أحياناً ينزل في مصحة للكحوليين. لم تكن نتائج «العلاج» جيدة. ورويت انتصاراته في معاركه ضد مهنة الطب على نطاق واسع. في أحد المصحات، وحسب الحكاية المروية، كان انتصاره مطلقاً إلى درجة أن كلاً من المرضى والأطباء ثملوا على قدم المساواة وأقاموا سباقاً على الدراجات الهوائية في ممرات المصحة.

مشعوذ دجال وسكير، ومع ذلك فقد كان، وعلى الرغم من المظهر، شاعراً تراجيدياً متميزاً. بدأ مهنته الأدبية في سنوات الأزمة الاقتصادية. البطالة، واليأس العالمي، وصعود النازية في ألمانيا المجاورة، ساهمت كلها في تشكيل خصائص كتاباته. كان يطلق عليه عن حق لقب «ملك الهراء». ومع ذلك فإن القراء الذين لم يُخدعوا بتهريجه الظاهري رؤوا في شعره رؤية مشؤومة لنهاية الحضارة، ولاقتراب «عصر الحديد»، ولكارثة رهيبة. تكلم كأن كل شيء قد ضاع منذ سنوات قبل أن تغطس أوروبا في الظلمة والوحشية. سكنت أعماله رهبة وجمال العصور الغابرة مرة أخرى، إلا أنه لم يكن ثمة أمل في الراحة فيها. المعاني والصور التخيلية التي استخدمها امتلكت كثافة واتساق الأحلام؛ طاردت إحداها الأخرى بسرعة قطار مندفع. الـ مادونا[1] التي تزين غالباً أشعاره لم تكن مادونا رمز التقوى إنما مجرد زخرفة أسلوبية. قتل الفاشيون والشيوعيون بعضهم في أشعاره بحمية ملطخة بالدماء لممثلين في المسرحيات المخيفة[2]، بينما كان هو يصرخ بسخرية: «أوه أيتها الواقعية! أوه يا أمي العزيزة! بالنسبة لك فإن هذا القتل لا يعدو إزعاج قتل الذباب!» وضح نفسه بشكل دقيق عندما قال: «المجد لِ بحّاري[3] / أنا منصرف إلى هاوية الجحيم/ هاوية الشك الأبدي».

*نهاية العالم*، كان عنوان قصيدة شعرية له حيث الباحثون والسياسيون والثوريون والعشاق والسكارى والكناريات والقطط جميعها جرفت بعيداً

---

(١) السيدة العذراء. (م)

(٢) Grand Guignol (م)

(٣) إشارة إلى شارون، صاحب العبارة التي تنقل الموتى إلى العالم الآخر في الميثولوجيا الإغريقية. (م)

بسبب كارثة كونية؛ من أجل إرضاء المؤلف، وتحقيق ثيمة «باطل الأباطيل» من *سفر الجامعة*[1] وكل هذا وصف بقلم يلعب. في قصيدة أخرى من قصائده: *معرض القوم*، هناك حفل راقص وخيول تدور بحركات استعراضية، وزوجان شابان يجلسان على العشب، وقنانٍ فارغة مبعثرة على المروج، ومراجيح. فجأة تغطت السماء بالغيوم، وبدأ المطر بالهطول، واندمجت كثافة الظلمة ـ بطريقة خاصة بأسرار فن ديلتا ـ بنشيد رعاة حزين لِـ فيرجيل علامات ترقيمه صوت إطلاق بنادق آلية.

قصيدته الأكثر غرابة كانت: *حفل سليمان الراقص*. لماذا يقيم الملك سليمان حفلاً راقصاً؟ لماذا يعيش في القرن العشرين؟ ربما ليس هو الملك سليمان إذاً، إنما سليمان فقط؟ لماذا يدخل العاطلون عن العمل غرفة الرقص وهم يبيعون فراشات؟ ومن هو هذا الذي يستمر بغناء أغانٍ فارسية عن غولستان[2]، وحديقة الورود؟ من أين جاءت جحافل البوليس التي بدأت فجأة بأداء رقصات وحشية؟ لا جدوى من الوقوف عند مثل هذه الأسئلة. ليس من منطق خاص بالأحلام، لكن وحده شاعر مثله يمكن له استخدامه بحرية. «كانت النساء في الغرفة يأتين ويذهبن وهن يتحدثن عن مايكل أنجيلو» كان هذا تعبير **تي إس إليوت** حول الكلام الفارغ. رفع ديلتا الأحاديث التي كانت تجري في حفلة سليمان إلى درجة أعلى، إلى عالم الهذيان و«الشك الأبدي».

العالم كما يعكسه شعره كان عالماً جائراً؛ ومع ذلك فإن قصائده ـ وهنا نجد واحداً آخر من التناقضات الداخلية لهذا الرجل غريب الأطوار

---

(١) سفر الجامعة من العهد القديم، يتحدث عن الحكم المستقاة من الحياة. أثر هذا السفر تأثيراً كبيراً على الأدب والأدباء، خصوصاً في إنكلترا وأمريكا. (م)

(٢) إيران. (م)

ـ كانت خالية من الحزن واليأس. على العكس، كانت تقول «نعم» مفعمة بالحيوية للحياة. مع كل كلمة كان يمجد العالم كما يراه، كتلة متشابكة من الملذات السخيفة والغرائز والكلمات والحروب. أحب خيالاته التي تشبه الأحلام. أحب استعراضات الخيول والغجر الراقصين، وقوارب النزهة في صباحات الأحد على نهر فيستولا، وزوجته التي كان يخاطبها في قصائده الغنائية، والقطط التي تنام على درابزين الشرفات والأسطح، وأشجار التفاح المزهرة. أحب الحماسة والبهجة بحد ذاتهما. كل ما يلمسه يتحول إلى مشهد من الحركة والألوان والموسيقى. كانت المواضيع بالكاد تكون مجرد ذريعة بالنسبة له. مثل دودة الحرير، غزل من نفسه خيطاً ناعماً لفه حول أي شيء كان يصادفه. كان بإمكانه تأليف أغانٍ وترانيم حول أي موضوع.

لم يُظهر أي ميول سياسية، كان يوزع سخريته بالتساوي على كل المجموعات التي كانت تتنافس على السلطة. لهذا السبب فإن نقاشه في عام ١٩٣٧ مع القوميين المتطرفين قوبل ببعض الدهشة. كان محرر إحدى الأسبوعيات اليمينية المهمة قد حاول طويلاً اصطياده، ونجح أخيراً في شرائه كملكية حصرية للدورية. المجلة التي بدأ شعره يظهر على صفحاتها الآن كانت معادية للسامية بعنف. كانت أعداد توزيعها الكبيرة ناتجة عن انتشار المعتقدات القومية في بلادنا، وخصوصاً بين الشباب. بصعوبة كبيرة تمكن الجمهور الليبرالي من تصديق هذه المرحلة الجديدة من خداعه: أشاد بمسيرات الـ «الفالانجيين»[١]، وتنبأ بِـ «ليلة السكاكين الطويلة»[٢]، ومذبحة لليهود والليبراليين واليساريين تشابه

---

(١) أعضاء الحزب السياسي الفاشي للجنرال فرانكو في إسبانيا. (م)

(٢) حملة تطهير تضمنت اغتيالات سياسية وملاحقة واغتيال قام بها النازيون في ألمانيا عام ١٩٣٤ ضد معارضيهم وكرس بعدها حكم الحزب النازي بلا منازع. (م)

أحداث ليلة القديس بارتيلمو[1]. ومع ذلك فقد كانت حقيقة واضحة؛ لقد ظهرت مثل هذه القصائد والمقالات، موقعة باسمه وتحمل كل سمات أسلوبه.

لماذا كتبها؟ كان للتساؤلات العنصرية لا مبالاة عظمى بالنسبة له. كان لديه العديد من الأصدقاء اليهود، وفي اليوم ذاته الذي نشر فيه عباراته العنصرية، كان سيأتي إلى هؤلاء الأصدقاء (من الطبيعي أنه سيكون ثملاً حينها) ويسقط على ركبتيه، وسوف يعلن حبه لهم ويطلب مغفرتهم. يجب البحث عن سبب اتحاده مع اليمين في مكان آخر وليس في ذوقه السياسي. ديلتا المهرج والتروبادور لم تنقصه المبادئ المهنية. لقد احترم حرفته الشعرية؛ لكن احترامه لم يكن حول ما يكتب عنه. كيف ولمن؛ هذا سؤال مهم. لقد احتقر المدارس الأدبية النخبوية التي تلبي ذوق مجموعة صغيرة من الذواقة الخبراء. وسخر من الشعراء الذين لا يمكن أن يفهم كلماتهم إلا قليل من المثقفين. التأملات الفردية التي لا أمل لها في العثور على قراء لم تكن له. مثل تروبادورات الأيام السالفة كان يتوق للعزف أمام تهليل المعجبين. من الصعب إيجاد مثال أفضل من هذا عن كاتب يثور ضد عزلة المثقف في القرن العشرين.

لم تكن لعداء ديلتا تجاه اليهود جذور عنصرية؛ اقتصر ذلك على كتاب يهود كانوا في العموم ميالين للاحتفال بِـ «القيم» الأدبية وبِـ «صقل الأسلوب». انبثق هذا العداء من معركته ضد المقاهي الأدبية، وكفاحه للهروب منها. بالإضافة إلى ذلك، وكما قلت سابقاً، كان متحمساً. سارت الحشود، لوحت الحشود مهددة بالعصي؛ كان هذا صحة وقوة وفطرة ومهرجان جماهيري عظيم. حيثما يذهب قرائي، أذهب أنا؛ كل

---

(١) حدثت هذه المذابح في ليلة عيد القديس بارتيلمو في فرنسا عام ١٥٧٢ ضد البروتستانت. (م)

ما يريده قرائي، أعطيه لهم؛ هذا ما أكده في كل قصيدة. وبينما بدأت «حركة» القوميين تتخذ حجماً جماهيرياً، تحرك ليلتحق بالجماهير. تحدث بفخر عن آلاف الشبان الذين يحفظون قصائده عن ظهر قلب. وقد كان فخره في موضعه. شعراء شعر «الطليعة» المعقد، والمعزولون كما كانوا، كانوا يفخرون بحرفتهم؛ لكنه هزمهم حتى على أرضهم. ولم يمكنهم النشر في مثل ذلك النطاق من أجهزة الإعلام الفنية كما فعل هو. ختام القول، يجب علينا الأخذ بعين الاعتبار أنه كي يتمكن من العيش كان بحاجة إلى راعٍ، شخص يجبره على الكتابة، ويحارب سكره، وفي المختصر، يتحكم فيه ويرعاه.

اندلعت الحرب. وتم تجنيده كجندي. تمركزت وحدته في شرق بولندا، على حدود الاتحاد السوفيتي. عندما تحرك الجيش الأحمر لملاقاة الجيش الألماني، ألقى الروس القبض عليه. لكنه مع عدد آخر من الجنود البولنديين غير المسلحين تم تسليمهم إلى الألمان في عملية تبادل. وأمضى الخمس سنوات ونصف السنة التالية في معسكر اعتقال لأسرى الحرب في الرايخ. اعتاد كسجين على أنواع مختلفة من العمل، وبشكل رئيس العمل الزراعي. كانت مؤهلاته للعمل البدني ضعيفة. من الصعب تخيل رجل غير مجهز، أكثر منه، لأسلوب حياة حيث يكون أهم شيء والمشكلة غير القابلة للحل غالباً هي كيف ستملأ معدتك. ومع ذلك، فقد نجا، مهرج البلاط القزم بالمزق البالية، ممسكاً رفشه بينما يلقي أشعاراً لِ هوراس[1]. لا شك أن إجادته الألمانية ساعدته كثيراً.

في هذه الأثناء، حكم الإرهاب وارسو. والذين، حتى فترة قصيرة، كانوا يستخدمون الألمان كنماذج صاروا الآن مستهدفين بالاصطياد مثل

---

(١) شاعر روماني. (م)

الطرائد. رئيس التحرير اليميني الذي كان راعي ديلتا أصبح أحد الأكثر نشاطاً في العمل السري. كان وطنياً متعصباً. ما زلت أتذكره كما رأيته آخر مرة، في المقهى الذي كان مركز عمل مجموعته السرية والمنشورات التي يصدرها. وجهه اليهودي النحيل (كان نصف يهودي مثل العديد من معادي السامية في بلادنا) أتلفه الغضب، واشتعلت الحمى في عينيه، وشفتاه المطبقتان بإحكام تلحّان على العمل الفوري. بعد فترة وجيزة أمسك الغستابو بأثر منظمته، ألقي القبض على جميع أفراد المقهى المؤلفين من زملاء العمل المقربين له؛ رئيس التحرير نفسه أمضى زمناً طويلاً في السجن في وارسو قبل أن تحمله شاحنة محروسة بعناية في رحلته الأخيرة. أطلق النار عليه في الغابات قرب وارسو: رمل وأشجار صنوبر وكلمات الأوامر. ومع ذلك، فقد كان موته موتاً رحيماً. كان يمكن أن يواجه الأسوأ لو أنه شارك مصير الثلاثة ملايين يهودي بولندي الذي كان من الممكن تعداده بينهم بما أنه نصف يهودي. في تلك الحالة، كان سيجد نفسه في الغيتو الذي تأسس في وارسو عام ١٩٤٠ بأوامر من السلطات المحتلة. ومن هناك، كان حتماً سوف يرسل، مثله مثل الآخرين، إلى غرف الغاز.

«الحركة» القومية، والأرتال الزاحفة، والحشود المتحمسة! خيّبت الهزيمة الساحقة لعام ١٩٣٩ كل ذلك، مخلفة فقط الذكرى المريرة للحماقة البشرية. وضع النازيون برنامج معاداة السامية موضع التطبيق. إلا أنها لم تعد مجرد مقاطعة لمتاجر اليهود أو مضايقة الباعة اليهود، ولا حتى مثل المماحكات الأدبية مثلما فعل ديلتا. الكتابة عن مأساة غيتو وارسو، التي كنت شاهد عيان عليها، صعبة بالنسبة لي. منظر الغيتو المحترق ملتحم بشدة بكل ما عايشته خلال سني نضجي ليمكنني التحدث عنه بهدوء. إلا أنني أحب أن أصف حادثة واحدة. غالباً عندما أكون جالساً على شرفة مقهى باريسي، أو ماشياً في شوارع مدينة كبرى،

يستحوذ عليّ هاجس بعينه. أنظر إلى النساء اللواتي يعبرن أمامي، إلى شعورهن المسرحة بترف، وإلى ذقونهن المرتفعة بكبرياء، رقابهن النحيلة التي توقظ خطوطها البهجة والرغبة؛ وعندها أرى أمام عيني دائماً الصبية اليهودية نفسها. كانت على الأرجح في حوالي العشرين من عمرها. جسدها مليء ورائع وبهيج. كانت تركض نازلة الشارع، يداها مرتفعتان، وصدرها مندفع إلى الأمام. كانت تصرخ بصوت ثاقب، «لا، لا، لا!» ضرورة الموت كانت خارج فهمها ـ ضرورة جاءت من الخارج، وليس لها أي شيء مشترك مع جسدها غير المستعد. لحقت بها رصاصات مسدسات حراس الـ إس إس في صراخها.

اللحظة التي تثقب فيها الرصاصة اللحم الحي هي لحظة ذهول بالنسبة للجسد. تختلط الحياة مع الموت لثانية، قبل أن تسقط خرقة مدماة على الإسفلت وتدفعها جزمة الحارس بعيداً. هذه الفتاة لم تكن الأولى ولن تكون الأخيرة من الملايين التي قتلت في الفترة التي تكون قوة الحياة في داخلهم في أوجها. إلا أن عودة تلك الصورة بهذا الشكل المتكرر العنيد ـ ودائماً عندما أكون ثملاً بجمال كوني حياً بين بشر أحياء ـ تستحق بعض التفكير. ربما تكون أمراً يعود إلى العالم ذاته الذي تقوم فيه قبيلة بدائية ما بحفلات جنسية جماعية. في مثل تلك الأوقات، فإن مثل هذا الأمر أو أي موضوع آخر للرغبة متشابهان، ينصهر كل الرجال والنساء بشعور عظيم من المشاركة حيث كل فرد ينتمي إلى المجموع. لا يمكن للارتباط بامرأة واحدة إعطاء التنفيس نفسه لمثل هذه الدوافع الملحة. بتعبير آخر، هذه هي القواعد العميقة للحب عند الجنس البشري، حب لا يمكن حقاً التعبير عنه، عند النظر إلى مجموعة من النساء الضاحكات، لا يمكن للمرء استدعاء ذكرى الشابة اليهودية كـ *واحدة منهن*، كمطابقة لهن وحاضرة دائماً. إحدى أفضل القصائد التي كتبها ديلتا عن إقامته في ألمانيا كانت عن موت شابة فينيسية، اعتقلت

ورحلت إلى الرايخ. كانت قصيدة جنسية؛ ظهرت الفتاة الفينيسية فيها ليس كفرد وإنما ممثلة لجمال الشباب، روعة وجمال الصدور والأذرع والأيدي والأفخاذ التي يدمرها الموت.

في عام ١٩٤٥ رحب هو وزملاؤه السجناء بوصول القوات البريطانية. وبما أن جيش لندن البولندي كان يرافقهم، فقد دخل في جولة من اللقاءات والشرب والغناء. بعد أن جفت ينابيع المال والكحول تلك، غادر إلى فرنسا. مرة أخرى، وكما في عام ١٩٣٩، كانت حقبة من التجوال العالمي. كل أوروبا كانت على الطريق؛ الملايين من العمال القسريين والسجناء والعبيد كانت تعود إلى أوطانها؛ ملايين أخرى كانت تفر أو تُستبدل من أراضيها الأصلية. قابل ديلتا أعداداً كبيرة من البولنديين في كل مكان. كتب قصائد وطنية ومعادية للروس تنسجم تماماً مع مزاج مستمعيه. اعتصر المال من كل أنواع لجان المهاجرين. معجبوه ما قبل الحرب، المبتهجون بنجاته، كانوا يفعلون كل ما بوسعهم من أجله.

ومع ذلك، وتدريجياً، فقدت حياته في باريس وبروكسل سحرها. كانت إمكانية النشر صغيرة؛ وكان الجمهور قد انتشر في دول متعددة؛ وكان المال ينقص باستمرار. شعر بأنه يتحول إلى منفي فقير يمر تهريجه الشخصي والشعري من دون أن يلاحظه أحد. هجرة مرّة كالحة، وفراغ، وطعم الكارثة. أين ذهبت الجماهير التي كانت تمنحه الدفء والصداقة؟ لقد كانت في وطنه. وهناك أيضاً كانت زوجته، التي عاشت خلال الاحتلال الألماني وهي تعمل نادلة في مطاعم وارسو. المنشورات التي كانت تصل من بولندا أقنعته أن الاتجاه سيكون ليبرالياً. أكد مبعوثو حكومة وارسو له بأنه سوف يُستقبل بحرارة وأن خطاياه اليمينية ما قبل الحرب سوف تُنسى.

تم إنجاز عودته إلى بولندا مع كل الفضائح الممكنة. من اللحظة التي

غادر فيها المركب، كان في حالة نشوة كحولية وطنية. أرسل برقية إلى زوجته من كل محطة للقطار. وعندما ظهر في كراكاو (حيث ذهبت زوجته بعد سقوط وارسو)، برفقة صديقة جلبها من بروكسل، أجرت زوجته إجراءات قمعية حادة ورمت بالفتاة خارجاً. تحدرت زوجته من عائلة جورجية مهاجرة. كانت قصيرة نحيلة بشعر أسود؛ تمتلك ملامح شرقية، وأنفاً بارزاً محدباً قليلاً، وعينين متقدتين سوداوين. كانت تخب ارتداء أساور فضية على معصميها النحيلين. في المجمل، كانت تبدو مثل مادونا قوقازية. ورغم أنها كانت أنثى وغير فعالة، فقد كانت صاحبة رأس جيد للأعمال وموهبة في الإبقاء على زوجها في متناول اليد.

كانت عودة ديلتا مناسبة للذين يديرون الأدب والبروباغاندا. كان شاعراً محبوباً واسع الانتشار. وكونه كان معروفاً أنه يميني عزّز قيمته. كان ذا فائدة أعظم بشكل كبير للنظام الجديد من العديد من اليساريين المتحمسين أكثر من اللزوم.

احتاج دائماً إلى راعٍ؛ والآن وجد راعياً سخياً حقاً، وهو الحكومة. قلمه أصبح قلماً ذهبياً بحق؛ كل حركة منه ـ كان يكتب بأحرف كبيرة مزخرفة على لفائف ورق طويلة ـ جلبت له أجوراً أعلى بكثير مما كسبه من قبل. وأكثر من ذلك، فإن حماسه اللفظي، الذي لا يمكن له العيش من دونه، يستند الآن إلى أساسات متينة. لم يعد هناك الآن «كتائبيون» ولا جماهير متحمسة ضد الأقليات العنصرية؛ لكن هناك الآن إعادة إعمار البلاد وإرضاء الشرف الوطني من خلال الاستحواذ على الأقاليم في الغرب التي تتبع في الأصل لِ ألمانيا. كانت قصائده متفائلة دائماً بغض النظر عما يكتب عنه. كان ذلك جيداً. والآن ملأها بمواضيع متفائلة، مع صور لإعادة الإعمار ولمستقبل سعيد؛ وهذا كان أفضل أيضاً. وبما أنه لم تكن لديه أية مشكلة في إيجاد منافذ مجزية، فقد أطلق العنان لنفسه. قصائد غنائية وأشعار تهكمية، ونثر كوميدي، وحوارات

فاضت من حلقاته الدراسية في سيل غير منقطع. أعطته إحدى المجلات عموداً بأسره، كان يودع فيه أسبوعياً «قطعه المسرحية». كانت هذه القطع عبارة عن مشاهد قصيرة صغيرة مما كان يدعوه «المسرح الأصغر في العالم»: *الإوزة الخضراء*. لم أقرأ في أية لغة أخرى مثل هذا اللامعقول الصرف. أبطال «الإوزة الخضراء» كانوا من البشر والحيوانات والأشياء. القراء الذين حضروا هذه العروض الأسبوعية لكباريهه كانوا خجلين قليلاً من إعجابهم بهذا الشذوذ، لكنهم انقضوا على كل عدد من المجلة.

كان نشاطه محل كثير من الجدل. أولئك الذين يريدون أن يتم اعتبارهم من «الموثوقين»، أو من يأخذون ماركسيتهم بجدية كانوا ساخطين. كانوا يتساءلون كيف يمكن لأي أحد أن يسمح لهذا المهرج أن يثير الشغب وكأنه يجلس في مقهى باريسي للوجوديين؟ كان برجوازياً تافهاً قد أصابه الجنون. لماذا تطبع قصائده على الصفحات الأولى لمجلات رائدة؛ لماذا يسمح له أن تكون لديه مهنة؟ كان الجميع يتذكرون أيام معاداته السامية، عندما هدد زملاءه بِـ «ليلة السكاكين الطويلة»! والآن لا أحد بوضع جيد مثله. أليس هذا مخزياً؟

أسكت الأعضاء الأكثر خبرة في الحزب المتزمتين الغاضبين، وابتسموا بتسامح على سذاجتهم. كان ديلتا مفيداً وهناك حاجة له في *تلك المرحلة*. لديه كثير من الأتباع؛ كل ما يكتبه يساعد في خلق جو من المواطنة. يقتضي العمل السياسي إظهار أنه حتى اليمينيين والكاثوليك قد وحدوا قواهم مع الحكومة. الجمهور القارئ لم يكن مستعداً بعد للأدب الجاد العاقل. في هذا الوقت، فإن مهازل ديلتا أفضل ما يناسب ذوقه. كل هذا كان لعبة، لوقت قصير؛ ثم فإلى الجحيم برأسه.

عندما أجبرت بولندا في النهاية أن تعبر عن عبادتها المقيدة لروسيا إلى العبادة العلنية، لم يدع أي أحد يتفوق عليه. كتب عن بطولة الجنود

السوفيت، وعن الامتنان الذي يجب أن يشعر به كل بولندي إزاء روسيا، وعن لينين، وعن شباب الـ كومسومول[1]. التحم بالخط الشيوعي في كل ما يتعلق به. وباعتباره كاتباً بارزاً، فقد استلم فيزا سوفيتية وأمضى بعض الوقت في موسكو، وأرسل من هناك تقارير حماسية نثراً وشعراً. أعلن في أحدها أن عظمة وروعة موسكو يشوههما خطأ واحد: إنها تشبه إلى حد كبير تاورمينا[2]، الناس يأكلون كثيراً من البرتقال هناك، وهو لا يحب البرتقال.

مراسلاته من موسكو قادت المتزمتين إلى الجنون. كانوا يعرفون أن موسكو مدينة كئيبة وبالأحرى بغيضة. كانت نشوته تحمل كل سمات السخرية. بدا كأنهم يقولون: «تريدني أن أغني التسابيح؛ حسناً، سأغني التسابيح بالحمد حتى تخرج من أذنيك». ومع ذلك، لم يكن من السهل معرفة نواياه الحقيقية. من المستحيل معرفة إن كان يكذب أو يقول الحقيقة. المعايير الطبيعة لا تنطبق عليه. كان يتحرك في بعد مختلف. مثل الحواة، كان يخرج العدد المطلوب من الأرانب من قبعته، وكل هذه الأرانب من الألوان المطلوبة. كان يغير كل شيء دائماً إلى *أوبرا بوف*[3]. ولأنه كان يستخدم المبالغة دائماً كأداة فنية من أدواته، فإن معارضيه لم يتمكنوا من إثبات أي شيء ضده. لم يسخر ولم يقل الحقيقة؛ كان يؤدي خدعاً، يمارس الفن لأجل الفن.

لم يكن «جدياً» قط. وكما نعلم، فقد كانت هذه هي المتطلبات الأساسية للواقعية الاشتراكية. بعد مؤتمر الكتاب الذي أقرت فيه الواقعية

---

(١) اتحاد الشباب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي. (م)

(٢) مدينة سياحية في صقلية. (م)

(٣) نوع من المسرحيات الغنائية الكوميدية الإيطالية من القرن ١٨ تأخذ شخصياتها ومواضيعها من الحياة اليومية. (م)

الاشتراكية على أنها الطريقة الوحيدة المسموح بها، بدأ أنصار الوقار عملهم ضده، وبالتأكيد يمكن لهم الآن الانتقام منه. بعد تحليل شعره، وافقوا أن العالم كان بالنسبة له مجرد لعبة يلهو بها. في أحد الأيام، وقبل الحرب، كان قد كتب قصيدة بعنوان: ***رثاء في وفاة فراشة دهستها شاحنة بضائع***. على الرغم من عنوانها الطويل، فقد احتوت المرثاة على أربعة أسطر تخلص إلى أن الفراشة تستحق تماماً مصيرها. والآن وجد نفسه تحت عجلات الشاحنة. كانت حقبة الصرامة والانضباط قد بدأت. كان بإمكانه الكتابة عن أي موضوع من مادونا إلى لينين وموسكو، طالما أن معلمه يطلب خدماته. ومع ذلك لم تفقد قصائده عفويتها. كانت دائماً جذلة؛ لكن علينا أن نضيف أيضاً أن مادونا وكذلك لينين وموسكو قد أصبحت شيئاً غير حقيقي، نوعاً من مسرح بين الغيوم. ومع ذلك، فقد بدأ الآن «الكفاح ضد عفوية العملية الإبداعية» يصبح شعاراً، ما يعني أنه لم تعد تكفي الكتابة حول مواضيع مقررة، وإنما على المرء أن يكتب بطريقة مقررة.

أراد ديلتا أن يخدم سيده. لكي يوجد كشاعر كان بحاجة إلى 'سنيور' مسلٍ لطيف يقتنع بأن لا حكومته ولا أي شيء في السموات أو الأرض يستحق أن يُؤخذ بجدية كبيرة، وبأن الغناء ـ نصف الجاد ونصف الساخر ـ أكثر أهمية. إلا أن مثل هؤلاء الأمراء قد توقفوا عن الوجود منذ زمن طويل. السيد الذي احتجزه مستعبداً إياه تساهل معه لبعض الوقت ليس لأن غناءه ممتع، بل لأن الغناء مجرد وسيلة لتحقيق غاية. وعندما لم تعد أغانيه تخدم الغاية المرجوة فإن سيده عقد حاجبيه بغضب. جرى توجيه الناشرين بطباعة أشعاره التي عبّر فيها عن توبته فقط. فرك المتزمّتون أيديهم سروراً. أخيراً تمكنوا من ليّ عنقه. كانوا يعلمون أنه مهما حاول فلن يتمكّن من التوبة. على الرغم من غزارتها السابقة، فإن أشعاره لم تعد تختلف عن أبيات نظمها شويعر من الدرجة الثانية.

وهكذا دخل مملكة الظلال الحية. ومع ذلك لا ينبغي هدر أي شيء في الاقتصاد الاشتراكي. يمكن للرجال الذين أنجزوا دورهم أن يجدوا عملاً وفق قدرتهم. كان وجود ديلتا مؤكداً؛ كلفته دار نشر حكومية بترجمة *حلم ليلة صيف*[1].

بعد نحو سنتين من سقوطه من الجنة أعطي فرصة أخرى. هذه الفرصة هي كتابة كل خطايا ماضيه ومناقشتها بصراحة في أسبوعية رائدة. كانت هذه نوعاً من محاكمة، كان فيها الحكم محضراً مسبقاً. سوف يعود ديلتا إلى النعمة من جديد؛ لكن مرة أخرى، سيكون ذلك لفترة قصيرة من الزمن فقط.

---

(١) مسرحية لِ شكسبير. (م)

## الفصل ٨

# الإنسان، هذا العدو

كلّ من قرأ البيانات العامة عن الكتّاب الأربعة الذين تحدّثنا عنهم في الفصول السابقة ربما يقول إنّهم باعوا أنفسهم. غير أن الحقيقة أكثر تعقيداً. هؤلاء الرجال بوعي أو من دون وعي هم ضحايا للوضع التاريخي. لا يساعدهم الوعي على إزالة قيودهم؛ على العكس، إنه يسبكها أكثر. في أفضل الأحوال، يمكن أن يزوّدهم بلذة التقية كعزاء. لم يحدث من قبل قط مثل هذا الاستعباد من خلال الوعي مثلما حدث في القرن العشرين. حتى جيلي كان يتعلم في المدرسة أن العقل يحرّر الإنسان.

هناك معركة تُشن في الديمقراطيات الشعبية للسيطرة على روح الإنسان. لا شك أن تكوين الإنسان يقتضي أن يفهم أولاً حتى يقبل. من هم أعداء النظام الجديد؟ الناس الذين لا يفهمون. إنهم يفشلون في الفهم لأن عقولهم تعمل بضعف أو بشكل سيئ.

في كل عاصمة من دول وسط وشرق أوروبا كانت نوافذ أبنية اللجنة المركزية تضاء طوال الليل. خلف مكاتبهم يجلس رجال ضليعون في الكتابة حول لينين وستالين. وليست أقل مهامهم تحديد موضع الأعداء. عندما تتغير الأوضاع، يشبك هذا الفريق العسكري علماً صغيراً آخر على خريطة المعركة. تساعد المعلومات المقدمة من كل بلد القائد الأعلى في موسكو على تأسيس استراتيجية شاملة.

المجموعات المختلفة من الناس هي الموضوع الرئيس للدراسة. الأقل أهمية كانت طبقة الملاك التي جردت من ملكيتها بسبب تأميم المعامل والمناجم والإصلاح الزراعي. كان عددهم ضئيلاً؛ وتفكيرهم قديم الطراز. لم يشكلوا أية مشكلة. سوف يموتون مع الوقت؛ وإن اقتضى الأمر بقليل من المساعدة.

البرجوازية الصغيرة، وهي مؤلفة من التجار الصغار والحرفيين، لا يمكن الاستهتار بها. إنها تشكّل قوة كبيرة، قوة متجذّرة في الجماهير. من الصعب تصفية إحدى الورش أو المتاجر السرية في أحد الأحياء أو المدن إلا وينبثق آخر في مكان ثانٍ. أُخفيت المطاعم خلف جدران منزلقة للمنازل السكنية الخاصة؛ اشتغل الحذّاؤون والخياطون في منازلهم لأصدقائهم. في الواقع، كل ما أتى في إطار المتاجرة في السلع المفقودة أطل برأسه ثانية. ولا عجب! المخازن الحكومية والبلدية كان ينقصها دائماً حتى الضروريات الدنيا. في الصيف، يمكن شراء ملابس الشتاء؛ وفي الشتاء ملابس الصيف؛ ولكن عادة ليست بالقياس المطلوب ومن نوعية سيئة. كان شراء لفة خيطان وإبرة مشكلة عظيمة، لأن المخزن الحكومي الوحيد في البلدة قد لا تتوفر فيه طوال السنة. الملابس التي يجب إصلاحها كانت تبقى في تعاونية الحرف أكثر من ستة أشهر. الحانات («مواقع التغذية التعاونية») مزدحمة جداً إلى درجة أن الناس يفقدون الرغبة في تناول المشروبات مع الأصدقاء. كانوا يعرفون أن عليهم الجلوس إلى طاولات مع غرباء والانتظار أكثر من ساعة قبل أن يأتي النادل.

خلق كل هذا حقلاً للخدمات الخاصة. تذهب زوجة عامل إلى البلدة المجاورة، تشتري إبرة وخيطاناً، وتعود بهم، وتبيعهم: جرثومة الرأسمالية. العامل نفسه الذي لديه وقت فراغ بعد ظهر أحد الأيام يصلح أنابيب الحمام المكسورة لصديق انتظر أشهراً كي ترسل الحكومة له

عامل تصليحات. في المقابل، يأخذ القليل من المال، ما يكفي ليشتري لنفسه قميصاً: ولادة جديدة للرأسمالية. ليس لديه الوقت للانتظار في طابور في اليوم الذي يستلم فيه المخزن الحكومي شحنة من البضائع الجديدة، فيشتري قميصه من صديقة. تمكنت هذه الصديقة بذكاء من شراء، لنقل ثلاثة قمصان، من خلال صداقتها مع البائعة، وهي الآن تعيد بيعها بمربح بسيط. إنها تقوم بمضاربة. ما تكسبه من عملها كعاملة تنظيفات في معمل حكومي لا يكفي لإعالة ثلاثة أولاد لأن زوجها اعتقلته المخابرات. إن لم تمح هذه المظاهر البشرية فإنه من السهل تخمين ما قد تؤول إليه. سوف يؤسس العامل محل تصليحات. وجاره الذي يبيع سراً الكحول للناس الذين يرغبون في الشرب ببعض الخصوصية، سوف يفتح مقهى. عاملة التنظيفات سوف تصبح تاجرة، توزّع بضائعها. سوف يوسّعون أعمالهم بالتدريج، وأسفل الطبقة الوسطى سوف يعاود الظهور. بإدخال حرية الصحافة والتجمع، فإن المنشورات التي تزود هؤلاء الزبائن سوف تنبت بكثرة مثل الفطر بعد المطر. وسوف تكون هناك طبقة من البرجوازية الصغيرة كقوة سياسية.

الأسوأ من ذلك أن هذا الموضوع شمل مشاكل الفلاحين. الفلاحون الذين يشكلون غالبية سكان البلاد، لديهم عقلية الطبقة الوسطى. إنهم متعلقون بقوة أكثر بهكتاراتهم الزراعية القليلة مما قد يتعلق أصحاب المتاجر بمخازنهم الصغيرة. حتى نهاية القرن التاسع عشر كانوا لا يزالون يعيشون في عبودية. كانوا يعارضون المزارع التعاونية لأنهم كانوا يجدونها كأنها عودة إلى حالة وجدها آباؤهم لا تطاق. القفز من الفراش على صوت إشارة الموظف في مزرعة تعاونية مكروه تماماً بقدر كراهية أن تفعل ذلك على صوت جرس يقرعه المشرف على العزبة. كان الكره الأعمى لدى الفلاحين يقلق الحزب. أذعن أعضاء قيادته الأكثر حساسية سراً لضرورة تقديم تنازلات. كانوا يؤمنون أن العمل الجماعي يجب أن

يسبقه الاستخدام التعاوني للمكننة في حقول خاصة، وأنه من الممكن أن يأتي بعد فترة تعليمية تحضيرية طويلة فقط، وتوسيع الإمكانات على مدى عقود. ولّدت هذه الروح المماطلة المشاكل؛ لهذا كانت الشعارات الهامسة لِـ «الشيوعيين القوميين» دائماً رائجة. إلا أن المركز يتطلب إيقاعاً معيناً. يجب على بنية كل دولة مستقلة أن تصبح مشابهة لروسيا بالسرعة الممكنة.

أثرت هذه المشكلة بدورها على المدن. قسّم الفلاحون إلى ثلاث فئات ـ «فقراء»، «متوسطين»، «كولاك»[1] ـ في جهد لكسر تضامنهم عن طريق توليد عداوات مشتركة. لا تُقاس ثروة الفلاح بكمية الأراضي التي يملكها فقط، بل بعدد الخيول والأبقار والخنازير كذلك، وكيف يعيش ويأكل ويلبس. خشية أن يسقط في تصنيف غير مريح، تخلى عن الزراعة وهرب إلى المدينة؛ أو أنه احتفظ بالحد الأدنى من الماشية وادّعى أنه فقير. وكنتيجة لذلك، عانت المدينة من النقص في المؤن.

غير أن الفلاحين ليسوا خطرين. قد يضربون رئيس الحزب أو حتى يقتلونه في نوبة تهور، لا أكثر من ذلك. عندما تكون الدولة هي الشاري الوحيد لمنتجاتهم، وعندما لا يتمكنون من إيصال اعتراضاتهم على الكمية التي تطلبها الدولة منهم، فهم عملياً لا حول لهم ولا قوة. يمكن للمخابرات أن تتعامل بسهولة مع المتمردين، خاصة أنها لا تشكو من قلة المخبرين، باعتبار أن العمل مخبراً أصبح الآن وسيلة ممتازة لإنقاذ النفس. كان الفلاحون كتلة شعبية كبيرة بلا قائد. يطلعنا التاريخ على أمثلة قليلة فقط عندما شكلوا تهديداً جدياً للحكام. مصطلح «ثورة الفلاحين» يبدو جميلاً في الكتب المدرسية ويمتلك قيمة دعائية جيدة، لكن للسذج

---

(١) مزارع غني. (م)

فقط. في الواقع، فإن الفلاحين استخدموا دائماً كأدوات؛ قادتهم، وغالباً من منشأ غير فلاحي، استخدموهم لغاياتهم الخاصة. قوة الفلاحين تكمن في عددهم؛ إنها قوة فقط عندما يأتي رجل مثل لينين ويلقي بثقل عددهم على مقياس الأحداث. من البديهي أن الفلاحين يمكن أن يسببوا المتاعب في أوقات الهيجان مثل الحروب. طالما أن الاقتصاد الفلاحي الخاص موجود فإنه يعمل كقاعدة طبيعية للعمليات لأنصار أي حزب. كوخ الفلاح هو المكان المثالي لهؤلاء الحزبيين ليأكلوا ويناموا ويستنبطوا خطط العمل. لذلك فإن المزرعة التعاونية، حيث يمكن تتبع أثر أي إنسان بسهولة، تضمن درجة من السيطرة لا غنى عنها إن أرادوا منع أي نشاط سري عدائي.

العمال أكثر أهمية بكثير من الفلاحين. معظمهم كان من المناهضين للنظام الجديد. هذا مفهوم. لقد استاؤوا من المعايير التي عليهم تنفيذها. هذه المعايير كانت ترتفع باستمرار. وعلى الرغم من أن شعار «تضامن العمال» يعتبر شعاراً جميلاً، فإنه لا يعني أن تضامن فريق عمل في مصنع يمكن التسامح به. جرى تقسيم مراتبهم من قبل مؤسسة «عمال الصدمة» التي تشجع الدعوة إلى الطموح وتطبق بضغط من قبل أعضاء في خلية الحزب. قد يرفض رجل في البداية أن يكون عامل ـ صدمة. إلا أنه يتعلم بالتدريج أنه لا يدفع له ليكون عنيداً؛ لأنه عندما يتم اختيار العمال لإجراء دورة، في إدارة الحسابات على سبيل المثال، سوف يتم رفض طلبه، أو عندما يحين دوره في إجازة مدفوعة سوف يقال له إنه غير مؤهل لها، إلخ.

سلوك العمال تجاه النظام متذبذب. إنهم يقدرون من ناحية إسهاماته الإيجابية. البطالة صارت شيئاً من الماضي؛ في الواقع هناك دائماً نقص مستمر في العمالة الماهرة. ليس فقط رب الأسرة بل معظم أعضاء العائلة يعملون. هذا التراكم في الرواتب يعني أن الأسرة يمكن لها أن تعيش

حياة أفضل من قبل لو أن المخازن تحوي بضائع كافية فقط؛ لكن بالأخذ بعين الاعتبار النقص في الطعام والبضائع الاستهلاكية، فإن هذه الحالة من النادر، بل من المستحيل، أن تتحقق. التقدم الاجتماعي بالنسبة لأولاد العمال سهل لأن على الحزب تجنيد الكوادر الجديدة من الإنتيليجينسيا من بين صفوفهم. يمكن للعامل أن يثقف نفسه عن طريق حضور أعداد لا نهائية من الدروس المسائية. إن كان الحزب راضياً عنه فبإمكانه الاستمتاع بإجازة في أحد بيوت الاستجمام، وكل التكاليف مدفوعة. من ناحية أخرى، لا يمكنه حماية نفسه من استغلال مستخدمه له في التسخير، وهو الحكومة. ممثلو نقابته الحرفية هم أدوات للحزب. يشكلون مع إدارة المعمل فريقاً واحداً ولغرض واحد: زيادة الإنتاج. قيل للعمال إن الإضراب جريمة. ضد من يمكن لهم الإضراب؟ ضد أنفسهم؟ في النهاية فإن وسائل الإنتاج لهم، والحكومة لهم. إلا أن مثل هذا الشرح ليس مقنعاً جداً. العمال الذين لا يجرؤون على التصريح علناً بما يريدونه، يدركون تماماً أن أهداف الحكومة لا تتطابق مع أهدافهم.

تنتج أوروبا الوسطى والشرقية فقط من أجل رفع الإمكانات العسكرية والاقتصادية للمركز وللتعويض عن التخلّف الصناعي لروسيا. لا تأثير للعمال واحتياجاتهم على خطط الإنتاج. معظم السلع المنتجة تذهب شرقاً. بالإضافة إلى ذلك، كل ما تنتجه أيدي العمال عرضة لعدد لا نهائي من العمليات الحسابية. في كل معمل هناك فريق موظفين كامل، مهمته إعداد وكتابة التقارير وتصنيف الإحصائيات؛ يحصل الشيء نفسه على كل مستوى من السلم الحكومي، وحتى مبيعات الجملة للبيوت الحكومية ولمخازن التجزئة. وعندما تصل السلعة في النهاية إلى المستهلك، إن وصلت، فهي غالية جداً، من ضمن سعرها يجب احتساب رواتب جيش الموظفين البيروقراطيين الذين مرت السلعة بين أيدهم قبل أن تصل. آلات المعامل قديمة جداً؛ هناك نقص في قطع

التبديل. وهكذا فإن العمال يوجهون لاستبدال القطع المعطلة بأية وسيلة متوفرة لهم يمكن صناعتها يدوياً. الإنتاج يأتي أولاً، حتى على حساب استهلاك الآلات. العقاب مرير؛ الإهمال أو حتى التأخير بضع دقائق يعاقب عليه بشدة. لا عجب إذاً أن الجانب السيئ من النظام يرجح على الجانب الجيد في عقل العامل. ومع ذلك فهو لا يجرؤ على الشكوى. إن أظهر أية إشارة استياء، فإن المخابرات، وهم من زملاء العمل وأحياناً من الأصدقاء، يتولّون أمره.

الإضرابات المتهورة التي تندلع بين الفينة والأخرى لا تشكّل تهديداً بحد ذاتها، لأن الاستقرار يعود سريعاً بعد الاعتقالات الجماعية لجميع المشاركين. ومع ذلك فإنها تشكل إشارة تنذر بالسوء بأن السخط وصل إلى مرحلة من التوتر لا يمكن له بعدها إيجاد طريقة للتنفيس إلا عبر أعمال يائسة. يحتاج الإضراب إلى حد أدنى معين من التنظيم. وهذا هو السبب الذي يجعل ديناميكيي الحزب قلقين من هذا الأمر أكثر من أي شيء آخر. العمال هم الطبقة الوحيدة القادرة على العمل المنظم؛ هذا المبدأ الماركسي لا يمكن نسيانه: ومع ذلك فإنه لا يمكن القيام بأي عمل فعلي من دون قادة. إن فهم القادة بدقة، وهذا يعني إن أدركوا ضرورات المرحلة التاريخية، فإن العمال سيكونون ككتلة جماهيرية غير قادرة على الاحتجاج.

وهكذا فإن كل شيء يعود بنا إلى مسألة السيطرة على العقل. تعطى كل فرصة ممكنة للتعليم والتقدّم إلى الأفراد الأكثر فعالية ونشاطاً من بين العمال. البيروقراطية المتوسعة حديثاً بشكل لا يصدق تقوم بالتجنيد من بين صفوف الشبان الذين تنتمي أصولهم إلى الطبقة العاملة. الطريق أمامهم مفتوح، مفتوح لكنه محروس: يجب أن يبنى تفكيرهم على أساس المبادئ الراسخة للمادية الديناميكية. تقوم المدارس والصحافة والمسارح والسينما والرسم والأدب بتشكيل تفكيرهم.

ويجب علينا أن نولي اهتماماً خاصاً لمؤسسة جديدة وهي: «النادي»؛ الذي يشبه تأثيره تأثير الكنيسة في القرون الوسطى. إنه موجود في كل معمل، وفي كل مدرسة، وفي كل مكتب. على جدرانه تعلق صور لقادة الحزب مكسوّة بالرايات الحمراء. وكل عدة أيام تجرى اجتماعات تتبع أجندات معدة مسبقاً، اجتماعات مؤثرة بقدر تأثير الطقوس الدينية. تعتبر الكنيسة الكاثوليكية وبقدر من الحكمة أن الإيمان يعبر عن فعل إيحاء جماعي أكثر من كونه إيماناً فردياً. تحدث المراسم الجماعية الدينية حالة من الإيمان. أن تفتح يديك للصلاة، وتركع، وتنشد تراتيل إيمان *علوية*، لأن الإيمان نفسي وجسدي وليس ظاهرة نفسية فقط. وصف إيدوارد غيبون تأثير مرسوم ثيودوسيوس الذي يحظر الطقوس الوثنية (*انحدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية، الفصل ٢٨*): «تفاني الشاعر أو الفيلسوف ربما يتغذّى سرياً على الصلاة والتأمل والدراسة؛ لكن يبدو أن تمرين العبادة العلنية هو الأساس المتين الوحيد للعاطفة الدينية للناس، والتي تستمد قوتها من المحاكاة والعادة. إن إعاقة هذا التمرين العلني ربما تحقق، في فترة سنوات عدة، العمل المهم لثورة وطنية. لا يمكن الحفاظ على ذكرى الآراء اللاهوتية طويلاً من دون المساعدة المهنية للكهنة والمعابد والكتب. العوام الجهلة، الذين عقولهم لا تزال تجيش بالآمال العمياء ورعب الخرافات، سوف يقومون سريعاً، وبإقناع من رفيعي المقام بينهم، بتوجيه نذرهم إلى الآلهة المعبودة في هذه الحقبة؛ وسوف يتشرّبون بشكل لا شعوري الحماسة المتوهجة لدعم وانتشار العقيدة الجديدة، التي يجبرهم الجوع الروحي في البداية على قبولها». تعلم الحزب هذا الدرس الحكيم من الكنيسة. يتعرض الناس الذين يحضرون إلى «النادي» إلى إيقاع جماعي، وهكذا يتوصّلون إلى التفكير بأنه من غير المعقول التفكير بشكل مختلف عن المجموع. يتألف هذا المجموع من وحدات مرتابة؛ ولكن بينما

هؤلاء الأفراد يتلفظون بالعبارات الشعائرية ويغنون الأغاني الشعائرية، فإنهم يخلقون هالة جماعية يستسلمون لها بدورهم. على الرغم من كونها تبدو أنها تخاطب العقل، فإن «النوادي» تأتي تحت عنوان السحر الجمعي. المنطقية في العقيدة مختلطة مع الشعوذة، والاثنان يقويان بعضهما. وتستبعد بالطبع المناقشات الحرة. إن كانت ادعاءات العقيدة صحيحة مثل حقيقة أن ٢ × ٢ = ٤ فإنه من غير اللائق تحمل رأي أن ٢×٢ = ٥.

منذ يومه الأول في المدرسة، يتلقى المواطن الشاب تعليماً معتمداً على هذه الحقيقة. هناك فرق كبير بين المدارس في الديمقراطيات الشعبية والمدارس في الغرب، على سبيل المثال المدارس التي داومت فيها أنا في بولندا ما قبل الحرب؛ كنا عرضة أنا وزملائي فيها إلى نظام مزدوج من القيم. علمتنا الرياضيات والفيزياء والعلوم القوانين العلمية، وغرست في أذهاننا الاحترام لوجهة النظر المادية الموروثة من القرن التاسع عشر. أما التاريخ والأدب فقد بدا أنهما يراوغان القوانين العلمية، في حين أن تاريخ الكنيسة الكاثوليكية وتعاليم اللاهوت المدافع عن العقيدة المسيحية ألقيا بظلال الشك، غالباً وبسذاجة، على ما كانت الفيزياء والعلوم تعلمنا. في الديمقراطيات الشعبية، توسعت النظرة المادية للقرن التاسع عشر بشكل مطرد لتشمل كل موضوع؛ التاريخ وكل فرع من الإبداع البشري قدمت على أنها محكومة بقوانين *معروفة مسبقاً* لا تتزعزع.

في القرن التاسع عشر، ومع ارتفاع عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة، شاعت الكتيبات التي تنشر النظريات العلمية. بغض النظر عن القيمة الفعلية لهذه النظريات، يجب أن نسلم أنها من اللحظة التي اتخذت فيها صيغة علنية منشورة فإنها أصبحت شيئاً مختلفاً عما كانت عليه كفرضيات لأبحاث علمية. على سبيل المثال، النسخة المبسطة والشعبية لنظرية داروين عن نشوء الأنواع والصراع من أجل البقاء ليست

بالمعنى ذاته بالنسبة لِ داروين ولمناهضيه الأكاديميين. اتخذت تلويناً عاطفياً، وتحولت إلى عنصر اجتماعي مهم. قادة القرن العشرين، مثل هتلر على سبيل المثال، استقوا معرفتهم من الكتيبات الشعبية، وهذا يوضح الاضطراب الفظيع لعقولهم. من الجلي أنه لا مكان في مثل هذه الخلاصات ولو لملاحظات متواضعة لعلماء حقيقيين يمكن أن يؤكدوا لنا أن القوانين المكتشفة افتراضية وغير مطلقة بحيث إنها مرتبطة بالطريقة التي تم اختيارها وبنظام الرموز المستخدم. ولدت المعرفة الشعبية المبسطة وعلى نحو مميز شعوراً بأن *كل شيء* على الإطلاق مشروح وقابل للفهم. إنها مثل نظام من الجسور مبني فوق صدوع عميقة. يمكن لنا السفر بجرأة فوق هذه الجسور، متجاهلين الصدوع. من المحرم النظر إلى الأسفل باتجاهها؛ لكن هذا للأسف لا يلغي حقيقة أنها موجودة.

في الماضي علّمنا علم الطبيعة أن الغابات عبارة عن تجمع للأشجار تحكمها بضعة قوانين بسيطة أولية. بدا كأنه إن قام أحدهم بقطع الغابة وزراعتها من جديد، فإنه بعد سنوات محددة سوف تظهر غابة جديدة مماثلة تماماً للأولى من جديد. واليوم نعرف أنه لا تجري الأمور هكذا؛ الغابة هي بنية عضوية حية تنهض من تفاعلات معقدة بين الطحالب والتربة والفطور والأشجار والأعشاب. في اللحظة التي يتم تدمير هذه الطحالب والفطور بالقطع من الغابة، فإن النموذج التكافلي الإحيائي يضطرب والغابة الجديدة ستكوّن بنية عضوية مختلفة بالمطلق عما يمكن أن يتوقع أحدهم من الجاهلين بعلم النبات. لا يملك الستالينيون معرفة بالشروط التي تحتاجها النباتات البشرية كي تنمو وتزدهر. بمنعهم أي أبحاث في هذا الاتجاه، لأن مثل هذه الدراسة تعارض التشدد الممارس، فإنهم منعوا الجنس البشري من إمكانية اكتساب معرفة كاملة بنفسه.

الديالكتيكية المادية، على النموذج الروسي، ليست أكثر من علم

القرن التاسع عشر مبسط إلى قوة من المرتبة الثانية. مكوناته التوجيهية والعاطفية قوية جداً إلى درجة أنها تغير كل النسب. على الرغم من أن النهج كان علمياً في منشئه، إلا أنه عندما يطبق على التخصصات الإنسانية فإنه غالباً ما يحولها إلى قصص تثقيفية مناسبة لضرورات الحاضر. إلا أنه لا مهرب ما إن يدخل الإنسان على تلك الجسور الملائمة. اختزلت قرون من التاريخ البشري، مع آلافها المؤلفة من الشؤون المعقدة، إلى بضعة مصطلحات معممة. بلا أدنى شك، يمكن للمرء الاقتراب أكثر من الحقيقة عندما يمكنه رؤية التاريخ كتعبير عن صراع الطبقات أكثر من كونه سلسلة من الشجارات الخاصة بين الملوك والنبلاء. لكن بالتحديد لأن مثل هذا التحليل للتاريخ يقترب من الحقيقة، فهو الأكثر خطورة. إنه يعطي وهم *المعرفة الكاملة*؛ ويقدم أجوبة عن كل الأسئلة، أجوبة لا تكاد تدور في حلقات تعيد تكرار بضع صيغ. والأكثر من ذلك، فإن العلوم الإنسانية اتصلت بالعلوم الطبيعية بفضل النظرة المادية (على سبيل المثال، في نظريات «المادة الأزلية»)، وهكذا نرى الحلقة تغلق بشكل كامل ومنطقي. وعندها، يصبح ستالين أعلى نقطة لتطور الحياة على كوكبنا.

ابن العامل، المعرض لمثل هذا التعليم، لن يمكنه التفكير بشكل مختلف عما تريده المدرسة. اثنان ضرب اثنان يساوي أربعة. الصحافة والمسرح والأفلام والرسم جميعها تفسر له ما تعلمه، تماماً مثلما تخدم حياة القديسين والشهداء في توضيح اللاهوت. سيكون من الخطأ الجزم بأن مجموعة مزدوجة من القيم لم تعد موجودة. ومع ذلك فإن المقاومة لمجموعة القيم الجديدة هي مقاومة عاطفية. لقد نجت، إلا أنها تهزم في كل مرة تحاول شرح نفسها بمصطلحات عقلانية. إن حياة الإنسان اللاواعية أو غير الواعية تماماً هي أغنى من معجم مفرداته. معارضته لهذه الفلسفة الجديدة في الحياة تشبه كثيراً ألم الأسنان. ليس فقط أنه لا

يستطيع التعبير عن هذه الألم بالكلمات، لكنه لا يمكنه أيضاً إخبارك أي سن تؤلمه بالضبط.

بفضل وسائل التبسيط الممتازة، فإن الناس غير الجاهزين (مثل هؤلاء الذين تعمل عقولهم بضعف) قد تم تعليمهم أن يفكروا. أقنعهم تدريبهم أن ما يحدث في الديمقراطيات الشعبية ضروري، حتى ولو كان سيئاً مؤقتاً. كلما زاد عدد الناس «المشاركين في الثقافة»؛ أي الذين اجتازوا المدرسة، ويقرؤون الكتب والمجلات، ويرتادون المسارح والمعارض، تصل العقيدة حداً أبعد وينخفض نمو التهديد بحكم الفلاسفة.

إلا أن بعض الناس، حتى ولو كانوا بتعليم كافٍ، يعقلون الأمور بشكل «سيئ». إنهم منيعون ضد تأثير الفلسفة الهيغيلية. لا يمكن تعليم الدجاجة السباحة؛ بالطريقة ذاتها تماماً، هؤلاء الذين ينتمون إلى المجموعات الاجتماعية المحكوم عليها بالاختفاء لا يمكن إقناعهم بحقيقة الدياليكيتك. وفقاً للحزب، إن كان هؤلاء الناس واعين تماماً لوضعهم، فإن عليهم الاعتراف أن لا أمل بالنسبة لهم. لذلك فهم يبحثون عن خدع عقلية. هؤلاء الناس أعداء. يجب دفعهم إلى أطراف المجتمع ليس بسبب ما يفعلونه، بل بسبب *ما هم عليه*. على الرغم من حقيقة أن نواياهم ربما تكون جيدة ذاتياً، إلا أن ذنبهم يحمل صفات موضوعية.

على الدياليكتيكيين معرفة عقلية الأعداء. وبعد دراستهم الإنسان الرجعي كنوع اجتماعي، أسسوا سمات محددة يمكن معرفته بها. جادلوا بأن الرجعي، وعلى الرغم من كونه إنساناً متعلماً، فإنه غير قادر على فهم معنى اعتماد الظواهر بعضها على بعض. ولذلك فإن مخيلته السياسية محدودة. أي شخص تلقّى تدريباً في علم الاجتماع يمكن له أن يستدل على سلسلة كاملة من البراهين حول الأسباب والنتائج لكل ظاهرة. مثل الجيولوجي الذي يدرس المستحاثات، يمكن له يحزر بنية كاملة من

مستحاثة واحدة. أره بيتاً شعرياً من أي بلد، أو صورة، أو حتى قطعة ملابس، وسوف يضعها مباشرة في مكانها المناسب في السياق التاريخي. ربما تكون سلسلة البراهين التي وضعها مزيفة؛ ومع ذلك فهو يرى كل شيء ضمن حقل حضارة بعينها كدلالة، وليس كحادث عرضي. الرجعي غير القادر على مثل هذا النوع من التفكير، يرى العالم كسلسلة من الحوادث المتوازية غير المرتبطة ببعضها.

وهكذا يرى هذا الرجعي أن النازية هي مجرد نتيجة لنشاط هتلر وزمرته؛ والحركات الثورية هي ثمرة مؤامرات موسكو، إلخ. تبدو له كل التغييرات التي تحصل في الديمقراطيات الشعبية أنها تصب في مسألة وجود قوة عظمى فقط؛ إن حصل أي حادث إعجازي وأدى إلى زوال هذه القوة، فإن كل شيء سوف يعود إلى «الوضع الطبيعي». إنه يشبه رجلاً غمرت حديقته مياه نهر هائج، ويتوقع أن يجد أحواض زهوره القديمة سليمة بعد انحسار المياه. إلا أن النهر الفائض ليس موجوداً فحسب، إنه يمزق ويجرف ضفافاً كاملة من التربة، ويسقط الأشجار، ويراكم طبقات من الوحل، ويقلب الحجارة، حتى تصبح الحديقة القديمة مجرد أمتار مربعة عدة من أرض غير معروفة الملامح. لا يمكن للرجعي فهم الحركة. حتى لغته نفسها ساكنة؛ ومفاهيمه غير متغيرة، لا تتجدد أبداً بالملاحظة. قام لوريل وهاردي ذات مرة بعمل فيلم حيث يكون فيه لوريل جندياً أمريكياً في الحرب العالمية الأولى، يتلقى أوامر بالبقاء في الخندق حيث موقع مدفعه في حين تبدأ السرية بالهجوم. بعد ذلك مباشرة تم توقيع اتفاق الهدنة، ونُسي في الفوضى الناتجة. وجدوه بعد عشرين سنة، وخندقه محاط بأكوام من العلب الفارغة. كان لا يزال في موقعه، يطلق النار على كل طائرة تجارية تحلق بالقرب منه. الرجعي مثل لوريل يعرف أن عليه إطلاق النار، ولا يمكنه إدراك أن الطائرة لم تعد كما كانت عندما أعطي الأوامر.

بغضّ النظر عن عدد الكتب التي قد يقرأها الرجعي حول النهج الديناميكيتي، فإنه لا يمكن له فهم جوهرها. ينقص عقله زنبرك ما. وكنتيجة لذلك لا يمكنه أن يقيم بشكل جيد السيكولوجيا البشرية. يعمل الديناميكتيكيون على افتراض أساسي أن الحياة العقلية والعاطفية للإنسان في حركة مستمرة، وأنه من غير المنطقي معاملة الأفراد على أنهم يحتفظون باستقرار معين وبشخصية فطرية في كل الظروف. يدركون أنهم بتغييرهم الظروف المعيشية فهم يغيرون قناعات الناس وردود أفعالهم. يُدهش الرجعي من التغيير الذي يتحمّله الناس. يفسر بارتباك تحول أصدقائه التدريجي باتجاه النظام كـ «انتهازية»، أو «جبن»، أو «خيانة». يشعر بالضياع من دون مثل هذه المصطلحات. وباستخدام مبدأ «إما ـ أو» يحاول تقسيم الناس حوله إلى «شيوعي» و«غير شيوعي»؛ إلا أن مثل هذا التفريق يفقد كل معناه في الديمقراطيات الشعبية. وحيث تشكل الديالكتيكية الحياة فإن كل من يحاول أن يلجأ إلى منطق العالم القديم لا بد أن يشعر أنه خارج عمقه تماماً.

مثل هذه المصيبة تصيب الرجعي دائماً. يهرب المحتوى فجأة من مفهومه، وكل ما يتبقى لديه كلمات وعبارات فارغة. أصدقاؤه، الذين كانوا يستخدمون هذه الكلمات والعبارات بولع منذ أقل من سنة، قد نبذوها الآن باعتبارها شديدة العمومية، وغير واضحة بشكل جيد، وشديدة البعد عن الواقع. يكرر بيأس كلمات مثل «الشرف» و«الوطن» و«الأمة» و«الحرية» من دون أن يدرك أنه بالنسبة لأناس يعيشون في وضع متغير (ومتغير يومياً) فإن مثل هذه الأفكار التجريدية تأخذ معاني معينة مختلفة تماماً عما قبل.

ولأن الديالكتيكيين قد عرّفوا الرجعي بهذا الشكل، فإنه بنظرهم وضيع عقلياً، ولذلك فهو ليس مخلوقاً خطيراً جداً. هو ليس نداً لهم. ما إن تتم تصفية طبقة الملاك، فإن الإنتيليجينسيا القديمة (التي كانت رجعية

ضمن هذه الشروط) يمكن أخذها إلى الجحيم من دون صعوبة كبيرة، عبر ممثليها الأكثر قوة ونشاطاً إلى موقع إيديولوجي جديد، بينما تخلف الآخرون أكثر فأكثر خلف التحول الجاري من حولهم وهكذا فقد كانوا يغوصون إلى الأسفل اجتماعياً وعقلياً.

لم تعد الإنتيليجينسيا الجديدة والقديمة تتكلم لغة مشتركة. النزعات الرجعية موجودة عند الفلاحين والبرجوازية الصغيرة السابقة، لكنها مضمرة. يتم تعليم الجماهير بواسطة ظروف حياتهم الجديدة، وهكذا فهم غير متواصلين، وكل شهر تتزايد المسافة العقلية بينهم وبين برنامج الرجعيين. يسهّل السياسيون الذين تركوا أوطانهم عمل الحكومة بدرجة كبيرة. تسعون بالمائة منهم رجعيون وفقاً للتعريف السابق. مناشداتهم وأحاديثهم الإذاعية تشبه تسديد لوريل المسكين الرصاص على الطائرات. مستمعوهم ليسوا مستائين من سماعهم يسبّون الحكومة التي لا يحبونها هم أيضاً؛ ومع ذلك لا يمكنهم التعامل مع خططهم بجدية. التناقض جلي جداً بين كلمات هؤلاء السياسيين المفضلة والوضع الواقعي؛ تفوق الديالكتيكيين، الذين يكيفون منطقهم دائماً مع الواقع، بديهي جداً. يخسر الرجعيون دائماً في مثل تلك المقارنة؛ يشوب الحكم الغريزي الشعبي شيء ما يشبه الإحراج، مع الخجل بأن هؤلاء الذين يعارضون الديكتاتورية لا يمكن لهم الارتقاء عقلياً إلى مكانتها. ولأن الإنسان يستشعر الضعف غريزياً، يقاوم الناس الإصطفاف إلى جانب الرجعيين. وهكذا يصبح الشعور بالقدرية أكثر قوة.

وهكذا فإن التحكم في عقول الجماهير لا يشكل تهديداً خطيراً. إن طاقة المثقف، أينما ظهرت، يمكن أن تجد متنفساً وحيداً فقط. إنها مسألة مختلفة، مع ذلك، عندما يأخذ المرء بعين الاعتبار الحياة العاطفية للجماهير والكراهية المريعة التي تتحكم بها. لا يمكن تفسير هذه الكراهية على أرضية اقتصادية صرفة. يستشعر الحزب أنه في هذا

المجال، حيث دُرست الماركسية بشكل أقل من المجالات الأخرى، تكمن المفاجآت والتهديدات الحقيقية.

وفوق كل شيء، هناك نجد التساؤل حول الدين. هذه المشكلة لا تزال مستمرة على الرغم من العديد من نقاط الضعف في المسيحية التي يمكن مهاجمتها بسهولة. ليس من دون سبب دافعت الكنيسة الكاثوليكية عن البنية القروسطية ضد الرأسمالية الوليدة خلال حركة الإصلاح الديني. خلقت الرأسمالية تفكيراً علمياً ووجهت ضربة قوية للدين في أوروبا عن طريق إزالة أفضل العقول من سجن اللاهوت. يكشف العلم الحديث مقدار سرعة ويسر انتشار الأفكار التي كانت سابقاً حكراً على القلة المثقفة؛ لاكتشاف ما هي الخطوط التي سيطوّرها المجتمع، من المفيد أحياناً تتبع الاتجاه السائد في تفكير عدد قليل من الناس يتمتعون ببصيرة وحساسية عالية. ما هو الظاهر في لحظة معينة، مثال: يفسح الأسلوب الأدبي المجال لعناصر جديدة، مع ذلك فهو قد يستمر بالبقاء فترة زمنية طويلة على المستوى الثاني أو الثالث. (نهضة الكنيسة ممكنة بالتأكيد) هذا ما حدث للاهوت في أوروبا. خسرت الكنيسة مركزها الأعلى عندما، وخلال الثورة الصناعية، خسرت المثقفين وفشلت في اكتساب الطبقة الجديدة من العمال. وهاتان هما المجموعتان اللتان يوليهما الحزب الأهمية الكبرى. اليوم، تنمو الحياة الثقافية للمسيحية على الهوامش الخارجية للكنيسة، في حلقات صغيرة تحاول أن توائم الفلسفة المسيحية مع الاحتياجات الجديدة للقرن.

ومع ذلك فإن الاحتياجات الدينية ما تزال باقية في الجماهير وسيكون من الخطأ، من وجهة نظر الحزب، إنكارها. ربما ستختفي عندما يتحول كامل السكان إلى عمال؛ لكن لا يعرف أحد متى سيحصل هذا. نحن نتعامل هنا مع عناصر غير قابلة للقياس. غامضة حقاً تلك الغريزة التي تجعل الإنسان يتمرد ضد تفسير منطقي لكل الظواهر. إن درع المسيحية

رقيق جداً في القرن العشرين، إن صبياً في المدرسة يعمّد بعمق في الطريقة الجديدة من التفكير، ومع ذلك فإن منطقة الظلال تراوغ ضوء العقل. نتعثر فجأة بلغز. البروفيسور بافلوف، الذي وضع نظرية ردود الأفعال الشرطية، كان رجلاً متدنياً جداً. لم تسبب موسكو له أية مشكلة حول هذا الأمر لأنه كان عالماً بارزاً ولأنه كان عجوزاً. مبدع نظرية ردود الأفعال الشرطية ـ النظرية بذاتها التي تشكل واحدة من أقوى الحجج ضد وجود نوع من الثبات يسمى «الطبيعة البشرية» ـ والمدافعون عن الدين قدموا البرهان على أن هذه «الطبيعة البشرية» لا يمكن أن تتغير كلياً؛ وأن الآلهة والكنائس موجودة منذ آلاف السنين في كل أنواع الحضارات، ولذلك يمكن أن نتوقع أن يبقى هذا الأمر صحيحاً في المستقبل كذلك. ما الذي كان يجري في رأس البروفيسور بافلوف بما أن نظامين من المفاهيم، أحدهما ديني والآخر علمي، موجودان معاً هناك؟

يعلّم الحزب أن «الوجود يشكل الوعي»، وأن الظروف تحسن الإنسان. ولكن يقلل من أهمية إن كانت الدوافع الدينية هي ناتجة عن «الطبيعة البشرية» أو عن قرون من التكيف؛ لا شك أنها موجودة. خلال الحرب ضد هتلر، كان على الاتحاد السوفيتي أن ينفض الغبار عن كهنته بالإضافة إلى مناشدة المشاعر القومية. عندما يجلب الموت الوشيك تلك اللحظة من الوحي السخيف بأن *كل شيء لا معنى له*، وتكشف المادية الديالكتيكية فجأة عن بنيتها الحسابية. يسقط الإنسان من على الجسور المبنية بعناية. ويفضل الاستسلام إلى سحر الأيقونات.

يمكن اعتبار الحزب كنيسة أيضاً، على طريقته الخاصة. ديكتاتوريته على الأرض وتغييره للكائنات البشرية يعتمد على النجاح في توجيه المحركات البشرية اللاعقلانية واستخدامها لغاياته الخاصة. لا، إن الجدال المنطقي غير كافٍ. احتفالات «النادي» والشعر والروايات والأفلام كلها مهمة جداً لأنها تصل إلى أماكن أعمق في الطبقة التي تمور

فيها الصراعات العاطفية. لا يمكن التسامح مع أية كنيسة أخرى؛ المسيحية هي عدو الشعب رقم ١. إنها تعزز كل شكوك الجماهير في التغيير الجذري للبشرية. لو أننا، وكما يعلمنا الإنجيل، يجب علينا أن لا نؤذي الآخرين، إذاً ربما يجب علينا ألا نؤذي الكولاك؟ إن كان المجد الأعلى لا يخص الإنسان، ربما إذاً تكون عبادة لينين أو ستالين ضرباً من الوثنية؟

عرفت كثيراً من المسيحيين؛ بولنديين وفرنسيين وإسبان، والذين كانوا ستالينيين متشددين في حقل السياسة، لكنهم يحتفظون بتحفظات داخلية معينة، مؤمنين أن الرب سوف يقوم بتصحيح الأوضاع ما إن ينتهي الحكم الدموي لكل الجبابرة في التاريخ. وقد دفعوا أسبابهم إلى مسافة أبعد قليلاً. جادلوا أن التاريخ يتطور تبعاً لقوانين ثابتة لا تتغير موجودة بإرادة الرب؛ أحد هذه القوانين هو صراع الطبقات؛ ميز القرن العشرين انتصار البروليتاريا، التي قاد الحزب الشيوعي كفاحها، أنجز ستالين، قائد الحزب الشيوعي، قانون التاريخ، أو بكلمات أخرى تصرف بإرادة الرب؛ ولذلك علينا إطاعته. يمكن تجديد الجنس البشري على النموذج الروسي فقط؛ لهذا السبب لا يمكن لأي مسيحي أن يعارض الفكرة ـ القاسية لا شك ـ التي سوف تخلق نوعاً جديداً من الإنسان على كامل الكرة الأرضية. غالباً ما يستخدم هذا المنطق من قبل الإكليروس الذين هم أدوات للحزب. «المسيح هو الإنسان الجديد. الإنسان الجديد هو الإنسان السوفيتي. لذلك فإن المسيح هو الإنسان السوفيتي!» هذا ما قاله جوستنيان مارينا، بطريرك رومانيا.

في الواقع، مثل هؤلاء المسيحيين (حتى الرجال المنسيون مثل مارينا) يخلدون واحدة من أكبر الكذبات في كل القرون. إنهم يتخلون عن إيمانهم إلا أنهم يخجلون من الاعتراف بذلك. التناقض بين الفلسفة المسيحية والستالينية لا يمكن تذليله. تقوم المسيحية على مفهوم الفضيلة

أو الذنب *الفردي*؛ في حين يقوم **الإيمان الجديد** على الفضيلة أو الذنب *التاريخي*. المسيحي الذي يرفض الفضيلة والذنب الفردي ينكر عمل المسيح، والرب الذي يدعوه، من خلال تغيير نفسه تدريجياً ليصبح 'التاريخ'. إن اعترف أن الفضيلة والذنب الفردي هما الموجودان، فكيف يمكن له أن ينظر بلا اكتراث إلى معاناة الشعب الذي خطيئته الوحيدة أنه سد مجرى «التطور التاريخي»؟ لتسكين ضميره فإنه يلجأ إلى فرضية أن الرجعي لا يمكن أن يكون إنساناً جيداً.

من هو الرجعي؟ كل شخص يعارض التطور التاريخي المحتوم، أي: شرطة المكتب السياسي. تمت مناقشة فرضية «خطيئة الرجعي» بدرجة عالية من الذكاء: كل تصور هو «موجّه»، أي: في اللحظة ذاتها من الملاحظة نضع أفكارنا موضع التطبيق في مادة ملاحظاتنا؛ وحده من يرى الواقعية بشكل حقيقي هو من يقيّمها في ميزان مصلحة الطبقة التي هي رافعة المستقبل، أي البروليتاريا. تعلمنا كتابات لينين وستالين ما هي مصالح البروليتاريا. كل من يرى الواقع بطريقة تختلف عما تراه البروليتاريا فهو زائف؛ بكلمات أخرى، الصورة التي يراها عن الواقع مشوّهة بسبب ضغط مصالح الطبقات المتخلفة، والتي مصيرها الزوال. كل من يرى العالم بشكل زائف فإنه بالضرورة يتصرف بشكل سيئ؛ وكل من يتصرف بشكل سيئ هو إنسان سيئ؛ ولذلك فإن الرجعي هو إنسان سيئ، وليس علينا أن نشعر بالأسف عليه.

هذه السلسلة من الحجج المنطقية تحوي على الأقل عيباً واحداً؛ إنها تتجاهل الحقائق. إن ضغط الدولة الديكتاتورية الممتلكة لكل السلطة يخلق توتراً عاطفياً في مواطنيها يقرر تصرفاتهم. عندما يقسم الناس بين «موالين» و«مجرمين» فإن نوعاً من جائزة توضع على كل نوع من الملتزمين والجبناء والأذلاء؛ في حين أنه بين «المجرمين» يمكن للمرء أن يجد نسبة عالية متفردة من الناس الذين هم مستقيمون ومخلصون

وصادقون مع أنفسهم. من وجهة نظر اجتماعية فإن هؤلاء الناس سوف يشكلون أفضل ضمانة بأن التطور المستقبلي للكائن الاجتماعي سوف يكون باتجاه الخير. من وجهة نظر مسيحية فإنهم لا يحملون خطيئة على ضمائرهم ما عدا ازدراء القيصر، أو تقييمهم غير الصائب لقوته.

الإصرار على أن الذنب التاريخي هو ذنب فردي *بحد ذاته* هو خدعة لا أكثر يقوم بها ضمير مذنب وكاذب. هذا الأمر لا يعني أنه يمكن تجنّب مشكلة الذنب التاريخي بتعميمات سهلة. الغباء، أي عدم القدرة على فهم آلية الأحداث، يمكن أن يسبب معاناة هائلة. بهذا المعنى فإن القادة البولنديين الذين أعطوا الأوامر ببدء انتفاضة وارسو في عام ١٩٤٤ هم مذنبون بجريمة الغباء، ولذنبهم طبيعة فردية. ومع ذلك فإن ذنباً فردياً آخر يقع على عاتق قائد الجيش الأحمر الذي رفض تقديم العون للمتمردين؛ ليس بجريمة الغباء، بل على العكس نتيجة لإدراك كامل لِ «العملية التاريخية»، أي: تقييم صحيح للقوة.

مثال آخر عن الذنب من خلال الغباء هو تصرف مجتمعات مختلفة تجاه المفكرين والكتاب والفنانين الذين وصلت رؤيتهم إلى المستقبل، والذين كانت أعمالهم غامضة إلى درجة كبيرة لمعاصريهم. الناقد الذي أنكر قيمة هذه الأعمال ربما كان يتصرف منطلقاً من إيمان جيد، لكن بسبب غبائه فقد حكم على أشخاص أعلى قيمة منه بشكل لا يقاس بالفقر وحتى الاضطهاد. الحيلة الخاصة لِ الستالينية ـ المسيحية هي في جمع هذين المفهومين للذنب، الفردي والتاريخي، معاً في فئة واحدة، في حين أن هذين المفهومين يتوافقان في أمثلة قليلة فقط.

خسر الكاثوليك الذين قبلوا خط الحزب تدريجياً كل شيء ما عدا اللغة المميزة للميتافيزيقيا المسيحية. أصبحت الحقيقة المحتواة في إيمانهم هي النهج بواسطة عملية نفسية معروفة جيداً للمسيحيين في

الديمقراطيات الشعبية. إن وجود أعداد كبيرة من أنصاف المسيحيين المخلصين في القسم المستعبد من أوروبا يمكن أن يكون له تأثير هائل على الخطط السياسية لِـ الإمبراطورية. التسامح بل والدعم لهؤلاء «المواطنين المسيحيين»، كما صاروا يسمون، يمكن المركز من تجنب صراع خطير. الانتقال من المسيحية إلى طائفة من التاريخ يجري بشكل تدريجي غير محسوس. إن النجاح الأعظم لِـ الإمبراطورية سوف يحصل دون أدنى شك إن استطاعت أن تضع بابا موالياً لخط الحزب في الفاتيكان. حشود جماهيرية في بازيليكا سانت بطرس في روما يشكلها بابا من هذا النوع، مع مساعدة الشخصيات رفيعة المقام من تلك الدول المستعبدة التي هي كاثوليكية في العموم، سيكون إحدى أهم الخطوات تجاه توحيد إمبراطورية العالم.

المسيحيون الذين يخدمون الإمبراطورية الشرقية حلّوا بمهارة المعضلة التي طرحتها كلمات المسيح «أعطِ ما لقيصر لقيصر، وما للرب للرب». حتى الآن لم يكن قد محي التفاوت بين الرجل العادي والقيصر. أكدت المسيحية على هذا الانقسام عن طريق تعليمها أنه لكل إنسان تاريخه الخاص، مستقلاً عن تاريخ المجموعة الاجتماعية أو الأمة التي ينتمي إليها. إن كان، وكما يجري التعليم الآن من الإلب[1] إلى فلاديفوستك[2]، تاريخ كل إنسان لا أكثر من انعكاس لتاريخ طبقته، وإن كانت طبقته مجسدة في القيصر، فإنه من الجلي إذاً أن الإنسان الذي يتمرد ضد القيصر فإنه يتمرد ضد نفسه. يثبت المسيحيون الذين يوافقون على هذه الفرضية أنهم لم يعودوا مؤمنين بحكم الرب على أفعال كل إنسان. يدفعهم الخوف من أن يلعنهم التاريخ إلى الأبد إلى الخضوع.

---

(١) نهر في شمال التشيك. (م)

(٢) مدينة في شرق روسيا. (م)

يعرف الحزب أن الصراع بين المسيحية الحقيقية والثورة جوهري. تستهدف الثورة الهدف الأسمى الذي وضعه الجنس البشري لنفسه منذ وجوده على الأرض، إنهاء «استغلال الإنسان للإنسان». ولتحقيق ذلك، يجب استبدال رغبة الإنسان في الربح بشعور بتحمل المسؤولية الجماعية كدافع للعمل. إنه هدف بعيد ومحترم. وعلى الأغلب أنه لن يتم الوصول إليه بسرعة؛ وربما أيضاً سيكون ضرورياً لفترة طويلة الإبقاء على إرهاب مستمر من أجل غرس هذا الشعور بالمسؤولية بالقوة. لكن المسيحية تحتوي على مجموعة مزدوجة من القيم؛ إنها تعرف الإنسان بأنه «ابن الرب» وكذلك عضو في المجتمع. وعليه كعضو في المجتمع أن يخضع إلى الأوامر المقررة طالما أنها لا تعيقه في مهمته الأساسية في الحفاظ على روحه. عن طريق طمس هذه الازدواجية فقط، أي الارتقاء بالإنسان ككائن اجتماعي صرف، يمكن للحزب إطلاق قوى الكراهية فيه الضرورية في تحقيق العالم الجديد.

إن الشعوب في الدول عالية التصنيع مثل إنكلترا والولايات المتحدة وفرنسا هي بغالبيتها غير مسيحية. التكنولوجيا وأسلوب الحياة الذي تنتجه يقوضان المسيحية بشكل أكثر فعالية من الأساليب العنفية. تعرية المعتقدات الدينية تجري أيضاً في أوروبا الوسطى والشرقية. جوهر المشكلة هناك هو تجنب تحفيز القوى المسيحية بسبب زلة ما. سوف يكون فعل إهمال غير مغتفر، على سبيل المثال: إغلاق الكنائس فجأة وحظر كل الممارسات الدينية. بدلاً عن ذلك، يمكن محاولة شق الكنيسة إلى جزأين؛ جزء من الإكليروس يجب الوصول إلى تسوية معه كرجعيين و«عملاء أجانب» ـ مهمة سهلة للغاية، بالنظر إلى العقلية المحافظة كلياً للعديد من القساوسة. الجزء الآخر يجب ربطه بالدولة بشكل وثيق تماماً مثل الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، وبهذه الطريقة تصبح أداة للحكومة. إن كنيسة مطيعة بشكل تام ـ تلك التي من الممكن أن تتعاون أحياناً مع

البوليس السري ـ تفقد السلطة في أعين الأتقياء. مثل هذه الكنيسة يمكن أن تستمر لعقود، حتى يأتي الوقت الذي تموت فيه موتاً طبيعياً بسبب النقص المستمر في عدد أنصارها.

وهكذا نجد أن هناك إجراءات يمكن اتخاذها حتى ضد الكنيسة، هذه القلعة الأخيرة القوية للمعارضة. ومع ذلك فإن الجماهير في الديمقراطيات الشعبية تتصرف مثل الإنسان الذي يحاول الصراخ في الحلم لكنه لا يتمكن من إيجاد صوته، ليس أنهم لا يجرؤون على الكلام فقط، بل إنهم لا يعرفون *ماذا* يجب أن يقال. منطقياً، كل شيء كما ينبغي أن يكون، من المنطلقات الفلسفية، إلى تعاونيات المزارع، كل شيء يشكل كلاً مغلقاً واحداً، هرماً متماسكاً ومهيباً. يتساءل الفرد لا محالة إن كانت عداوته ليست خاطئة؛ كل ما يمكنه معارضته لجهاز البروباغاندا بأكمله هو ببساطة رغباته غير المنطقية. أليس عليه في الواقع أن يخجل من نفسه؟

يقوم الحزب بمراقبة يقظة حتى لا تتحول تلك الرغبات إلى أشكال ثقافية جديدة وعدائية تتأقلم مع الظروف الجديدة وتكون بذلك قادرة على الفوز بالجماهير. لا تشكل الرجعية ولا الكنيسة خطراً كبيراً مثلما تفعل *البدعة*. إن كان هناك من الناس من يعرف الديالكتيكية وعندهم القدرة على تقديم المادية الديالكتيكية وإظهارها في ضوء جديد، فلا بد من إبطال مفعول ذلك في الحال. أستاذ الفلسفة الذي يتشبث بمفاهيم «مثالية» عفا عليها الزمن لا يشكل خطراً بالضرورة. قد يفقد وظيفته في التدريس إلا أنه يمكنه كسب عيشه عن طريق العمل في تدقيق النصوص، أو غيره. في حين أن الأستاذ الذي يسمح لنفسه، وعن طريق استخدام اسمي ماركس وإنغلز، بالابتعاد عن الصرامة فإنه يبذر البذور التي يمكن أن تنمو منها محاصيل تهدد بالخطر.

وحدهم القساوسة البرجوازيون يفكرون أنه لن ينتج أي شيء من

تلك الفروق الدقيقة في الأفكار. يدرك الحزب الكم الكبير الذي يأتي منها: هناك وقت كانت فيه الثورة مجرد فروق بسيطة في التفكير لمجموعة صغيرة من المنظرين يقودهم لينين، يجتمعون حول طاولة مقهى في سويسرا. أهم النقاط العصبية للديكتاتورية هي الفلسفة والأدب وتاريخ الفن والنقد الأدبي؛ هذه هي النقاط التي يدخل فيها الإنسان بتعقيداته غير السارة إلى المعادلة. الفرق في شذرة ضئيلة في المنطلقات سوف يؤدي إلى فروقات مخلة بالتوازن بعد إنهاء الحسابات. الانحراف عن الخط في تقييم بعض الأعمال الفنية من الممكن أن يشكل خميرة لاضطرابات سياسية. دان الحزب عن حق ومنطق الباحث الأدبي الماركسي الأول في القرن العشرين، البروفيسور الهنغاري لوكاس. هناك أسباب عميقة مخفية تكمن في الحماسة التي أثارتها أعماله لدى الماركسيين في الديمقراطيات الشعبية. لقد رأوا فيه نذيراً لفلسفة جديدة وأدب جديد. عدم حبه لِ «الواقعية الاشتراكية» الذي أظهره يتوافق مع الاعتقاد الشائع في السنوات الأولى بعد الحرب العالمية الثانية، بأنه في الديمقراطيات الشعبية فإن علم ماركس وأنغلز سوف يفجر مسارات جديدة، غير معروفة في روسيا. ولأن لوكاس عبّر عن هذه القناعة في كتبه فإنه لم يكن لدى الحزب من خيار سوى التنديد به.

عندما يزن المرء الأمور منطقياً، يصبح من البديهي أن إرهاب المثقف هو مبدأ لا يمكن لِ اللينينية ـ الستالينية إهماله، حتى إذا كان ينبغي تحقيق النصر على مقياس عالمي. العدو، في صيغته المحتملة، سيكون *دائماً* هناك؛ الصديق الوحيد سيكون الإنسان الذي يقبل العقيدة ١٠٠ في المائة. إن قبل فقط ٩٩ بالمائة، فإنه بالضرورة يجب اعتباره عدواً، لأنه من تلك الـ ١ بالمائة المتبقية يمكن لكتيسة جديدة أن تظهر. التفسير الذي يقدمه الستالينيون غالباً هو أن ذلك عبارة عن *مرحلة* ناتجة عن «التطويق الرأسمالي»، وهو تناقض ذاتي. إن مصطلح *مرحلة* يقتضي

ضمناً تخطيطاً من الأعلى، وسيطرة تامة الآن ودائماً. الحكام الشرقيون على دراية بهذا التناقض. لو لم يكونوا كذلك، لما اضطروا إلى تقديم مشاركة إجبارية في النوادي والمواكب، وتصويت إجباري للائحة واحدة، ورفع إجباري لمعايير الإنتاج، إلخ. كأنها أفعال عفوية وطوعية. هذه نقطة سوداء غير سارة حتى لأكثر المؤمنين شغفاً.

هذه الطريقة في طرح المشكلة تكشف عن جنون العقائد. يدرك ديالكتيكيو الحزب أن محاولات مشابهة من قبل متشددين آخرين فشلت على الدوام. في الحقيقة، فإن التاريخ نفسه قد نسف الصيغ التي كانت تعتبر ملزمة واحدة بعد الأخرى. ولكن هذه المرة فإن الحكام قد تمرسوا بالديالكتيكية ولذلك، وكما يجزمون، فإنهم سوف يعلمون كيف يعدّلون العقيدة كلما انبثقت ضرورات إضافية. الأحكام الصادرة عن إنسان بمفرده من الممكن دائماً أن تكون على خطأ؛ الحل الوحيد يكون بالخضوع بغير تحفظ للسلطة التي تدعي أنها معصومة.

لكن ماذا بإمكان العقيدة أن تفعل إزاء رغبات الناس التي يصعب التعبير عنها في صيغ معينة؟ لماذا يقوم الشيوعي الجيد، بدون أي سبب ظاهر، بتصويب مسدس إلى رأسه فجأة؟ لماذا يهرب خارج البلاد؟ أليست هذه أحد الصدوع التي تعبر فوقها الجسور المشيدة علمياً؟ يعطي الناس الذين يهربون من الديمقراطيات الشعبية عادة الدافع الرئيس لعملهم بأن الحياة في تلك الدول غير محتملة على الصعيد الروحي. يحاولون شرح جهودهم متعثرين بالكلام: «الحزن الرهيب في الحياة هناك»؛ «شعرت أنني أتحول إلى آلة». من المستحيل إيصال ذلك إلى الناس الذين لم يختبروا الخطر الذي لا حدود له للعقلانية الكلية.

لإحباط الشك، يحارب الحزب أي نزعة للخوض في أعماق الوجود البشري، وخصوصاً في الفن والأدب. كل ما ينعكس على «الإنسان» بشكل عام، في حاجاته الداخلية وأشواقه، يتهم بالعاطفية البرجوازية. لا

شيء أبداً يجب أن يذهب أبعد من وصف سلوك الإنسان كعضو في مجموعة اجتماعية. هذا الأمر ضروري لأن الحزب، في معاملته للإنسان حصرياً على أنه منتج جانبي للقوى الاجتماعية، يؤمن أنه أصبح ذلك النوع من الوجود الذي تصوّره لنفسه. إنه قرد اجتماعي *.ما لا يتم التعبير عنه فهو غير موجود*. ولذلك فإن تم منع البشر من استكشاف أغوار الطبيعة البشرية، فإنه يتم تدمير الدافع بداخلهم للقيام بمثل هذه الاستكشافات؛ وتصبح هذه الأغوار نفسها تدريجياً غير حقيقية.

أحب أن أوضح مسبقاً سوء تفاهم محتمل. أنا لا أميل شخصياً إلى الفن الذاتي جداً. كان شعري دائماً وسيلة للتدقيق في نفسي. يمكنني من خلاله أن أتحقق من الحد الذي ما بعده يصبح الزيف في الأسلوب يشهد على زيف موقف الفنان؛ وقد حاولت ألا أتجاوز هذا الخط. علمتني سنوات الحرب أنه على الإنسان ألا يمسك القلم بيده لمجرد أن يوصل إلى الآخرين يأسه الخاص أو هزيمته. هذه بضاعة رخيصة للغاية؛ إنها تتطلب جهداً بسيطاً لإنتاجها لا يكفي كي يفخر الإنسان بنفسه أنه فعلها. من رأى، كما فعل العديد، مدينة بأكملها تتحول إلى أنقاض ـ كيلومترات من الشوارع لم يتبق فيها أي أثر للحياة، ولا حتى قطة، ولا حتى كلب شارد ـ ثم يظهر وصف جحيم المدينة الكبيرة بدل ذلك بموقف ساخر بواسطة شعراء آنيين، كوصف الجحيم في أرواحهم هم. «الأرض اليباب»[1] الحقيقية هي أكثر رعباً من أي واحدة متخيلة. أي شخص لم يسكن في وسط الرعب والفزع لا يمكنه أن يعرف مقدار قوة احتجاج الشاهد أو المشارك ضد نفسه، وضد إهماله وأنانيته. الدمار والمعاناة هما مدرسة الأفكار الاجتماعية.

ومع ذلك، لو أن أدب الواقعية الاشتراكية فيه أية فائدة، فهي فائدة

---

(١) قصيدة شهيرة للشاعر تي إس إليوت. (م)

للحزب فقط. إنه من المفترض أن يقدم الواقع لا كما *يراه* الإنسان (هذه كانت نوعية الواقعية السابقة، التي كانت تدعى «النقدية»)، بل كما *يفهمه*. مع الإدراك بأن الواقعية متحركة، وأنه في كل ظاهرة ما يولد وما يموت يوجد في الوقت نفسه ـ بالحديث بدياليكتيكية، فإن هذه معركة بين «الجديد» و«القديم» ـ فعلى الكاتب تمجيد كل شيء ناشئ واستنكار كل شيء صار من الماضي. في الممارسة، هذا يعني أنه على الكاتب أن يميز عناصر صراع الطبقات في كل ظاهرة. وبأخذ هذا المنطق أبعد، فإن العقيدة تجبر كل أنواع الفن أن تصبح تعليمية. بما أن الستالينية *وحدها* لها حق تمثيل البروليتاريا، وهي الطبقة الصاعدة، لذلك فكل ما هو «جديد»، وهو بالتالي يستحق الإطراء، ناتج عن استراتيجيات وتكتيك الحزب. تعتمد «الواقعية الاشتراكية» على تطابق «الجديد» مع البروليتاريا والبروليتاريا مع الحزب. إنها تقدم المواطن النموذج، أي الشيوعي، والأعداء الطبقيين. وبين هاتين الفئتين يأتي البشر المتأرجحون. في النهاية، يجب عليهم ـ وفقاً لأي ميل يكون الأقوى بداخلهم ـ الهبوط في هذا المعسكر أو ذاك. عندما لا يتعامل الأدب مع شخصيات مسبقة الصنع للأصدقاء والأعداء، فإنه يدرس عملية التحول التي يصل فيها البشر إلى الخلاص الكلي أو الإدانة المطلقة وفق مصطلحات الحزب.

هذه الطريقة في معاملة الأدب (وكل فن) تقود إلى الانسياق المطلق. هل مثل هذا الانسياق مفضل لدى الأعمال الفنية الجادة؟ من المشكوك فيه أن يكون كذلك. إن تماثيل مايكل أنجلو هي أعمال تامة صمدت عبر الزمن. كان هناك زمن لم تكن فيها هذه الأعمال موجودة. ما بين عدم وجودها ووجودها يكمن العمل الإبداعي، الذي لا يمكن فهمه على أنه رضوخ لِـ «موجة المستقبل»[1]. يرتبط الفن مع الشعور بالحرية والذي

(١) عنوان لعمل قصير للكاتبة الأمريكية أن مورو صدر عام ١٩٤٠ تدعو فيه إلى تجنب=

بدوره يولد من الكفاح ضد مقاومة تبدو غير مرئية. من يبدع حقاً هو وحيد. وعندما ينجح في الإبداع، يظهر العديد من الأتباع والمقلدين؛ وعندها يبدو بأن عمله وكأنه يؤكد وجود نوع من «موجة التاريخ». الإنسان المبدع لا يملك الخيار إلا أن يثق بقيادته الداخلية وأن يضع أي شيء على المحك من أجل أن يعبر عن ما يبدو له أنه الحقيقة. هذه القيادة الداخلية لا معنى لها إن لم تدعم بإيمان بنظام من القيم يوجد خارج القابلية للتغيير للشؤون الإنسانية، وهذا يعني بواسطة إيمان غيبي. هنا تكمن مأساة القرن العشرين. اليوم، فقط أولئك الناس الذين يمكن أن يبدعوا هم الذين يملكون هذا الإيمان (من بينهم عدد معين من الستالينيين الذين يمارسون التقية)، أو الذين يشغلون منصباً بطبيعة دنيوية علمية (والتي هي في النهاية ربما نوع آخر من الإيمان). وبالنسبة إلى البقية تتبقى لهم الكذبة المؤلمة لمكان آمن في «موجة المستقبل».

هذا هو إطار العمل الذي تتطور فيه حياة الناس في الديمقراطيات الشعبية؛ لكنها حياة تتحرك على إيقاع محموم. «البناء الاشتراكي» ليس مجرد شعار؛ إنه يؤخذ بالمعنى الحرفي تماماً. تلاقي عين المراقب سقالات في كل مكان؛ ومصانع جديدة ومكاتب ومباني حكومية تظهر تقريباً بين عشية وضحاها؛ ترتفع الخطوط البيانية للإنتاج؛ تتغير شخصية الجماهير بسرعة لم يسمع عنها من قبل؛ يتزايد كثيراً عدد الأشخاص الذين يصبحون موظفي دولة ويتطلبون حداً أدنى من «التعليم السياسي». الصحافة والأدب والأفلام والمسرحيات كلها تمجد هذه الإنجازات. لو

---

=أمريكا الحرب في أوروبا وعقد اتفاقية مع هتلر لأن الفاشية (أو الشيوعية هنا)، على مساوئها، هي موجة المستقبل التي سوف تغمر الجميع. قوبل الكتاب بالازدراء من قبل حكومة روزفلت ووصف بأنه إنجيل النازيين والفاشيين. ثم تحول هذا العنوان لاحقاً إلى مصطلح للدلالة على أن فكرة أو حركة أو منتج سوف يسود حتماً. (م)

أن رجلاً من المريخ، لا يعرف أي شيء عن الشؤون البشرية، كان سيحكم على الدول المختلفة في العالم بناء على الكتب السوفيتية، فإنه سوف يستنتج أن الشرق مسكون بكائنات ذكية عقلانية، في حين أن الغرب مأهول بأقزام ومنحطين. من العجب أن كثيراً من الغربيين الأذكياء، الذين بالنسبة لهم فإن الاتحاد السوفيتي والدول التابعة له هي جزر أسطورية من السعادة، قد توصلوا إلى الاستنتاج ذاته.

إن مواطني الديمقراطيات الشعبية محصنون ضد الاضطراب العصبي الذي يأخذ مثل هذا التنوع الشكلي في الدول الرأسمالية. في الغرب يعتبر الإنسان لا شعورياً أن المجتمع لا علاقة له به. يشير المجتمع إلى الحدود التي عليه ألا يتخطاها؛ وفي مقابل هذا فإنه يتلقى ضمانة أن لا أحد سوف يتدخل بشكل زائد في شؤونه. إن خسر فذلك خطؤه هو؛ فليساعده التحليل النفسي. في الشرق ليس ثمة من حدود بين الإنسان والمجتمع. إن لعبته، سواء نجح أو فشل، هي مسألة عامة. هو ليس وحيداً أبداً. إن فشل لن يكون ذلك بسبب عدم الاكتراث من قبل بيئته، بل لأن بيئته تبقيه تحت فحص دقيق. الاضطربات العصبية كما هي معروفة في الغرب تنتج قبل كل شيء عن عزلة الإنسان؛ لذلك وحتى لو كان من المسموح لهم بممارسة العمل، فإن المحللين النفسيين لن يكسبوا قرشاً واحداً في الديمقراطيات الشعبية.

عذابات الإنسان في الشرق، وكما رأينا، هي مجموعة متنوعة غير معروفة حتى الآن. ابتكرت الإنسانية تدابير فعالة ضد الجدري والتيفوس والسيفلس؛ إلا أن الحياة في المدن الكبيرة والتجمعات الضخمة تولد أمراضاً جديدة. اكتشف الثوريون الروس ما ادعوا أنه وسائل فعالة للسيطرة على قوى التاريخ. ادّعوا أنهم وجدوا ترياقاً لأمراض المجتمع. إلا أن التاريخ بنفسه كافأهم بالسخرية.

الهدف الأسمى للتخلص من صراع البقاء ـ الذي كان حلم المنظرين

ـ لم يكن وليس بإمكانه التحقق عندما يكون كل إنسان يخاف من كل إنسان آخر. الدولة التي يجب، وفقاً لِـ لينين، أن تذوي تدريجياً هي الآن بكامل قوتها. إنها تمسك سيفاً مسلطاً فوق رأس كل مواطن؛ تعاقبه على كل كلمة غير مدروسة. الوعود التي تطلق بين الحين والآخر حول أن الدولة سوف تبدأ بالزوال تدريجياً عندما يتم السيطرة على كامل الكرة الأرضية تفتقد أي أساس. لا يمكن للتشدد أن يحرر الضغط الذي يمارسه على العقول؛ وإلا لا يعود تشدداً. سيكون هناك دائماً تفاوت ما بين الحقائق والنظريات. العالم مليء بالتناقضات. صراعها المستمر هو ما سماه هيغل بِـ الديالكتيك. ديالكتيك الواقع هذا يتحول ضد الديالكتيك الذي صاغه المركز؛ ولكن هذا يعني أنه أسوأ بكثير في ما يخص الواقع. قيل بأن القرن العشرين معروف بالمنتجات الصناعية؛ المطاط الصناعي والبنزين الصناعي، إلخ. وحتى لا يتم التفوق عليه، فقد أنتج الحزب ديالكتيكاً مصطنعاً يبدو شبهه مع فلسفة هيغل سطحياً بحتاً. إن النهج فعال فقط ما دام يشن الحرب على أعدائه. الإنسان المعرض لتأثيره لا حول له ولا قوة. كيف بإمكانه محاربة نظام من الرموز؟ في النهاية فإنه يستسلم؛ وهذا هو سر قوة الحزب، وليس مخدراً رائعاً ما.

هناك نوع من الحشرات تغرز سمها في يرقة الفراشة؛ وبالتالي تستمر اليرقة المطعمة في الحياة على الرغم من أنها تكون مشلولة. عندها تضع الحشرة السامة بيضها فيها، يصبح جسد اليرقة حاضنة حية للبيوض الفاقسة حديثاً. وهكذا تماماً (على الرغم من أن ماركس وأنغلز لم يتوقعا مثل هذا الاستخدام لتعاليمهما)، فإن مخدر الواقعية الديالكتيكية يحقن في عقل الإنسان في الديمقراطيات الشعبية. وعندما يصبح مخه مشلولاً كما ينبغي، توضع بيوض الستالينية فيه. ما إن تصبح ماركسياً، فإن الحزب يقول للمريض، يجب عليك أن تكون ستالينياً، لأنه ليس هناك ماركسية خارج الستالينية.

قد يفكر الأعداء الساذجون للسم أنه بإمكانهم حماية أنفسهم من الخطر عن طريق الإغلاق على أعمال ماركس وأنغلز في خزنات حصينة وعدم السماح لأي أحد بقراءتها. إنهم يفشلون في الأخذ بعين الاعتبار بأن مسار التاريخ ذاته يقود الناس إلى التفكير في موضوع هذه الأعمال. هؤلاء الذين لم يختبروا شخصياً أبداً الجاذبية المغناطيسية والقوة للمشكلات المطروحة في هذه الكتب يمكن لهم اعتبار أنفسهم محظوظين. لكن هذا لا يعني أن عليهم أن يكونوا فخورين بأنفسهم.

وحده الأعمى يفشل في رؤية السخرية في الوضع الذي جلبه الجنس البشري على نفسه عندما حاول التحكم بقدره وإبعاد الحوادث. لقد ركع للتاريخ؛ والتاريخ رب قاسٍ. واليوم، فإن الوصايا التي تسقط من بين شفتيه تنطق من قبل قساوسة أذكياء يختبئون في داخله الفارغ. عيون الرب مركبة بعناية إلى درجة أنه بإمكانها رؤية أي مكان يمكن أن يذهب إليه الإنسان؛ ليس هناك مخبأ منهم. يمارس العشاق في السرير طقوسهم الغرامية تحت نظراته الساخرة؛ الطفل الذي يلعب بالرمل لا يعرف أن حياته المستقبلية قد تم تقليب النظر بها وكتابتها في السجل العام؛ وحدهم المسنون الذين لم تبق لهم سوى أيام معدودة قبل أن يموتوا، يمكن أن يشعروا بحق أنهم نجوا إلى حد كبير من حكمه.

إن فلسفة التاريخ المنبثقة من موسكو ليست مجرد نظرية تجريدية، إنها قوة مادية تستخدم البنادق والدبابات والطائرات وكل آليات الحرب والطغيان. وكل الجبروت الساحق لدولة مسلحة يُقذَف بعنف ضد أي إنسان يرفض القبول بِـ الإيمان الجديد. وفي الوقت ذاته، تهاجمه الستالينية من الداخل، قائلة له إن معارضته سببها «الوعي الطبقي» له، تماماً مثلما يتهم المحللون النفسيون خصومهم برغبتهم في الحفاظ على تعقيداتهم.

ومع ذلك، ليس من الصعب تخيل اليوم الذي ينقلب فيه الملايين من الأتباع المطيعين لِـ **الإيمان الجديد** فجأة ضده. سوف يأتي هذا اليوم في اللحظة التي يفقد فيها المركز أدوات جبروته، ليس فقط بسبب أن الخوف من القوة العسكرية سوف يزول، لكن لأن النجاح جزء لا يتجزأ من حجة هذه الفلسفة. إذا ما فُقد، فسوف يثبت أنه خاطئ انطلاقاً من تعريفه لنفسه؛ سوف يقف مكشوفاً ك إيمان كاذب، مهزوماً من قبل ربه الخاص به، وهو الواقعية. لا يتوق مواطنو إمبراطورية الشرق إلى شيء أكثر من تحررهم من الرعب الذي يخلقه لهم تفكيرهم الخاص.

في مباني اللجنة المركزية، يحرك الاستراتيجيون الأعلام الصغيرة على خريطة معركة الحرب على عقول البشر. يمكنهم تحديد نجاحات أكبر من أي وقت مضى؛ اللون الأحمر، الذي كان محدوداً في عامي ١٩٤٤ و١٩٤٥ ضمن فئة قليلة من المؤمنين القادمين من الشرق، ينتشر أكثر كل يوم. لكن حتى الحكماء هم بشر، وهم يسقطون فريسة القلق والفزع. إنهم يقارنون أنفسهم بالمسيحيين الأوائل؛ إنهم يقارنون مسيرة **الإيمان الجديد** حول الكرة الأرضية بمسيرة المسيحية على طول الإمبراطورية الرومانية المتفسخة. لكنهم يحسدون الحواريين على موهبتهم في الوصول عميقاً في قلب الإنسان. «*إنهم* يعرفون كيف يصنعون برويا‌غاندا! كيف يمكن أن نقارن أنفسنا بهم؟» قال أحد الأعضاء الرفيعين في الحزب متفجعاً وهو يسمع الإنجيل يتلى في الراديو. معجزات الدين (المضاد) الجديد. إنها تظهر للشكاكين مباني جديدة ودبابات جديدة. لكن ما الذي سيحدث لو أن هذه المعجزات توقفت فجأة؟ سوف تظهر السكاكين والمسدسات في الأيدي التي تصفق الآن. سوف ينقلب هرم الأفكار، وعلى مدى طويل من الزمن سوف تحل الفوضى والدماء في المكان الذي كان ينتصب فيه.

الفصل ٩

# درس البلطيق

«إن استمريت في التفكير بالبلطيق ومعسكرات الاعتقال، هل تعرف ماذا يمكن أن يحدث لك؟» سألني صديقي في وارسو. كان قد نال مؤخراً تقديراً على الحكمة الديالكتيكية من المركز. «سوف تستنفد ما تبقى من وقتك للعيش وسوف تقدم نفسك أمام زيوس؛ وسوف يصرخ الرب، وهو يشير بإصبعه (وهنا أشار صديقي بإصبع الاتهام): 'أحمق! لقد خربت حياتك بالقلق حول التفاهات!'».

صحيح أنني لا أستطيع التوقف عن التفكير في البلطيق. لكن يمكنني أن أقول شيئاً في دفاعي. إن القلق حول مصير أمم سحقها التاريخ ـ ذاك الفيل ـ لا يقود إلى أي مكان بكل تأكيد، وهو دليل على الحساسية العاطفية. لا يمكنني أن أضمن إلا هذا المقدار فقط. إن الغضب الشديد الذي يشعر به المرء عندما يقرأ السير الذاتية المكتوبة في القرن السادس عشر والتي يحكي مؤلفوها، وهم غالباً من القساوسة، عن الفظاعات التي ارتكبها الفاتحون الإسبان في أمريكا لا معنى له. لا يمكنه أن يبعث السكان الكاريبيين الذين ذبحهم **بونس دي ليون**، ولا أن يقدم المأوى لِـ اللاجئين من **الإنكا** المطاردين عبر الجبال من قبل الفرسان الذين يحاربون بالإيمان والسيف. إن الذين يُهزمون يُنسون إلى الأبد؛ وأي شخص يرغب في النظر بتمعن في سجلات جرائم الماضي، أو حتى أسوأ من ذلك، يحاول أن يتخيلهم بالتفصيل، لا بد أنه إما أن يشحب لونه من الرعب أو يصبح لا مبالياً تماماً.

يعلم المؤرخون أنه، ومنذ زمن طويل، فإن المنطقة المعروفة باسم بروسيا الشرقية كانت تسكنها الأمة البروسية التي، وبفضل أتباع يسوع الناطقين بالألمانية، واجهت المصير نفسه لسكان الكاريبي. إلا أن المؤرخين لا يتكلمون عن يأس الأمهات ومحنة الأولاد؛ وربما من الأفضل أنهم لم يفعلوا. بُنيت الحضارة التي سمت نفسها مسيحية على دماء الأبرياء. أن تسخط بنبل على أولئك الذين يحاولون اليوم خلق حضارة أخرى بوسائل مشابهة يعني أن تتخذ موقف الفريسيين إلى حد ما. سوف تبقى سجلات الجرائم لسنين عديدة، مخبّأة في مكان ما بعيد وآمن؛ ثم يأتي باحث ما في المستقبل عبر الغبار وأعشاش العنكبوت إلى الملفات القديمة، ويعتبر أن الجرائم المرتكبة عبارة عن آثام تافهة بالمقارنة مع المهمة التي أُنجزت. ومع ذلك فعلى الأغلب أن مثل تلك الملفات لن توجد؛ لأنه، وللبقاء في سياق التقدم، فإن أباطرة اليوم قد استنتجوا من هذه الحقيقة البسيطة التالي: كل ما هو غير موجود على الورق فهو غير موجود بالمطلق.

دعونا نفترض بأن هذا ما سوف يحدث. ومع ذلك فإن موقفنا تجاه الحاضر يختلف عن موقفنا تجاه الماضي، وليكن ذلك صحيحاً أو خاطئاً. إن الكائن البشري *الحي*، حتى لو كان يعيش على بعد آلاف الأميال، لا يمكن بسهولة إخراجه من الذاكرة. إن كان يتم تعذيبه، فإن صوته سوف يُسمع على الأقل من قبل هؤلاء الذين يملكون مخيلة حية (وإن كانت غير مريحة بالنسبة لهم). وحتى لو كان قد مات الآن، فإنه لا يزال جزءاً من الحاضر؛ لأن الرجل الذي قتله، أو أعطى الأمر بقتله، لا يزال جالساً في مكان ما، في نقطة محددة على سطح الأرض، مع عائلته؛ الخبز والشاي على المائدة، وأولاده مبتهجون بهدية جلبها لهم. أن نطلب من الإنسان النظر إلى الحاضر كما ينظر إلى الماضي من دون القلق حول التفاهات، كما قال صديقي، أن يحدق في الثمار الناضجة

للغد من خلال تيلسكوب التاريخ؛ ذلك الطلب كبير جداً. في النهاية لا بد من وجود معيار ما لا يجرؤ الإنسان على تدميره خشية أن تثبت ثمار الغد أنها فاسدة. إن كنت أفكر بهذا الشكل فذلك لأنه خلال الألفي سنة الأخيرة أو أكثر لم يكن هناك فقط قطاع طرق وفاتحون وجلادون، بل كذلك ناس بالنسبة لهم الشر هو الشر ويجب أن يسمى شراً. المذابح الجماعية، وإرهاب الثورة، وجنون الذهب، وبؤس الطبقة العاملة: من يعلم ما هي الأبعاد التي قد تصل إليها هذه العيوب لو أن كل شخص اعتقد أن عليه البقاء صامتاً ومذعناً؟ أعتقد أنني بالتمرد فإنني أحافظ على ثمار الغد أفضل من صديقي الذي بقي صامتاً. آخذ على عاتقي المخاطر وأدفع الثمن. لو أنني لم أرغب في فعل ذلك، لكنت الآن أكتب قصيدة في مديح **القائد العام**. عندما يملك المرء بعض التدريب في التقنية الشعرية، فليس الأمر صعباً بشكل خاص تأليف مدح يبدو إيقاعه جميل لِـ *البطل المجيد*.

دول البلطيق؛ إيستونيا وليتوانيا ولاتفيا، تقع، كما نعلم، على حافة البر الرئيس الكبير للقارة. يفصلها خليج عن فنلندا؛ وبحر البلطيق عن السويد. سكانها ليسوا من السلافيك. لغة الإيستونيين ذات صلة بالفنلندية. اللغتان الليتوانية واللاتفية، واللتان تتشابهان، لا تزالان تشكلان لغزاً لغوياً؛ لا يعرف أحد الموطن الأصلي لتلك القبائل التي وجدت طريقها إلى الامتدادات السفلية لنهري نيمين ودفينا. نعرف فقط أن البروسيين المبادين يتكلمون لغة مشابهة. من بين الأمم البلطيقية الثلاث، وحدهم الليتوانيون قد نجحوا في الماضي في خلق والحفاظ على دولة كبيرة لمدة محدودة من الزمن، والتي امتدت حدودها إلى نهر الدينيبر.

خضعت هذه الدول الثلاث المستقرة على نحو خفيف إلى استعمار مكثف، وبشكل خاص من الألمان والبولنديين، الذي ميز تقدم المسيحية. كانت النتيجة أن لغتين مختلفتين جديدتين دخلتا قيد

الاستعمال، فصار ملاك الأراضي يتكلمون الألمانية (في إستونيا ولاتفيا) والبولندية (في ليتوانيا) من جانب؛ بسبب أن القادمين الجدد جلبوا معهم لغتهم الخاصة وعاداتهم، ومن جانب آخر لأن النبالة المحلية تبنتهم. إلا أن عامة الشعب تكلموا لغتهم المحلية الأم وصانوا تراثهم الثقافي المقبل من الماضي الأسطوري. بعد الحرب العالمية الأولى توقفت تلك البلدان الثلاث عن كونها جزءاً من القيصرية الروسية وصارت مستقلة. كبح الإصلاح الزراعي الجذري نفوذ ملاك الأراضي الكبار. وأصبحت اللغات المحلية هي اللغات الرسمية، في حين استعاد الأدب والتعليم التقاليد الشعبية الرائجة.

في عام ١٩٣٩، كان تعداد سكان هذه الدول الثلاث نحو ستة ملايين، وهذا الرقم أكبر قليلاً من تعداد سكان تشلي، وأقل بقليل من عدد سكان السويد. كانت بلداناً زراعية حمى اقتصادها التصدير المنظم بشكل جيد لسلع مثل البيكون والبيض والزبدة والحبوب ولحوم الطيور لأوروبا الغربية. في هذا الصدد، وكذلك في اعتبارات أخرى، كانوا يشبهون الدنمارك. كل من يعرف نموذج الحياة الزراعية يمكنه أن يتصور بسهولة صيغة وجود تلك المناطق البلطيقية. ساعد نظام شائع من التعاونيات المزارع على بيع محصوله. مستوى معيشته، استناداً إلى مظهره وبيته وطعامه، كان أعلى من الدول السلافية، مع استثناء ممكن لِـ تشيكوسلوفاكيا. كان معظم الأستونيين واللاتفيين من البروتستانت؛ ومعظم الليتوانيين من الكاثوليك. هذه الأمم الثلاث كانت تتميز بوطنية عنيدة، بل وحتى شوفينية؛ وهذا شيء مفهوم بسبب ماضيهم الصعب. من الناحية العسكرية، كانت هذه الدول الثلاث مسالمة.

جرى تحديد مصير هذه البلدان خلال محادثات بين مولوتوف وريبيبنتروب. في خريف عام ١٩٣٩، طالب مولوتوف بقواعد عسكرية؛ سارعت حكومات البلطيق لضمان ذلك له. (كرست الصحف في البلدان

الثلاثة مساحات كبيرة، في ذلك الوقت، لمقالات تنادي بصداقة قوية دائمة لا تهتز مع الجار الشرقي القوي واللطيف). في حزيران عام ١٩٤٠، وبذريعة أن الجنود السوفيت المتمركزين في تلك القواعد لا يحظون بالحماية الكافية، اجتاز الجيش الأحمر حدود ليتوانيا ولاتفيا وإيستونيا، استلمت وزارة الداخلية السوفيتية السلطة، وتوقفت كل الأجهزة الحكومية السابقة عن الوجود.

تقريري عن دول البلطيق ليس مستمداً من الكتب أو المخطوطات. أول شعاع شمس رأيته، وأول رائحة للأرض شممتها، وأول شجرة، كانت شمس ورائحة وشجرة تلك المناطق؛ لأنني ولدت هناك، لوالدين يتكلمان البولندية، إلى جانب نهر يحمل اسماً ليتونياً. أنا على دراية بأحداث السنوات السابقة ليس من الملاحظات الجافة للتاريخيين؛ إنها حية بالنسبة لي بمقدار وجوه وعيون الناس الذين تعرفهم جيداً.

لا شك أن غزو الإسبان كان تجربة مروعة للأزتيك. كانت عادات الفاتحين غامضة غير مفهومة؛ وطقوسهم الدينية غريبة؛ وطرق تفكيرهم من المستحيل تعقبها. شكّل غزو الجيش الأحمر صدمة مشابهة بالنسبة للأستونيين واللاتفيين والليتوانيين. بالطبع، يتذكر العجائز زمن القيصر؛ ومع ذلك فقد كان هذا الأمر مختلفاً كلياً، وأكثر سوءاً. في السنوات التي انقضت بعد سقوط القيصرية، لم تتورط روسيا قريباً من أوروبا وإنما بعيداً جداً، نحو مبادئ التنظيم الاجتماعي التي لم تعرفها أوروبا من قبل أبداً. تفكير وأفعال هؤلاء الغزاة كانت غريبة تماماً بالنسبة لمن جرى غزوهم تماماً مثلما كانت أسرار اللاهوت الكاثوليكي والمفهوم القشتالي للشرف بالنسبة للأزتيك.

أصدِرت الأوامر بإجراء انتخابات على الفور. إلا أن هذه الانتخابات لا تملك أي شيء مشترك مع الانتخابات التي كانت تجرى من قبل. كانت هناك لائحة واحدة من المرشحين، قدمتها السلطات الجديدة.

لماذا إذاً غطت المدن والأرياف النشرات الدعائية، وتلك التي توزع يدوياً؛ ولماذا كانت مكبرات الصوت تنادي ليلاً نهاراً؛ لماذا زُيّنت الشاحنات بصور المرشحين؛ لماذا الأكاليل والاجتماعات والمنصات؟ لماذا الدعاية إن كان المرء لا يملك خياراً؟ لا أحد استطاع أن يفهم. ومع ذلك ففي يوم الانتخابات توافد الجميع إلى صناديق الاقتراع. كان عليهم أن ينتخبوا؛ لأنه عندما يسلم المرء ورقته الانتخابية، يتم وضع ختم على جواز سفره. غياب هذا الختم يعني أن صاحب الجواز هو عدو للشعب كشف عن سوء نيته عن طريق الامتناع عن التصويت. بعض الناس، وبسذاجة، سلموا أوراقاً انتخابية ممزقة أو مشطوبة؛ إلا أنها أُعلنت صحيحة وإيجابية. الإحصاء الأخير للأصوات كان مثيراً للإعجاب. أول فعل قام به البرلمان المنتخب بهذه الطريقة كان تقديم طلب رسمي للاندماج مع الاتحاد السوفيتي. وكان الطلب مضموناً.

أحد نواب البرلمان الليتواني كان أحد أصدقاء شبابي. سافرنا معاً كيلومترات عديدة في أنهر أوروبية متنوعة بقارب الكانو، متجنبين الغرق في المنحدرات، متجولين في ممرات الجبال، مراقبين شروق الشمس فوق وديان الغابة السوداء وقلاع راينلاند. أصبح ستالينياً قبل بضع سنوات من الحرب العالمية الثانية. كان من وارسو، وكان وجوده في ليتوانيا أثناء اندلاع الحرب عرضياً. ومع ذلك، تم تقديمه كمرشح (كان هناك القليل من الشيوعيين في تلك البلاد فتم استخدامهم جميعاً)؛ وبما أن الترشيح كان معادلاً للانتخاب، فقد صار نائباً. لا بد أنها كانت تجربة مهمة للسلطة بالنسبة له؛ كان يمكنه التصويت على اندماج بلد لا يعنيه بشيء في بلد يعرفه فقط من خلال أدبه الدعائي وإحصاءاته الرسمية. في ذلك الوقت كان ذلك شيئاً جديداً؛ لكن بدعاً أخرى كانت على وشك الحدوث. على امتداد كامل أوروبا الشرقية، صوّت الأجانب (بعد تغيير أسمائهم إن دعت الضرورة)، وتم تمثيلهم، وحكموا.

وهكذا أصبح سكان دول البلطيق مواطنين سوفيت. في عيون السلطات الجديدة فإن هذه الكتلة البشرية، التي كانت ميسورة جداً إلى درجة أنهم وضعوا بقية الاتحاد في حرج، كانت تمثل بقايا فضيحة من الماضي. يجب أن يتم تعليمهم. امتلأت السجون، وسرعان ما بدأ ترحيل فئات معينة من السكان إلى معسكرات العمل والمناجم والمزارع التعاونية في الجانب الآخر من روسيا، وبشكل رئيس في المناطق القطبية. في عام ١٩٤١ اجتاح الجيش الألماني كامل المنطقة. وبدأ النازيون بدورهم بقتل تلك الفئات المعينة من السكان التي صنفت إيديولوجيتها أنها غير مرغوبة، وبشكل أساسي اليهود، بغض النظر عن العمر أو الجنس أو الطبقة. ولإتمام هذه المهمة قاموا بتطبيق دقتهم المعتادة. وفي الوقت ذاته قاموا باستيراد كمية كبيرة من العمال المجندين قسراً إلى الرايخ.

في عام ١٩٤٤ استرد الجيش الأحمر دول البلطيق وبدأ المركز بالتخطيط لاستيعاب هذه المنطقة في الاتحاد. المهمة الأكثر إلحاحاً كانت هدم الاقتصاد الزراعي الغني القائم. ومع ذلك، فقد واجه التأميم عقبات كبيرة. الطريقة المعتادة، التي تقتضي «تقوية وتكثيف حدة الصراع الطبقي في القرية»، الذي يتم تقديره بناء على العداء بين المزارعين الأغنياء والمزارعين الفقراء، قد أتت بنتائج ضعيفة. التدريب في المجموعات المقاتلة، مع الأعداد الكبيرة من الأسلحة المتبقية من عمليات زمن الحرب، شجّعت المعارضة. هرب الفلاحون إلى الغابات وشكّلوا عصابات. وانتقاماً، حاصرت الحملات التأديبية القرى وقتلت من بقي في البيت. أدى هذا الأمر إلى تقوية المعارضة؛ لأن قرى بأكملها، بنسائها وأطفالها، فضّلت غالباً الانضمام إلى المحاربين بدل أن يعرضوا أنفسهم لخطر أخذهم رهائن.

إن التصرف العدائي لهؤلاء الناس أجبر من هم في السلطة على اللجوء إلى إجراءات جذرية. أقيمت حملات مطاردة كبيرة للناس.

تحركت آلاف من سيارات تحميل المواشي مليئة بالناس باتجاه المناطق غير المأهولة في أوراسيا. السنوات التي بدأت فيها أوروبا الغربية تستمتع بسلام عابر كانت بعيدة عن السلام بالنسبة لدول البلطيق. القرى التي كان سكانها إما قد ماتوا أو رحلوا أو اختبؤوا وقفت فارغة ومنهوبة. صفرت الرياح عبر فتحات نوافذها المكسورة وأبوابها المحطمة. «جاء الهتلريون وذهبوا، إلا أن الأمة بقيت»، أعلن القائد العام في اللحظة التي كان فيها النصر على ألمانيا قد صار مؤكداً. طالما أن هناك مجموعات قومية معنية، فإن هذه العبارة يجب أن يعدل نصها إلى: «الأمم تأتي وتذهب، إلا أن البلدان تبقى». على حد تعبير مسؤول في المركز، قال في عام ١٩٤٦: «سيكون هناك ليتوانيا؛ لكن لن يكون هناك ليتوانيون».

لا أعرف كم عدد الآلاف من الرجال والنساء الذين فقدتهم هذه الدول قبل أن يتم «إعادة بناء» اقتصاداتهم، أي قبل ١٩٥٠. ربما لا يعرف أحد الإحصاء الدقيق. عدد الأجانب الذين أمروا بالاستقرار في الأماكن التي غادرها سكانها الأصليون قد يكون بمثابة مؤشر. علاوة على ذلك، فإن العملية لم تنته بعد. تم استيراد المزارعين التعاونيين إلى الأماكن الريفية، والكوادر الإدارية مع عائلاتهم إلى المدن. يمكن للمرء أن يسمع في الشوارع اللغة الروسية أكثر من الإيستونية أو الليتوانية أو اللاتفية. الغالبية العظمى من قادة الحزب ومن المسؤولين الكبار في الدولة يحملون أسماء روسية.

الهدف من كل هذه التنقلات هو تمازج مواطني الاتحاد. من خلال تذويب القوميات الفردية في «البحر الروسي» فقط يمكن للمرء تحقيق هدف ثقافة واحدة ولغة عالمية واحدة. الإقليم الذي كان يربط فيما مضى دول البلطيق بألمانيا جرت تسويته بواسطة الروس. مدينة كينغزبيرغ، التي ولد كانط بين جدرانها وأمضى كل حياته فيها، تم تغيير اسمها إلى كالينينغراد ولم يتبق أي أثر للعالم المعتدل المنظم الذي عرفه الفيلسوف.

في الجزر الواقعة قبالة شواطئ ما كان ذات مرة إيستونيا، لم يعد هناك صيادون يدفعون قواربهم باتجاه البحر. إن الوعاء الذي يتم فيه طبخ شعوب البلطيق مغطى بإحكام. من البديهي أن المدارس والجامعات وكذلك الكتب جميعها تستخدم اللغات المحلية. في النهاية، فإن الهدف ليس تدمير القوميات الفردية؛ الهدف هو تدمير العدو الطبقي. عندما يتعلم الشباب باللغة الليتوانية أو الأستونية أو اللاتفيية كيف يكونون مواطنين حقيقيين في الاتحاد، وكيف يقدرون كل ما ينبع من المركز، عندها فإن اللغة الروسية سوف تفوز على كل منافسيها. عند هذه النقطة، سوف يُكتسب مستوى جديد من الإدراك[1].

ما هو سبب الغضب؟ العالم الصغير الذي كان دول البلطيق والمعروف لنا من لوحات بروغل للمناظر الريفية: الأيدي التي تمسك أباريق الخمر، والخدود محمرة من الضحك، لطافة ثقيلة دببية. هناك عاشت فضائل الفلاحين: الكد والاقتصاد والاجتهاد؛ وخطايا الفلاحين: الجشع والبخل والقلق المستمر حول المستقبل. البروليتاريا بالكاد

---

(١) اقتربت من صورة ستالين، نزعتها عن الجدار، وضعتها على الطاولة، وأرحت رأسي بين يدي، حدقت وتأملت. ماذا عليّ أن أفعل؟ وجه القائد هادئ كما هو الحال دائماً، عيناه صافيتا النظرات للغاية، إنهما تنفذان إلى البعيد. يبدو كأن نظرته النافذة تخرق غرفتي الصغيرة وتخرج لتعانق العالم بأسره. لا أعرف كيف يبدو شكلي لأي شخص قد ينظر إلى في هذه اللحظة. لكن بكل جوارحي وكل أعصابي وكل نقطة دم في عروقي أشعر أنني، في هذه اللحظة، لا وجود لأي شيء في هذا العالم إلا ذلك الوجه العزيز الحبيب. ماذا عليّ أن أفعل؟

«تعاملت الحكومة السوفيتية مع أعداء الشعب بقبضة محكمة...

«هذه هي كلماتي أيها الرفيق ستالين. أؤمن بها بقداسة. والآن أدرك كيف أتصرف».

من مجلة بيرغل (النصر بالليتوانية)، عضو في هيئة الكتاب السوفيت من جمهورية ليتوانيا السوفيتية، رقم ٤، نيسان ١٩٥٠، النشرة الليتوانية، نيويورك، تموز ـ كانون الثاني، ١٩٥٠». (الكاتب)

موجودة؛ والصناعة كانت تتطور بشكل ضعيف؛ قسّم الإصلاح الزراعي الملكيات الزراعية الكبيرة بين الفلاحين. ولكن لماذا يجب أن يستمر؟ كان الكولاك مفارقة تاريخية لا تغتفر. كان يجب مسحهم عن وجه الأرض، وكان يجب تخفيض مستوى المعيشة لمطابقة مستوى المعيشة في بقية الاتحاد. أما بالنسبة للطرق العنيفة المستخدمة؛ في نهاية المطاف فإن الجميع سوف يموتون في النهاية. دعونا نفترض أن نسبة كبيرة من السكان قد قتلت بالطاعون، بدلاً من أن تكون قتلت في حملة تأديبية. منذ اللحظة التي نعترف فيها بأن الضرورة التاريخية قد تكون شيئاً من طبيعة الطاعون، علينا أن نتوقف عن ذرف الدموع على مصير الضحايا. إن الطاعون أو الزلزال لا يثير عادة السخط. يعترف المرء أنها كوارث، يطوي صحيفة الصباح، ويتابع تناول الإفطار. يمكن أن يتمرد الإنسان ضد *إنسان آخر* فقط. هنا ليس هناك أحد. الناس الذين جلبوا هذا الطاعون مقتنعون أنهم ينجزون واجبهم التاريخي فقط.

ومع ذلك فإن الرسالة التي حملتها بين يدي في أحد الأيام كانت مؤلمة. أتت من عائلة تم ترحيلها إلى سيبيريا من أحد بلدان البلطيق في آذار/ مارس عام ١٩٤٩، وكانت موجهة إلى أقارب في بولندا. كانت العائلة مؤلفة من أم وابنتين. كانت رسالتهم سرداً مقتضباً عن عملهم في كولكوز[١]. الأحرف الأخيرة من كل سطر كانت مشددة قليلاً وبقراءتها عمودياً يمكن فهم كلمات «العبد الأبدي». إن حدث أن وقعت مثل هذه الرسالة بين يدي، إذاً كم من الرسائل الأخرى، والتي تحوي عبارات مخبأة تدل على اليأس وجدت طريقها إلى أناس لا تمكن لهم الإفادة منها. وبحساب الاحتمالات، كم من تلك الرسائل بقيت من دون أن تُكتب؛ وكم من هؤلاء الذين من الممكن أنهم كتبوها قد ماتوا من الجوع أو الإجهاد في العمل، وهم يكررون عبارة «العبد الأبدي»؟

---

(١) مزرعة تعاونية. (م)

ربما في هذه اللحظة ذاتها فإن الأم وابنتيها، إن كن ما زلن على قيد الحياة، يحملن الماء في دلاء من البئر. ربما تكون الأم قلقة على حصة الخبز غير الكافية التي تشكل راتبهم الوحيد. وربما أيضاً تكون قلقة حول مستقبل ابنتيها. إن مواطناً من نيويورك يتوطن في قرية محلية في الكونغو سوف يشعر بشكل مشابه لأحد سكان أحد بلدان البلطيق الذي رُحّل إلى ما وراء جبال الأورال؛ وبشكل مشابه في الفروقات في ما يتعلق بمقاييس النظافة والصحة ومعظم المظاهر الخارجية للحضارة. سوف تموت الأم؛ وعلى الابنتين البقاء هناك طوال عمرهما، لأن لا أحد يعود من مثل هذا المنفى. عليهما الزواج. لكنهما سوف تبقيان تقفلان داخلهما على شيء مبهم بالنسبة إلى بيئتهما، شيء لن تتمكنا من نقله إلى أولادهما الذين يتحدثون الروسية.

من المحتمل أنه لا الأم ولا الابنتان يملكن أية مؤهلات خاصة. كانت الأم تذهب إلى الكنيسة في أيام الأحد مع كتاب صلوات سميك، لكنها في البيت كانت بخيلة سليطة اللسان. ولم تفكر الابنتان بأي شيء عدا التفاهات والرقص على العشب أيام السبت، والذي كان أمراً محبوباً للغاية في مقاطعتهم الأصلية. لم يقرأن كتباً جدية؛ لم تعن أسماء مثل أفلاطون أو هيغل أو ماركس أو داروين أي شيء بالنسبة لهن. تم ترحيل النسوة الثلاث لأنهن كن من الكولاك؛ مزرعتهن تقدر بنحو ثلاثين هكتاراً. إن الفائدة التي قد يجنيها الجنس البشري من حياتهن الهادئة في الريف كانت، ما عدا بضعة كيلوغرامات من الزبدة والجبن، قليلة للغاية.

ينشأ السؤال حول ما إذا كان تدمير حياة ثلاثة من مثل هذه المخلوقات مسموح باسم الغايات العليا. سوف يجيب الستالينيون بأن ذلك مسموح؛ وسوف يجيب المسيحيون والمسيحيون الزائفون بأنه غير مسموح. وجواب كلا الجانبين غير متماسك تماماً. تسعون بالمائة من الحجج التي يستخدمها الستالينيون في دِعايتهم معتمدة على إيذاء الإنسان

للإنسان. مناشدة السخط الأخلاقي دائماً ما كانت تقدم في شعاراتهم. في حين أن المسيحيين في الجانب الآخر، يعتصمون بفكرة أنه من الخطأ إيذاء الآخرين لأن كل إنسان لديه قيمة كامنة؛ لكن مع قولهم مثل هذا الرأي النبيل، إلا أن العديد منهم لن يحرك إصبعاً ليساعد شخصاً آخر. ليس مصير دول البلطيق فقط هو ما تركهم غير مكترثين، إنهم، وبشكل مشابه، غير مبالين بخصوص أشكال الدمار غير المذابح والترحيل الإجباري. على سبيل المثال، إنهم يعتبرون أن الموت الروحي للناس المحكوم عليهم بالعمل طوال النهار وابتلاع سم الأفلام والتلفزيون في الليل وكأنه أمر طبيعي جداً.

بابلو نيرودا، شاعر أمريكا اللاتينية العظيم، جاء من تشيلي. ترجمت عدداً من قصائده إلى البولندية. كان بابلو نيرودا شيوعياً منذ عشر سنوات تقريباً. عندما يصف تعاسة شعبه، أنا أصدقه وأحترم قلبه الكبير. عندما يكتب، فهو يفكر بإخوته وليس بنفسه، وهكذا بالنسبة له تُمنح قوة الكلمة. لكن عندما يرسم الحياة البهيجة المتألقة للناس في الاتحاد السوفيتي، أتوقف عن تصديقه. أنا ميّال إلى تصديقه عندما يتحدث عما يعرفه؛ وأتوقف عن تصديقه عندما يبدأ الحديث عما أعرفه أنا بنفسي.

هناك بالفعل فرق عظيم بين المؤمنين في الشرق وأولئك في الغرب. يحتاج الشيوعيون في الغرب إلى رؤية لعصر ذهبي يكون قد تحقق على الأرض. يعمل الستاليني في الشرق بكل قواه لإنزال هذه الرؤية وتثبيتها في عقول الآخرين، لكنه لا ينسى أبداً أنها مجرد كذبة مفيدة. منطقه العقلي صحيح. عرفت كل ثورة فترة من الرعب موجهة ضد أعداء النظام الجديد. لا أحد يبكي اليوم على الأرستقراطيين الفرنسيين الذين سقطت رؤوسهم بالمقصلة. ومع ذلك فإن الثورات السابقة هي أحداث تافهة مقارنة بالثورة التي تجري في زمننا. هدفوا إلى إسقاط طبقة صغيرة كانت تقف في طريق القيود الاصطناعية والقوى الخلاقة. لا يمكن لثورة اليوم

أن تكتفي بلحظة من الرعب، الضروري لتدعيم القوة الجديدة؛ على الصراع الطبقي أن يستمر حتى يتم تدمير قواعد اقتصاد الخصم. يتألف العدو الطبقي من ملايين المنتجين الصغار، وهم الفلاحين والحرفيين، وكذلك رجال الأعمال الصغار. مقاومتهم الثابتة وعنادهم الذي من خلالهما يتحيّنون كل فرصة لإعادة إحياء النظام الاقتصادي القديم، يتطلب تدابير حاسمة.

يجب إضافة أن الثورة انتصرت في بلد متخلف؛ وشكلت تهديداً مستمراً منذ التردي عام ١٩١٧، المتمثل في شكل تحلل داخلي وتدخل خارجي. إنه من المفهوم لذلك بأن لحظة الرعب، بالتناسب مع الثورات السابقة، قد تمددت على مدى عقود في أكبر ثورة عرفها العالم. وحيثما يسود الرعب والبؤس، لا يمكن لأحد أن يكون سعيداً. لذلك فإن العصر الذهبي ينتمي إلى المستقبل. ادعى المركز أنه قد وصل إلى مرحلة الاشتراكية وأنه الآن يتجه باتجاه تحقيق الشيوعية. اللحظة الراهنة مظلمة ولكن، بالنظر من مسافة بعيدة، على سبيل المثال من عام ٢٩٥٣، سوف تظهر أنها قصيرة كما تبدو لنا فترة عهد الإرهاب في الثورة الفرنسية اليوم[١]؛ وعدد الضحايا (مائتان أو ثلاثمائة مليون، أكثر أو أقل) سوف تبدو بالكاد أكثر أهمية من بضعة آلاف من الأرستقراطيين الفرنسيين الذين جرى قطع رؤوسهم.

دعونا نتخيل لقاء بين اثنين من المريدين المتحمسين لِـ المركز؛ أعتمد في تقريري على مشاهدات شخصية للعديد من مثل تلك اللقاءات. أحدهم كان من الشرق. كان قد أمضى ثلاث سنوات ربما خلف جدران

---

(١) الفترة الممتدة بين عامي ١٧٩٣ و١٧٩٤ من الثورة الفرنسية كانت فيها سلطة الجمهورية الفرنسية في أيدي عدد قليل من الثوار، وأعدم فيها آلاف المشتبه بهم أنهم من أعداء الثورة. (م)

السجون أو معسكرات العمل القسري *هناك*. لم يكن محطماً؛ لم يفقد إيمانه. أينما تُقطع الأشجار، لا بد أن تسقط الشظايا. حقيقة أنه هو، والعديد من زملائه السجناء هم أبرياء، لا تثبت أي شيء: من الأفضل إدانة عشرين بريئاً من إطلاق سراح شخص واحد شرير. أن يتحمل مثل مسار كهذا بنجاح هي مسألة قوة أخلاقية بالنسبة له، وتقدير من قبل رفاقه في الحزب. بعد أن عرف كيفية عمل الآلية خلف الكواليس، فهو يدرك أن بلاد الاشتراكية ستكون وادياً للدموع وصرير الأسنان. ومع ذلك، فإن الإيمان بالحتمية التاريخية والرؤية لثمار الغد يقنعه بأن الواقع القاسي للحاضر ـ حتى لو امتد عدة سنوات ـ عديم الأهمية.

الآخر هو شيوعي من الغرب. ينصب اهتمامه قبل كل شيء على عدم عدالة النظام الذي يعيش فيه. إنه ممتلئ بسخط نبيل ضد ما يجري *هنا*، وبالشغف بما يجري *هناك*، في الأرض التي جاء منها رفيقه. ينظر إليه رفيقه بإحسان، وكلماته تفي بكل التوقعات. ربما يكون هناك ومضة من الدعابة في عينيه أحياناً؛ لكنه مجرد إنسان، مجرد ضعف. دعابته متبلة قليلاً ببعض الحسد؛ السخط الأخلاقي والحماسة للآخرين هي بالنسبة له ترف متعذر في مجال الراحة المعنوية. لو أن الآخر يعرف، لو أنه خضع للمسارات نفسها، كيف سيكون إيمانه؟ أثبتت التجارب أن هؤلاء القادمين من الغرب لا يمكنهم أن يصمدوا عصبياً تحت وطأة الإقامة المطولة في المركز. إن الجرعة قوية جداً بالنسبة لهم. ربما يكونون مفيدين جداً كمبشرين بين الوثنيين أو عندما يغزو بلدانهم جيش «تحرير». وعندما يكون قد فات الوقت كثيراً، عندما لا يملكون خياراً، فإن شكوكهم الداخلية لن تسبب أي ضرر.

لقد تكلمت مع نيرودا. إن مشكلة البلطيق هي أكثر أهمية بكثير بالنسبة إلى كل شاعر معاصر من مسألة الأسلوب والمقاييس والاستعارة. الشعر الوحيد الذي يستحق أن يكون شعراً اليوم هو ما يخص نهاية

العالم، أي هو الشعر الذي يرفض العالم غير الإنساني الحالي باسم التغيير العظيم. قارئ اليوم هو في بحث عن الأمل، وهو لا يأبه بالشعر الذي يقبل الأمور على أنها دائمة. إن كان أحد ما محمّلاً بتلك الطاقة الداخلية غير المعروفة التي تحمل اسم الشعر، فإنه لن يكون قادراً على الهروب من هذا التوقع العالمي وسوف يبحث ـ وهو يسقط، ثم ينهض من جديد، ويسقط، ويبحث مجدداً ـ لأنه يعرف أن هذا هو واجبه. غالباً ما يكون الشعر الثوري أفضل فنياً من شعر الفنانين التصويريين، لأن المواضيع التي يتناولها القريبة من أشواق البشرية تحرر الكلمات المكتوبة من أصفاد البدع الأدبية العابرة.

لكن الشعر الثوري يصبح ضعيفاً عندما يبدأ بتمجيد المستقبل المنشود وكأنه قد صار واقعاً محققاً، أو أنه في طريق التحقق، في بقعة معينة من الأرض. من الصعب الموافقة بشكل مقنع ليس لأن القيم «الإيجابية» لا تتفق مع طبيعة الشعر، بل لأن المصادقة، وكي تكون فعالة، يجب أن تكون مبنية على الحقيقة. إن الشرخ بين الكلمات والواقع يأخذ ثأره، حتى لو كان الكاتب مؤمناً حقيقياً. إن العاطفية، والتي هي استثمار المشاعر لمصلحتها الخاصة، وليس من أجل ما سيبها، لا يمكن أن تقود إلى كتابة جيدة. سوف تقوم الواقعية بوضع الأدب تحت الامتحان عاجلاً أم آجلاً. إن الطرق المبتكرة التي يعزل فيها الستالينيون أنفسهم عن الواقع مدهشة. أعرف شاعراً وجد نفسه في مدينة احتلها الجيش الأحمر بعد اتفاقية مولوتوف ـ ريبينتروب. كان مرعوباً من الاعتقال الجماعي حيث يختفي في كل يوم أصدقاء ومعارف. جلس ليعمل في رعب، وتدفقت من قلمه قصائد رقيقة حول بركات السلام وجماليات المجتمع الاشتراكي. أتذكر بيتاً من الشعر يمجد فيه «المزارع التعاونية السعيدة المزدهرة» لِ أوكرانيا السوفيتية. بعد أشهر عدة، عندما بدأ اجتياح الجيش الألماني، استقبل هؤلاء المزارعون «السعداء المزدهرون» النازيين

كمحررين، ووحدها القسوة الوحشية للغزاة أقنعتهم بأنهم قد اقترفوا خطأ. هذا ليس جدلاً ضد النظام؛ إن بضعة عقود هي فترة تكوينية قصيرة للغاية. لكنه جدل ضد بيت شعر الشاعر.

إن المعايير الأخلاقية المزدوجة التي تطبق على ما يحدث داخل الإمبراطورية وخارج حدودها تجعل الفن النزيه مستحيلاً. قد يكون المنطق الديالكتيكي متوازناً بشكل جيد، إلا أن الفن لم يولد من المنطق الديالكتيكي. الفن مغروس في طبقات بدائية أعمق بكثير وضعتها الأجيال السابقة داخل الفرد. هذه الحقيقة قد لا تكون مقنعة كلياً للحكام الجدد، وللفلاسفة الذين يرغبون في رؤية أدب ديالكتيكي نقي مغذى بتفهم للعمليات التاريخية. ومع ذلك فإن ما يثمنونه على أنه أدب ليس سوى نسخته المزورة. تسمم المشاعر المكبوتة أي عمل، تعطيها طلاء براقاً يحذر الجميع: هذا منتج صناعي. وعندها فإن أجمل الكلمات تكون ميتة بقدر موات الأكاليل الصناعية.

دعونا نفترض أننا نعترف بأن الإرهاب هو إجراء مفيد للغاية وأن على شعب البلطيق أن يُدمر، إلى درجة معينة، لأنه مجموعة مناهضة للثورة. تظهر صعوبة مباشرة: هل يمكن تنظيم معادلة بين الإرهاب، الذي هو لحظي ومرتجل من جهة، ومن الجهة الأخرى الإرهاب المنظم الذي يمتد على مدى فترة طويلة؟ من يمكنه معرفة إن كان أحد ما بإعطائه مدة ألف سنة افتراضية سوف يعتبر أن المقصلة تطابق قتل وتهجير شعوب بأكملها على مدى أشهر وسنوات وعقود؟ إن شهراً من الإرهاب وعشر سنوات منه ليست متشابهة. ينذر عنصر الزمن بالضرورة على نوعية الأعمال. إن فترة طويلة من الإرهاب تتطلب إنشاء أجهزة وأدوات وتصبح مؤسسة دائمة. ربما يحاول الذين يتم ترحيلهم الهرب. يوافق أقرباؤهم بشق النفس على اختفائهم، ويشار إلى أنه سوف يتم وضعهم على القائمة التالية. إن عائلات هؤلاء الأقارب تشكل عنصراً غير

موثوق يمكن إبقاؤه في الصف فقط عن طريق وضعه تحت التهديد. وحده الخوف يمكن أن يثير الكد عند الفلاحين غير الراضين المقيدين إلى المزارع التعاونية.

من المعروف جيداً أن الخوف يشكّل ملاط المجتمعات. في الاقتصاد الرأسمالي الليبرالي الخوف من نقص المال، والخوف من خسارة الإنسان عمله، والخوف من الانزلاق درجةٍ واحدة إلى الأسفل في السلم الاجتماعي، كلها تحث الشخص على بذل جهد أكبر. إلا أن الموجود في الإمبراطورية هو خوف مجرد. في مدينة رأسمالية يبلغ تعداد سكانها مائة ألف نسمة، هناك نحو، لنقل، عشرة آلاف مسكونون بالخوف من فقدان العمل. يبدو هذا الخوف بالنسبة لهم على أنه حالة شخصية مأساوية في ظل اللامبالاة والقسوة من بيئتهم. ولكن لو أن كل المائة ألف شخص عاشوا في خوف يومي، فسوف تنبعث منهم هالة جماعية تخيّم فوق المدينة مثل سحابة ثقيلة. يعزل الذهب الإنسان عن نفسه؛ الخوف المجرد، الذي حل محل المال، يعزله بشكل أكثر كفاءة.

لتجاوز هذا الخوف يجب ابتكار وسائل جديدة: يجب توليد إنسان جديد، إنسان يشكل العمل بالنسبة له متعة وفخراً، بدلاً من كونه لعنة آدم. يتم توجيه أدب ضخم لبلوغ هذه الغاية. كتب وأفلام ومحطات إذاعية جميعها وكذلك موضوعاتها كان لديها هذا التحول، وكذلك إنزال الكره في النفوس ضد العدو الذي سيحاول منع ذلك. إلى الدرجة التي يتعلم فيها هذا الإنسان، وهو ما هو عليه من الخوف، أن ينجز واجباته تجاه المجتمع بإرادته وبفرح، عندها يجب إنقاص جرعة الخوف. وفي النهاية فإن إنساناً حراً سوف يولد.

إن مسألة إمكانية ولادته في ظل مثل تلك الوسائل المطبقة هي مسألة إيمان. إن كان كل شيء في العالم يُحكم بقوانين عقلانية، إن كانت

الحرية لا شيء سوى إدراك تلك الضرورة العالمية العقلانية، إن كان بإمكان الإنسان تحقيق ذلك الإدراك الكامل أن ما هو ضروري وما يجب أن يُرغب هما شيء واحد، عندها فإن مجتمعاً جديداً حراً هو أمر ممكن في المستقبل. بهذا المعنى، فإن الشيوعي الذي أمضى ثلاث سنوات في معسكر الأعمال الشاقة كان حراً، لأنه يعترف بعقوبته وعقوبة زملائه السجناء أنها منطقية وضرورية. وبالمعنى ذاته، فإن الكتّاب في الجمهوريات الشعبية على صواب عندما يقولون إن الإنسان الحر قد وُلد فعلاً، وإنه إنسان الاتحاد السوفيتي. ولكن إن كان الوعي المشابه لوعي الإله (ماذا يمكن أن يعني الاختيار بالنسبة إلى إله يرى كل شيء بوضوح؟) غير ممكن الوصول إليه بالنسبة إلى الإنسان، عندها فإن عدداً معيناً من الناس سوف يختارون دائماً ما يعتبره الفلاسفة الحاكمون أنه خيار خاطئ. أن يجري ذلك، فإن التخفيف من حدة توتر الخوف سوف يعني السماح بإمكانية التمرد. من غير المحتمل أن يكون الخوف المجرد ميّالاً للتنازل عن عرشه. إن شاباً من موسكو، ولد وترعرع في النظام الجديد، هو على المسار الخاطئ عندما يقوم بخياره (وكما يحدث بكل أسف مراراً وتكراراً) ويقرأ ديستويفسكي، الذي طرح هذه المشكلة بأكثر العبارات المتشائمة.

اهتمامنا منصب الآن على دول البلطيق. لم يتم التعامل معهم بقسوة طائشة؛ إن مصيرهم مشابه تماماً لما حدث مع العديد من الأمم داخل حدود الاتحاد. ليس هناك أي سبب لمعاملتهم بشكل مختلف. إن كانت قضيتهم بارزة جداً، فذلك فقط لأنه تم دمجهم على هذا النحو المفاجئ، وكانوا غير جاهزين بالمطلق لظروفهم الجديدة. علاوة على ذلك، فقد كانوا يحتلون مستوى أعلى في الحضارة بكل تأكيد من بقية المواطنين السوفيت. وكونهم ليسوا من السلاف، فقد وجدوا صعوبة في تعلم الروسية. إن قضيتهم تواجهنا بالسؤال الشائك حول القوميات.

عندما يتم الانتصار وتعمّ الاشتراكية كامل سطح الكرة الأرضية، سوف تتوقف القوميات بالتدريج عن الوجود (بمحاولة التنبؤ)؛ سوف تظهر لغة واحدة عالمية، هذه اللغة وفقاً لِـ القائد العام لن تكون الروسية ولا الألمانية ولا الإنكليزية، وإنما مركب من لغات عدة. يمكن أن نفترض أنه قبل حدوث ذلك فإن نسبة كبيرة من العالم سوف تتعلم الروسية، والتي سوف تشكّل لاحقاً أسس اللغة العالمية. (من المؤكد أن الفرنسية هي لغة النظام الإقطاعي، والإنكليزية لغة الرأسمالية، والروسية لغة الاشتراكية). لا يمكن تبرير وجود الأمم عقلانياً؛ ومع ذلك ففي هذه المرحلة الراهنة على المرء أن يتعامل معها على أنها حقيقة. إن تشجيع الثقافات القومية محدود بحدود الدرجة التي تُحضّر التحول إلى المرحلة الثانية. أي شيء يقرب أمة ما أكثر إلى الثقافة الروسية يستحق الحماية؛ أي شيء يحصن النظام يستحق الرعاية أيضاً. في حقل العلم، يمكن حتى تحفيز المنافسة بين الأمم، ما دام التفوق الروسي معترفاً به. (في إحدى الديمقراطيات الشعبية، تم إقناع مجموعة من الباحثين بالحسنى بعدم نشر نتائج أبحاثهم العلمية لأنها جيدة أكثر من اللازم، وهكذا فإنها قد تبدو أنها تنافس بشكل غير لائق التفوّق الروسي في الحقل ذاته). علينا أن نبقي في ذهننا الهدف النهائي، وهو تذويب كافة الأمم في كتلة واحدة. تحقيقاً لهذه الغاية، يجب إبادة القومية. تقوم القومية على الاقتناع بأن الثقافة الوطنية هي التعبير عن «المكونات الوطنية في أشكال وطنية»؛ في حين يعلم الجميع أن مكونات الثقافات الوطنية كانت تمتلك حتى الآن طابعاً طبقياً.

عكس القومية هو صيغة لِـ «ثقافة قومية في الشكل، واشتراكية في المضمون». وبما أن الأمة الروسية هي من قامت بالثورة وأسست نماذج الثقافة الاشتراكية، استلّتهم من ماضيها الخاص، فإنه يمكن تعريف القومية ببساطة على أنها معاكسة لِـ 'الروسنة'. إن كانوا قد عانوا من ذلك

المرض الفظيع، فإن مجموعات قومية صغيرة (تتار القرم على سبيل المثال) يمكن تصفيتهم بمجملهم. مجموعات قومية كبيرة من المعادين للروس يجب التعامل معهم تدريجياً. يمكن الفخر بالنجاح الباهر الذي تحقق في أوكرانيا. تزايد عدد الكتاب الأوكرانيين الشبان الذين انتقلوا إلى موسكو وكتبوا بالروسية. الشعراء والنقاد الأوكرانيون الذي حلموا بأدب أوكراني *مختلف* قد غادروا هذا العالم؛ ورحل أيضاً الممثلون الذين جعلهم فخرهم بمسرحهم الوطني يذهبون بعيداً بعض الشيء في المنافسة مع الروس. هكذا يقول منطق تهتئة الذات. يمكن أن يكون المرء راضياً وبحق عن شؤون دول البلطيق. بالنسبة للديمقراطيات الشعبية، فإن النمط المفروض هناك، المعدل في ضوء الخبرة الماضية، يثبت حكمة التخطيط طويل الأمد.

المهمة صعبة لأن كل دولة من الدول مثقلة بماضيها الخاص؛ على سبيل المثال، إن شعب البلطيق ميال إلى اعتبار ثقافة كولاك البلطيق أنها تخصه. إنهم يقارنونها بثقافة روسيا. وكأن المقارنة ممكنة! روسيا أمة عظيمة؛ ولدت الثورة في رحمها. وحده أحمق عاق يمكن أن يقارن ماضيها، الذي يحمل ما سيكون أعظم ثورة في العالم، مع ماضي دول صغيرة حررتها. روسيا هي منقذة العالم.

لم تُرتكب أعمال وحشية. يُقتل من يستحقون القتل فقط، ويُعذب أولئك الذين يجب الحصول على اعترافهم فقط، ويُرحّل الذين يجب ترحليهم فقط. إن مات المطرودون بسرعة، فإن هذا ذنب الطقس والعمل القاسي والحصص الغذائية غير الكافية، ولا يمكن فعل شيء في ما يخص هذه المضايقات في المرحلة الراهنة. لا يمكن لأحد أن يتوقع من دولة مكلفة بمهمة بمثل هذه العظمة أن تهتم بسجنائها مثلما تهتم إنكلترا بجنودها. ربما لو كانوا يعاملون بشكل أفضل فإن هؤلاء السجناء قد يموتون بسرعة أقل، ولكن عندها فإن عملهم سوف يتوقف عن كونه

رخيصاً. وعلى أي حال، فإن الطعام قبل أن يصل إلى السجناء في المعسكر، وغالباً ما يكون في حالة سفر لمدة خمسة أيام في القارب من أقرب بلدة، يقوم الإداريون في المعسكر بسرقة معظمه. سوف يتغير كل شيء عندما يتحسن مستوى المعيشة. عندها فإن السجناء أيضاً سيكونون أفضل حالاً.

يثبت المروجون لمثل هذه الحجة بواسطتها بعد نظرهم المثير للإعجاب. إن دول أوروبا الوسطى والشرقية كانت وطنية إلى حدّ الجنون. كانوا مستعدين لذبح بعضهم بعضاً لأجل قصاصة من الأرض. واليوم يروون كم كان ذلك الأمر لا معنى له، ومع ذلك فهذا لن يمنعهم على الأرجح من الإمساك بخناق بعضهم إن رُفعت سيطرة المركز. «وافقوا» تحت حكم المركز على تسوية متبادلة. تخلّى البولنديون عن أقاليمهم الشرقية؛ قبلت ألمانيا الشرقية خط أودر ـ نيسي[1]؛ تخلى التشيك والهنغاريون عن مطالباتهم بمنطقة الكاربات الأوكرانية. وضع الترحيل نهاية لقضايا الأقليات. اتبعت كل الجمهوريات النموذج الاقتصادي والثقافي ذاته الذي وضعه المركز. العامل الوحيد الذي يفرق الآن الجمهوريات المتعددة هو اللغة. الخطة العظيمة تعمل.

المشكلة الوحيدة هي المريض. إنه يصرخ ويكافح للهرب. في رواية *مدام بوفاري*، يصف فلوبير عملية جراحية على قدم مشوهة قام بها الدكتور بوفاري. قرر هذا الطبيب القروي، بالتعاون مع صديقه الصيدلاني هوميلس، معالجة خادم في حانة القرية كان أعرج. أقنعوه بعد صعوبات جمة بتسليم نفسه لمساعيهم. صمّم دكتور بوفاري بمساعدة كراريس طبية صندوقاً خشبياً يزن ثمانية باوندات، مجهزاً من الداخل

(١) الحدود بين ألمانيا وبولندا على طول نهري أودور ونيسي منذ عام ١٩٤٥. (م)

بخطافات حديدية وبراغي وحبال جلدية. نجحت العملية نجاحاً مدهشاً، وربطت الساق في الصندوق. «شرف عظيم، شرف مضاعف ثلاثاً!» أعلنت جريدة القرية بصوت عالٍ. «ألم يَقُل إن الأعمى سوف يبصر، والأعرج سوف يمشي! يا لروعة ما يعدنا العلم الحديث المنتخب بتحقيقه لخير البشرية!»، لكن للأسف، بعد خمسة أيام بدأ شيء ما يحدث بشكل خاطئ مع المريض. كان يصرخ من الألم. عندما فتح الصندوق تبين أن الساق متورمة ومغطاة بالقروح. قرر الصديقان أن الساق لم تكن مربوطة بشكل جيد. فقاما بشد البراغي أكثر. ومع ذلك فقد صار وضع المريض من سيئ إلى أسوأ. شخص طبيب تم استدعاؤه من قرية مجاورة شخّص المرض بالغرغرينا وبتر الساق. من البديهي أن فلوبير نال متعة خبيثة كبيرة من التهكم على عبادة مسيو هوميس للتقدم. هذا لا يعني أن العملية نفسها إن قام بها أطباء جيدون سوف تفشل. ومع ذلك، ثمة شك هناك دائماً: هل الدكتور الذي نتعامل معه هو طبيب جيد حقاً؟

«في الحقيقة، كل هذا الأمر يبعث على الملل». قال لي أحد المسؤولين من إحدى الديمقراطيات الشعبية. «لقد رأيت ذلك يحدث بالفعل في روسيا. يجري قياس المراحل مسبقاً، وهم ينجحون، بعضهم بدقة رياضية. الفائدة الوحيدة تكمن في مراقبة ردود أفعال المادة البشرية».

يبدو أن المادة البشرية لديها مأخذ واحد رئيس: إنها لا تحب أن يتم اعتبارها على أنها مجرد مادة بشرية. إنها تجد من الصعوبة تحمل الشعور بأن عليها تسليم نفسها إلى وضع قبول إيجابي للتغيرات الموضوعة من الأعلى.

يمكن للنظام البرلماني في كثير من الأمثلة أن يكون مجرد تصميم خيالي لتأمين السلطة للفئات الاجتماعية نفسها باستمرار. ومع ذلك فإن إمكانية طرح تصويت معارض تمتلك قيمة منعشة. أن تكون جزءاً من

اعتراض ضد وزير في الدولة، أو إضراب، أو قراءة صحافة المعارضة، أو كل اللحظات المزخرفة بالانفراج العاطفي، والتي هي ربما جيدة لصحة الجنس البشري. قد يكون الكبرياء الوطني شعوراً سخيفاً، ومع ذلك فإن فخر الديك بينما يتبختر في فنائه بين الدجاجات مفيد بيولوجياً.

إن المركز بالطبع ليس جاهلاً بالاحتياجات النفسية للبشر؛ ومن هذا المنطلق كانت المسيرات والرايات والملصقات والصور ودعايات أوقات الانتخابات والمظاهرات ضد أعداء البلد. يُغازل الكبرياء الوطني عن طريق عرض الأعلام الوطنية وكذلك بالإعلان اليومي عن المنجزات الاقتصادية الأخيرة، وعن طريق إشادة البنايات والطرق السريعة وخطوط السكك الحديدية، وإنجاز الخطة الإنتاجية. في المجمل تبدو هذه الوسائل فعالة؛ ومع ذلك فإن نقص بعض العناصر غير الملموسة يقود المادة البشرية إلى الشعور *أنها في قصة خيالية*. لا شيء *عفوي*. يمكن للإنسان ضمن حدود عمله أن يكتسب بعض الكبرياء المعقولة. خارج هذه الحدود، فإن كل شيء مقرر سلفاً. بين عشية وضحاها يمكن لمرسوم من الأعلى أن يقيل حكومة بأسرها، أن يغير حدود بلد، أو أن يأمر الناس أن يكرهوا من كانوا بالأمس أصدقاء. إن صمامات الأمان الرسمية هي على الأغلب أقنية غير كافية لمشاعر الكبرياء الوطني إن كان أغلب الليتوانيين والإستونيين واللاتفيين والبولنديين والتشيك والرومانيين سوف يقومون طوعاً بقطع عنق أي روسي تقع أيديهم عليه لو لم يكونوا مقيدين بالخوف. يشك المرء في أن حتى كوادر الحزب لن تتنكر لمثل هذا المشهد السار. يمكن للمرء أن يشكو من تخلف هذه الدول فقط ويأمل بأن التربية الاشتراكية سوف تؤدي إلى تنويرهم. لكن سيكون من الخطأ إنكار هذه الحقائق غير السارة وحتى السيئة منها، وبشكل رئيس أن مثل هذه الكراهية موجودة حتى في الأمم التي خضعت لفترات طويلة من التعليم الحريص.

إن دمج دول البلطيق مع الاتحاد السوفيتي قد يبدو أنه حادث غير مهم بالنسبة لمواطن من المكسيك أو تشيلي، لكن ليس لملايين الناس الذين يعيشون في الديمقراطيات الشعبية. كانوا يتأملون على مدى سنوات طويلة في هذا الفعل غير الطبيعي من جانب قوة عظمى، فعل مماثل فقط لبعض الأعمال السيئة للسياسات الاستعمارية. إن كان الاتحاد العظيم قادراً كـ «فيدرالية» على استيعاب عدد غير محدود من «الجمهوريات»، فذلك يعني أنه سوف يتم ابتلاع بلدان أخرى بدورها يوماً ما. إن كان ما حدث لدول البلطيق هو *نذير* لما سيحصل لهم يمكن لهم أن يتطلعوا إلى ترحيل جماعي وتوطين المستعمرين من قارة أوراسيا في مدنهم وقراهم. الناس من الدول التي تحب بروباغاندا الحزب أن تسميها بِ المستقلة يفكرون بهذه اللحظة المستقبلية المقبلة على أنها يوم الدينونة. إن قدر دول البلطيق قد أصبح عاملاً نفسياً خطيراً. في دفتر يومياته من الأقوال والأفعال، يقوم كل مواطن بتقييمها ليس من حيث قيمتها الحالية، بل من حيث يوم الحساب المستقبلي.

الصديق الذي حذرني من التعرض لغضب زيوس هو فيلسوف. يعيش بين كتبه مدركاً أنه بغض النظر عن مدى ارتجاف المادة البشرية، فإنه لن يكون هناك نقص أبداً في الطبعات الجميلة لِ كريتيوس[1] المنشورة في موسكو. مع تمدد المجتمع الجديد، سوف يزداد عدد الأعمال الكلاسيكية التي يعاد تحريرها. إن الرجل الحكيم الذي يزدري الأدب ضعيف المستوى للحاضر، سوف يجد باستمرار بهجة في تاريخ الفلسفة، وفي الكتاب القدماء، وفي الدراسات المعقدة لكن المثيرة للمادية الدياليكتيكية. يكون الفيلسوف حقاً في أسعد حالاته عندما يعيش في بلد يحكمه رجال إذا ما تمت مقارنتهم بالملك ورئيس الوزراء في

---

(١) شاعر وفيلسوف روماني. (م)

العصور الغابرة سوف يكونون مجرد مرتجلين. أيامه مكرسة للشؤون الثقافية. وعندما يلتقي زملاءه الفلاسفة فإنه يعرف أنهم هم أيضاً يسحبون الحكمة من بئر الدياليكتيك.

لقاءات مثل هؤلاء الناس لا علاقة لها بالهذيان العقيم غير المسؤول للإنتيليجينسيا؛ إنها لقاءات علماء مشاركين في تشييد بنية اجتماعية. لا يؤمن صديقي بِـ «التفلسف». إنه يؤمن أن الإنسان حيوان اجتماعي فكره هو انعكاس لحركة الأمور. الباحثون عن الحقيقة ليسوا أكثر من دمى تحاول أن تنكر أن أفكارها مجرد انعكاس للعمليات التاريخية. إنهم رجعيون يخدمون عدو البروليتاريا؛ لأن البروليتاريا، ومن ضرورة لا مفر لها، هي التي شكلت النهج الوحيد الحقيقي للمادية الدياليكتيكية. سوف ينتصر الاتحاد السوفيتي بشكل أكيد تماماً مثلما تبرعم الأشجار في الربيع. إن الإنسان الذي يفهم الضرورة هو إنسان سعيد وحر، لأن كل حرية مختلفة عن هذه وتقوم على فهم الضرورة هي مجرد وهم. يؤمن صديقي بأن هؤلاء الذين يعانون في المجتمع الجديد عليهم ألا يلوموا سوى أنفسهم. والذين تم ترحليهم أو اعتُقلوا هم حمقى لا يستحقون شفقتنا. إنهم مثقلون بالماضي إلى حد أنهم غير قادرين على فهم قوانين التقدم. لو أنهم فهموا، فإنه لا شر سوف يمسهم وستكون حياتهم فعالة وهادئة.

صديقي يحبني بسبب كراهيتي للعقلية البليدة الضبابية غير القادرة على امتلاك انطباع دقيق لظاهرة معينة في حركة كاملة. خمن، وهو محق في ذلك، أنني طالما تقت لأن أرى إنساناً ذكياً صلباً ونقياً. عندما أنظر إلى إنسان كما هو، فإنني أدير بصري بعيداً عنه بخجل، وأدير بصري بعيداً عن نفسي لأنني أشبهه. كل شعري كان *رفضاً*، سخرية من نفسي ومن الآخرين لأن البشر يفرحون بما لا يستحق الفرح، ويحبون ما لا يستحق الحب، ويعانون مما لا يستحق المعاناة. ألا أنتمي، في هذه

النقطة وحدها، إلى هؤلاء الخالقين للعالم الجديد الذين يمتلكون رؤية للإنسان الجديد الموهوب بنقاء فوق بشري؟ كنت بكل تأكيد «وثنياً جيداً»، لأن غضبي كان غضب البلاشفة. في كل مكان خارج بلدان الإنسان الجديد سأكون ملزماً بالشعور بأنني مشرد.

أملك حقاً بعض الأصول التي يمكن أن تضمن لي سعادة مستقبلي. في وارسو، التي تعيد بناء أنقاضها، يمكن لي أن أعمل بانسجام مع قوانين التاريخ. يمكن أن أترجم شكسبير؛ يا للمتعة في خرق حدود اللغة وإيجاد جمل موجزة مثل الأصلية. كان من الممكن أن أتولى الدراسات الماركسية في إنكلترا القرن السادس عشر. وربما كنت سأكون أستاذاً جامعياً. وبين الوقت والآخر سأنشر قصيدة توضح ولائي للثورة ولمؤسسيها. متحركاً بين حلقات الفلاسفة وشاغلاً نفسي بالديالكتيك، سوف أتعامل مع الجهود التي يبذلها الكتاب والرسامون والموسيقيون بخفة كبيرة، مدركاً أن فنهم سيئ، ولا بد أن يكون كذلك. كنت سأستمع إلى باخ، وأقرأ سويفت وفلوبير.

ومع ذلك فقد خدعت صديقي. أنا نفسي أجد من الصعوبة تحديد ما قادني لفعل ذلك. سأكون رجلاً حكيماً لو كان بإمكاني التعبير عنه، أو أستاذاً أو فيلسوفاً. أعتقد أن دوافعي تكمن عميقاً في ماضيّ، في حادث يجب عليّ سرده.

أثناء ترحالي في بداية الحرب العالمية الثانية، حدث أن وجدت نفسي، ولفترة قصيرة جداً، في الاتحاد السوفيتي. كنت أنتظر القطار في محطة في إحدى المدن الكبرى في أوكرانيا. كانت محطة ضخمة. امتلأت جدرانها بصور ورايات لا يوصف قبحها. حشد كثيف يرتدي معاطف من جلد الخروف وأزياء عمل رسمية وقبعات الفراء ومناديل صوفية يملأ كل الفراغات المتوفرة ويترك آثار وحل سميك على الأرض

المكسوة بالبلاط. كانت الأدراج الرخامية مغطاة بالمتسوّلين النائمين، سيقانهم العارية تبرز خارج خرقهم البالية التي يرتدونها على الرغم من أن الجو كان جليدياً. فوقهم مكبرات صوت تصيح بشعارات البروباغاندا. بينما كنت أعبر المحطة وقفت فجأة ونظرت. عائلة فلاحية ـ زوج وزوجة وولدان ـ استقرت قرب الجدار. كانوا يجلسون على سلال وصرر. كانت الزوجة تطعم الولد الأصغر؛ والزوج الذي كان بوجه مجعد وشارب أسود متهدل كان يصب الشاي من أبريق في فنجان للولد الأكبر. كانوا يتهامسون بالبولندية. حدقت بهم حتى شعرت بالتأثر إلى حدود البكاء. ما أوقف خطواتي فجأة وأثر بي بهذا العمق كان *اختلافهم*. كانت تلك مجموعة بشرية، جزيرة وسط حشد يفتقد إلى شيء يليق بحياة الإنسان العادية المتواضعة. حركة اليد التي تصب الشاي، ومناولة الفنجان المتأنية الرقيقة إلى الولد، الكلمات القلقة التي خمنتها من حركة شفاههم، انفصالهم، خصوصيتهم وسط الحشود ـ هذا ما أثر بي. وعندها، فهمت بلحظة شيئاً أفلت من قبضتي بسرعة.

إن الفلاحين البولنديين هم بكل تأكيد بعيدون عن قمم الحضارة. من المحتمل أن العائلة التي رأيتها كانت أمية. كان صديقي سوف يدعوهم بالأجلاف البلهاء كريهي الرائحة الذين يجب تعليمهم كيف يفكرون. ومع ذلك فإن بذوراً ثمينة من الإنسانية كانت محفوظة فيهم، أو في شعب البلطيق، أو عند التشيك، لأنهم لم يتعرضوا بعد للعلاج العلمي لِ مسيو هوميماس. من الممكن جداً أن الحب الذي ترعى به نساء البلطيق حدائقهن الصغيرة، وخرافات النساء البولنديات وهن يجمعن الأعشاب لتحضير رقيات، وعادة وضع طبق فارغ إضافي على المائدة لمسافر ما في عشية الميلاد، يستدل بها على الخير المتأصل الذي يمكن العمل على تطويره. في الحلقات التي يعيش فيها أصدقائي، أن تقول عن إنسان إنه لغز فكأنك تهينه. لقد خططوا لنحت إنسان جديد تماماً مثل ينحت

نحات تمثاله من قطعة حجر، عن طريق تكسير وحتّ وإزالة الأجزاء غير المرغوب فيها. أظن أنهم على خطأ، وأن معرفتهم بكل كمالها غير كافية، وأن سلطتهم على الحياة والموت مغتصَبة.

كوني من أولئك البشر الذين يحاولون من خلال التأتأة والغمغمة أن يعبروا عن أنفسهم في عجزهم المعزول، هل كان بإمكاني المشي على السجادة السميكة في شقتي، في حي محجوز للأشخاص ذوي الامتياز، والاستمتاع بِـ شكسبير؟ وبدلاً من اليد التي يتدفق فيها الدم من القلب إلى أطراف الأصابع التي تمسك القلم، سوف يعطونني يداً اصطناعية ممتازة ـ الدياليكتيكية. وبمعرفتي أن ثمة نوراً في الإنسان، فأنا لن أجرؤ أبداً على البحث عنه؛ لأنني أعتقد أن النور ليس مثل الوعي السياسي، ويمكن له أن يوجد عند الحمقى والرهبان، والأولاد الذين لا يحبون الواجبات الاجتماعية، والكولاك. وبمعرفتي أن هناك جريمة في الإنسان، فلن يمكن لي أبداً أن أشير إليها؛ لأن عليّ أن أؤمن، كما يفعل صديقي، بأن الجريمة هي من إنتاج التاريخ وليست من الكائن البشري. هناك جرائم في الماضي: مئات آلاف البولنديين هُجروا عام ١٩٤٠ ـ ٤١، منهم من قتل بالرصاص، ومنهم من غرق في المحيط المتجمد الشمالي. لكن على الإنسان أن يتعلم أن يسامح. أنا مهتم بالجرائم التي ارتكبت، والتي سوف يستمر ارتكابها. جرائم باسم الإنسان الجديد المتألق؛ جرائم مرتكبة على صوت الأوركسترا والكورال، على دوي مكبرات الصوت وتلاوة القصائد المتفائلة.

أنا الآن مشرد ـ عقوبة عادلة. لكن ربما أكون قد ولدت لكي يتمكن «العبيد الأبديون» من الكلام من خلال شفتي. لماذا عليّ تجنيب نفسي؟ هل عليّ أن أتنكر لما هو على الأرجح الواجب الوحيد للشاعر من أجل أن أكون واثقاً فقط أن أشعاري سوف تطبع في مجموعة أدبية محررة من قبل دار النشر الوطنية؟ قبل صديقي الرعب المجرد، مهما كان الاسم

الذي اختار أن يعطيه له. وافترقت طرقنا. سواء كان الجانب الذي أجد نفسي عليه الآن سيكون نصر المستقبل أو ضحية المستقبل ليس هو المسألة هنا. لكنني أعرف أنه إن تذوق صديقي ثمار النصر الطيبة، فإن هذا الكوكب سوف يتطور وفقاً لخطة تمتد على مدى قرون؛ لكن ويل لمن سوف يعيش ليشهد حدوث ذلك. حول العالم الآن ينام الناس في أسرتهم، أو ربما يكونون مشغولين بهواية غريبة ما؛ وربما يعتقد المرء بسهولة أن كلاً منهم على طريقته يبذل جهده ليستحق الخراب. إلا أن هذا الخراب لن يجلب الحرية. إن تبين لاحقاً أن القوة التي يعبدها صديقي قد لا تكون ضرورة تاريخية، فإن الكرة الأرضية سوف تدخل مرحلة من الحروب الرهيبة والثورات الدموية. لكن لن ينتهي البحث أبداً، وسوف يستمر الأمل.

دع بابلو نيرودا يحارب من أجل شعبه. لكنه مخطئ مع ذلك عندما يظن أن كل الأصوات المحتجة في أوروبا الوسطى والشرقية هي أصوات قوميين متعصبين أو صرخات رد فعل خاطئ. إن العيون التي رأت لا يجب إغلاقها؛ والأيدي التي لمست لا يجب أن تنسى عندما ترفع القلم. ليسمح لبضعة كتاب من أوروبا الوسطى والشرقية أن يناقشوا مشاكل أخرى غير تلك التي تطارده.

عندما أقف أمام زيوس، كما اقترح صديقي، (سواء متّ بشكل طبيعي، أو بسبب الحكم الصادر عن التاريخ) سوف أكرر كل هذا الذي كتبته في دفاعي. يمضي العديد من الناس حياتهم بأكملها وهم يجمعون الطوابع أو العملات النقدية القديمة، أو يزرعون التوليب. أنا واثق أن زيوس سيكون رحيماً تجاه الناس الذين وهبوا أنفسهم بالمطلق لهذه الهوايات، حتى لو كانت مجرد لهو مسلٍّ عديم الجدوى. سأقول له: «ليس خطأي أنك صنعتني شاعراً، وأنك أعطيتني موهبة أن أرى في الوقت ذاته ماذا يحدث في أوماها وبراغ، وفي دول البلطيق وكذلك على

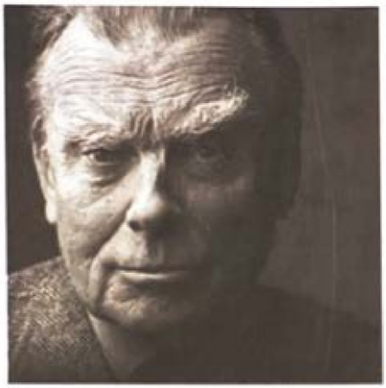
شواطئ المحيط المتجمد الشمالي. أحسست أنني إن لم أستخدم هذه الهبة فإن شعري سيكون عديم الطعم بالنسبة لي والشهرة ستكون مقيتة، سامحني». وربما زيوس، الذي لا يعتبر أن جامعي الطوابع وزارعي التوليب سخيفين، سوف يسامح.

# الفهرس


المقدمة ..... ٥
الفصل ١ ..... ١٥
الفصل ٢ ..... ٣٩
الفصل ٣ ..... ٦٩
الفصل ٤ ..... ٩٩
الفصل ٥ ..... ١٣١
الفصل ٦ ..... ١٥٩
الفصل ٧ ..... ٢٠١
الفصل ٨ ..... ٢٢١
الفصل ٩ ..... ٢٥٥

# هذا الكتاب

أنا الآن مشرد ـ عقوبة عادلة. لكن ربما أكون قد ولدت لكي يتمكن «العبيد الأبديون» من الكلام من خلال شفتي. لماذا عليّ تجنيب نفسي؟ هل عليّ أن أتنكر لما هو على الأرجح الواجب الوحيد للشاعر من أجل أن أكون واثقاً فقط أن أشعاري سوف تطبع في مجموعة أدبية محررة من قبل دار النشر الوطنية؟ قبل صديقي الرعب المجرد، مهما كان الاسم الذي اختار أن يعطيه له. وافترقت طرقنا. سواء كان الجانب الذي أجد نفسي عليه الآن سيكون نصر المستقبل أو ضحية المستقبل ليس هو المسألة هنا.



ISBN 978-9922901336
9 789922 901336
الغلاف : سكينة صلوّن